

UTL AT DOWNSVIEW



D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 13 08 12 06 020 0

PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

B Sultan Muhammad ibn 'Ali
741 al-Falsafah al-'Arabiyah
S84 wa-al-akhlaq
1911



Digitized by the Internet Archive
in 2011 with funding from
University of Toronto

كتاب

الفلسفة العربية والاختلاف

وهو ملخص الدروس التي ألقاها

سلطان بك محمد

بالجامعة المصرية التي يرأسها صاحب الدولة والاقبال

الامير الجليل

البرنس صمير فؤاد باشا

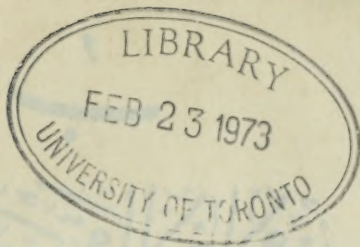
نجل ساكن الجنان المرحوم اسماعيل باشا

خديو مصر الاسبق

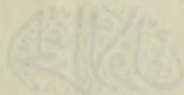


الطبعة الأولى

في الفلسفة العربية



B
741
584
1911



فهرست كتاب الفلسفة العربية

مؤلف

سلطان بك محمد

صفحة	
٥	خطبة الكتاب
٦	مقدمة في الكلام على النفس الناطقة
١٠	تعريف الفلسفة وذكر أقسامها
١٣	نبذة في تاريخ اليونان
١٤	ديانة اليونان
١٦	ذكر بعض مشهورى فلاسفة اليونان — سقراط
٢٥	افلاطون
٢٨	ارسطوطاليس
٣١	فرق الفلاسفة
٣٦	أساطين الحكماء
٣٧	أقسام الحكماء الذين نظروا في اصول الوجودات
٣٨	بيان من اشتهر بالحكمة من الامم
٤٠	نتيجة فيها الفرق بين الانبياء عليهم السلام والحكماء
٤٢	الاسلام وتطرق الفلسفة اليه وما استعقبه ذلك من التأثير
٤٦	ذكر بعض مشهورى فلاسفة الاسلام — ابو نصر الفارابي
٤٧	ابن سينا

٤٩

حفيد ابن رشد

٥٢

ذكر ادوار الفلسفة اجمالاً

٥٣

تقسيم الدليل من حيث مادة القضية — البرهان

٥٧

الدليل الخطابي

٥٨

الدليل الجدلي

٥٩

تقسيم الدليل الى عقلي وغيره

٦٠ الكلام على انواع الادلة من حيث افادتها اليقين أو عدم افادتها اياه

٦٢

أقسام المطالب من حيث اثباتها بالدليل العقلي أو النقل الخ

٦٣

الدور

٦٣

اسباب وجود الشيء

٦٤

وجوب وجود العلة الفاعلة مع معلولها

٦٥

التسلسل

٦٧

تناهي الابعاد

٧٠ الكلام على الوجود الخارجي وآراء الباحثين فيه و بيان كونه عين

٧٠

الماهية أو غيرها ومنشأ الخلاف

٧٤

الوجود الذهني و بيان ان الخلاف فيه لفظي

٧٧

مبحث انواع الادراك

٧٨

الوحدة والكثرة

٧٩

مقدمة لاثبات واجب الوجود

٨٠

الطريقة الأولى لاثباته

٨٣

الطريقة الثانية

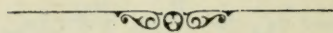
٨٧

محقق في معنى علم الله وله دخل في حل مسألة القضاء والقدر

٩١

وحدانية الله جل شأنه وآراء بعض الطوائف فيها

صفحة	
٩٥	تفضيل البراهين العقلية على العقلية
٩٦	الرسول عليهم السلام
٩٩	أمارات صدق مدعى النبوة والكلام على المعجزة
١٠٠	نبوة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وبيان اعجاز القرآن الكريم
١٠٣	الكلام على الميعاد الروحي
١٠٦	الميعاد الجثامي
١٠٨	نعيم الجنة وعذاب النار
	رواية الله سبحانه وتعالى واختلاف الآراء فيها وبيان الحق
١٠٩	فيها ونقطة الخلاف
١١٦	بيان القضاء والقدر ووجه اثابة الانسان وعقوبته على افعاله
١٢٣	تعريف النسخ وبيان انه من مقتضيات الشريعة الحقة
	دفع شك وارد على جواز النسخ في الشريعة الاسلامية مع
١٢٥	انها خاتمة الشرائع
	الكلام على الباطنية وعلى الامام ابن الحسن الأشعري وكتاب
١٢٧	اخوان الصفاء



محمد هاشم سيد الخطيب
الحسنى القادري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَللَّهُمَّ إِلَيْكَ وَجِهْتَنَا . يَا مَنْ تَفَرَّدْتَ بِالْحَمْدِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَسَخَّرْتَ الْعَوَالِمَ لِأَبْنَاءِ النَّوَاسِيتِ لِيَنَالُوا سَعَادَتَهُمُ الْفَانِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ صَلَّى وَسَلَّمَ
عَلَى مَنْ بَعَثْتَهُ لِيَتِمَّ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ وَعَلَى عَامَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وَبَعْدَ
فَقَدْ رَجَوْنَا لِلْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ نَجَاحًا وَفَلَاحًا فِي تَثْقِيفِ عُقُولِ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ
الْمِصْرِيَّةِ وَالنَّهْوِضِ بِهِمْ إِلَى أَوْجِ الْحَضَارَةِ كَيْفَ لَا وَالْقَائِمِ بِأَدَارَتِهَا صَاحِبِ
الدَّوْلَةِ وَالْإِقْبَالِ الْأَمِيرِ الْجَلِيلِ فُؤَادِ بَاشَا نَجَلِ سَاكِنِ الْجَنَانِ الْمَرْحُومِ
اسْمَاعِيلِ بَاشَا خَدِيوِ مِصْرَ الْأَسْبِقِ وَهُوَ فَرْعُ زَاهِرٍ مِنْ تَلْكَ الدَّوْحَةِ
الْعُلُويَّةِ الَّتِي شَمَلَتْ مِصْرَ بَرَكَاتِهَا وَأَظْلَمَتْهَا رِعَايَاتِهَا وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ عَنَايَةِ دَوْلَتِهِ
بِنَشْرِ الْعُلُومِ فِي هَذِهِ الدَّارَةِ مَا يَحْتَقِقُ لِمِصْرَ آمَالِهَا وَيَجْمَلُ أَحْوَالِهَا وَذَلِكَ
بِرِعَايَةِ أَمِيرِنَا الْأَكْرَمِ عَبَّاسِ بَاشَا هَلَمِي خَدِيوِ مِصْرَ الْمُعْظَمِ سَدَّدَ اللَّهُ إِلَى
الصَّوَابِ رَأْيَهُ وَأَنْفَذَ فِي الْحَقِّ أَمْرَهُ وَنَهَيْهِ وَحَرَسَهُ بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ
وَحَاطَهُ بِوَقَايَتِهِ الَّتِي لَا تَرَامُ وَحَفِظَ أَنْجَالَهُ الْكِرَامَ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ

هَذَا وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ عَهَّدَ إِلَيْهِمْ بِالْتَدْرِيسِ فِيهَا شَرَعْتُ فِي كِتَابَةِ
مَا أَلْقِيهِ مِنْ بَعْضِ مَبَاحِثِ الْفَلَسَفَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ رَاجِيًا مِنْ ذِي
الْفَيْضِ الْمَطْلُوقِ أَنْ يَوْفِقَنِي إِلَى الصَّوَابِ فِي الْبَدَايَةِ وَالنَّهَايَةِ وَأَنْ يَجْعَلَ الْعَسِيرَ
لَدِيَّ يَسِيرًا — رَبِّ يَسِّرْ وَلَا تَعَسِّرْ رَبِّ تَمِّ بِالْخَيْرِ —

سلطان محمد

اعلم ايها الناظر في الانسان الباحث عن خصائصه قد يضح لك ان فيه شيئاً مبيئاً للجسم وأعراضه وأفعالاً تضاد أفعاله وخواص تضاد خواص أعراضه

أرأيت ان الجسم من حيث كونه جسماً لا يقبل إلا شكلاً واحداً فاذا كان شكله التثليث لا يقبل التربيع والاستدارة التامين الا اذا زال شكل التثليث بالكلية كما تشاهده في قطعة من الشمع أو الطين مثلاً وكذلك اذا صورته بصورة مخصوصة لا تراه يقبل صورة أخرى تمام القبول الا اذا زالت صورته الأولى انظر الى قطعة ذهبية صورتها صورة خاتم تراها لا تقبل صورة قرط الا اذا أزلت صورة الخاتم وتري الانسان تعرض له صور الأشكال المختلفة المتباينة وتحصل له مجتمعة بل كلما حصلت له زاد استعداداً لقبول غيرها

رأيت الحرارة اذا حصلت لجسم لا تعرض له البرودة الا اذا زالت تلك الحرارة وكذا الملابس لا تعرض له الا اذا زالت الخشونة ولا يعرض له لون من الألوان اذا سبقه لون آخر الا بعد ذهاب ذلك اللون الآخر فهل رأيت هذه الخاصة التي للأعراض ثابتة لذلك الشيء الذي في الأنسان انك لا تنكر انه قد يدرك تلك الأعراض وتحصل لها متبايناتها معاً وذلك يزيد قوة في حصول تلك الأعراض لديه اذا أنصفت وسامت ما قلناه فاعلم أن ذلك الشيء هو النفس الناطقة وانها ليست بجسم ولا عرض أراني أسوق لك تلك الأدلة الواضحة على ان نفس الانسان ليست جسماً ولا عرضاً وأنت في ريب من ذلك بما يقرع سمعك من أقوال العلماء بأن وجود تلك المدركات لدى النفس الانسانية ذلك الوجود الذي

يترتب عليه أن يقال انها عاملة له انما هو وجود ظلي ذهني تسلب عنه اللوازم الخارجية لتلك المدركات ألا ترى نفسك أنك تدرك اجتماع النقيضين والحمة والسواد معاً والنار بدون ان تحس بحرارتها والتلج بدون أن تحس ببرودته وما ذكرته في الأجسام وعروض الأشكال المختلفة لها والاعراض المتباينة وعدم اجتماع احدها مع الآخر انما هو في الوجود الخارجي لا الذهني الظلي فلا يتم لك التقريب ولو فطنت ارشدك الله الى الصواب لعامت ان هذا حال ما ليس بجسم ولا عرض فان اتصافه بالاشياء وعروضها له لا يتأتى الا على هذا النحو والا كان جسماً قابلاً لان يكون ذا شكل لا يقبل غيره الا بعد زواله كما هو شأن الوجود الخارجي وكذا القول بالنسبة للأعراض

انظر ايضاً في المدركات تجد انها تدرك اشياء لا تدركها المشاعر الخمسة كاجتماع النقيضين والحكم على المحسوسات بالتماثل او التباين تراها ايضاً تدرك المعاني الكلية المنتزعة من الجزئيات المدركة بواسطة تلك المشاعر كل هذه الاشياء ليست من المحسوسات حتى تدرك باحدى الحواس الخمسة قد تحكم بخطأ الحس في مدركاته متى قام لديها البرهان القطعي ألا ترى ان الشيء الذي في قاع الماء يرى كبير الحجم وان البعيد كالشمس يرى صغيراً وكذا في بقية المحسوسات وارك تعاضدني على ان هذا الحكم لا تأخذه النفس من الحس فان من المعلوم ان الشيء لا يضاد نفسه

اذالم تقنع بهذا فاليك بياناً آخر :

انت تعلم ان الجسم الحيواني لا يحصل له العلم الا بواسطة قواه

الجسمية التي هي مشاعره الخمسة السمع والبصر والذوق والشم واللمس ولا يميل إلا الى تلك المعارف التي تتوقف عليها بشرائطها الخاصة من المشابكة والملامسة والاضواء وتحديد الابعاد وارتفاع الحوائل مما هو من خواص الاجسام وان ذلك الجسم يشترك اليها ويزداد بها كماله لانها مادته واسباب وجوده وبقائه وذلك كالشهوات البدنية من الغذاء وغيره من المحسوسات وترى النفس اذا لم تنقطع لذلك واشتغلت بالعلوم العقلية والاخلاق الملكية الفاضلة طربت طرباً روحياً ووصفت صفاء خالصاً من الملاذ البدنية ونفذت الى ادراك الحقائق حيث زالت حجب الشهوات الجسمية الظلمية تعلم من هذا انها جوهر آخر خلاف الجوهر الجسمي الحيوي

لا اراك بعد هذا البيان إلا قائلاً بان النفس جوهر مبان للجسم ولأعراضه^(١)

اذا اطمانت نفسك لذلك فاعلم ان لكل موجود قوى وملكات وافعالاً بها يصير ذلك الموجود هو وبها ايضاً يتميز عما عداه وله قوى وملكات يشارك فيها غيره ومعلوم ان الانسان من حيث هو انسان من ميزه الخاصة به العلم ولذا كان مفطوراً على طلب معرفة حقائق الموجودات واحوالها وارجاعها الى اسبابها الحقّة ألت تعلم ان الطفل يسأل عن حقيقة ما ينظره وعما يعرض له وعن سبب طروء ذلك العارض وكذا الحال بالنسبة لجميع مدركاته وقد بان لك ان من الواضح ان كمال كل موجود انما هو كائن ببلوغه الدرجة المناسبة المخصص لها فلا يمدح السيف

(١) براهين تجرّد النفس ظنية تكلم فيها

إلا بمضائه وجوده نصه لا محليته وحسن قرابه ولا يكون الفرس كاملاً مرغوباً فيه إلا بسرعة عدوه لا بحسن سرجه وضخامة جسمه فالإنسان ذو النفس الناطقة لا يبلغ درجة كماله إلا إذا حصل على خصائص تلك النفس من علم حقائق الموجودات وما لها من الاحوال وتخلق بفضائل الاخلاق والا كان من افق الحيوان ليس له الا الغذاء والاحساس والنمو والحركة وحمل الاثقال الى غير ذلك من صفاته

قال تعالى أفمن يعلم لمن لا يعلم — هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وورد اذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الى الله عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم

قالت الحكماء ان النفوس الناطقة انما تنزلت الى هذه الاجسام الطبيعية الظاهمية وارتبطت بها ارتباط الامر بالمأمور لتستعين بما فيها من مشاعر إدراك المحسوسات الجزئية على ادراك الحقائق الكلية منتزعة من تلك الجزئيات

ومن ثم اقتضت الحكمة الالهية ان يكون البدن خادماً مسخراً لها وهي حافظة له ألا ترى انها اذا تصورت أمراً منفراً بدا ذلك على أعضائه فتشاهد تقطيب الوجه والدفع والانسك والابتعاد كما انها اذا تصورت أمراً ملائماً ظهرت آثاره عليها من البشر واللين والقرب فاذا تم لها ما تعلقت بالجسم لأجله من العلوم وفارقت البدن بقيت بمنعمة بحصولها على معشوقها ومطلوبها واذا ظامها الانهماك في الاحوال الجسمية ان تدرك شيئاً من تلك الحقائق التي هي من خصائصها بل حيل بينها وبين ذلك الادراك بالحجب البدنية والشهوات الجسمية التي أبعدها عن معرفة ذلك المحبوب

وعن مقدار ما يعرض لها من اللذة بالوصول اليه كانت بعد مفارقتها الجسم غير ملتذة ولا متألمة لأن ألم مرارة البعد والحجب لا يكون الا بعد ذوق حلاوة القرب والانكشاف قال الشاعر

غربت منكم شمس التلاقي فبدت بعدها نجوم المآقي
أخبرتنا حلاوة القرب منكم ان هذا البعاد مرُّ المذاق
وإذا حصل لها ادراك بعض الحقائق وعاقبها عائق الانكباب على
خصائص الحيوان عن الاستكمال من ذلك بقيت بعد مفارقة البدن في
ألم من عدم الوصول الى ذلك المحبوب الذي ذاق لذة قربه فتبقى في
غصة وعذاب أليم ولذا ورد اكثر أهل الجنة البله وعلى هذا فالبلاهة خير
من فطنة بترء

ذلك معنى الميعاد الروحي الذي قالته الفلاسفة من هنا بان لنا ان
بني الانسان انما يتفاضلون بالمعرفة لا بالثروة او الجاه ولا حاجة بنا الى
اطراء العلم وبيان انه اللذة الحقيقية للانسان وان ما عداه من اللذات
انما هو دفع ألم لا غير فذة الشرب دفع ألم العطش ولذة الأكل دفع ألم
الجوع الى غير ذلك

إذا تقرر هذا فاعلم ان الفلسفة علم بأعيان الموجودات وأحوالها على
ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية وتلك الاحوال اما ان تكون أعمالاً لنا
في إيجادها اختيار واردة والعلوم الباحثة عنها تسمى بالفلسفة العملية
(وتسمى في عبارات المتقدمين من الفلاسفة بالفلسفة الادبية) وأقسامها
ثلاثة لان تلك الاعمال اما ان تكون للانسان في نفسه والعلم الباحث
عنها يسمى بعلم تهذيب الاخلاق أو له ولمن انتظم معه في المنزل والعلم

الباحث عن ذلك يسمى فن تدير المنزل أو له ولمن معه في المدينة ومباحته تسمى بعلم السياسة المدنية وأما ان يكون غير ذلك وتسمى مباحته بالفلسفة النظرية لتعلقها بالنظر والفكر لا غير بحيث لا يقصد بها الا كمال النفس الانسانية بمعرفة حقائق أعيان الكائنات وأحوالها دون العمل بخلاف العملية فان الغرض منها تلك المعرفة والعمل على مقتضاها

وهذه الفلسفة تنقسم الى أقسام ثلاثة أيضاً لأن ما ليس عملاً باختيارنا أما ان يكون أعياناً او أحوالاً لها لا دخل لإختيارنا في إيجادها وهذه اما ان تفتقر الى المادة في التصور والوجود معاً بحيث لا تصوورها الا مقارنة للمادة ولا توجد خارجاً الا كذلك كتركيب الجسم من الهوى والصورة وتحيزه وبساطته او تركيبه من أجسام مختلفة الطبائع نحو كربونات الجير وكبريتات البوتاسيوم الى غير ذلك من خواص الأجسام الطَّبَّية ومباحث هذا تسمى بالعلم الطبيعي او بالعلم الأدنى لأن الحكماء كانت تبدأ به في تعليم النشء لأنه علم بالمحسوسات فيكون أسهل ادراكاً وأنسب بتربية عقولهم تدرجاً بهم من السهل الى الصعب النسبي وألحقوا بهذا القسم علم الطب الباحث عن الأجسام من حيث ما يعرض لها من الصحة والمرض وفن الأقر بازين وهو الباحث عن الاجسام مختاطبة ببعضها او منفصلة من حيث ما يترتب عليها من التأثير في الاجسام صحة او مرضاً وهو المعروف الآن بفن الصيدلة واما ان تفتقر اليها في الوجود دون التحقل كالخطوط والسطوح والاجسام التعليمية التي هي الابعاد الثلاثة الحاصلة من تقاطع الخطوط الطولية والعرضية والسهمية على زوايا قوائم وتسمى بمباحته بعلم الهندسة وكذلك الأعداد وتسمى بمباحته بعلم

الحساب وكذا الاعداد التي تتخلل الاصوات من حيث الطول والقصر وغيرها
المسمى بعلم الموسيقى ومثل ذلك حركات الكواكب سرعة وبطئاً وانتظاماً
وغيره والعلم الباحث عن ذلك يسمى بعلم الفلك فان جميع هذه الاشياء
لا توجد في الخارج الامقارنة للمادة وقد يتصورها العقل مجردة عنها
ويسمى الباحث عن كل هذه الاشياء المتقدمة بالعلم الاوسط او الرياضي
لتوسطه بين الادنى والاعلى الآتي ولأن الحكماء كانوا يعامونه بعد العلم
الادنى الذي هو الطبيعي ليروضوا به الازهان لمافيه من تعويد المتعلمين
تصور الاشياء مجردة عن المادة والبحث عن أحواله استعداداً لتعقل ما
لا يفتقر اليها مطلقاً والبحث عن أحكامه (وها هو) وأما ما لا يحتاج اليها
في الوجودين الذهني والخارجي كالصانع جل وعلا والوحدة والكثرة والوجود
والعلة والمعلول وتسمى مباحث ذلك بالعلم الإلهي أو الأعلى وألحقوا به
السمعيات كارسال الرسل وأحكامهم وما يتعلق بالبعث والحشر والحساب
والجنة والنار وبعض الناظرين في هذا المقام جعل هذا القسم الاخير قسمين
فقال ان ما لا يحتاج في وجوديه الى المادة أما ان لا يقارنها بحال من
الاحوال ويسمى بالعلم الإلهي وأما ان يقارنها في بعض الاشياء دون
بعض كما في الوحدة والكثرة والوجود والعلة فانها كما تكون للجسميات
تكون للمجردات وسماه بالامور العامة لعمومها وشمولها الامرين ومما
تقدم تعلم انه لا يمد من الفلسفة العلم المتعلق بقوانين وقواعد النظر المؤدي
الى التصور والتصديق (وهو علم المنطق) بل هو من مقدماتها ووسائلها
ومن عرف الفلسفة بغير ما قلناه وقال انها خروج النفس الى كمالها الممكن
في جانبي العلم والعمل جعله وغيره منها ومن هنا تفهم سبب ما درج عليه

متقدمو الحكماء من بدئهم بالكلام على علم المنطق في تأليفهم الحكيمية
قبل التكلم على بعض فلاسفة اليونان نذكر جملة مختصرة عن تلك
الامة حتى يكون القارئ على جانب من البصر بحالها

اليونان

اليونانيون قوم من الآريين وفد عليهم أقوام من جنسهم كالهنود
والفرس وجاءهم قوم من مصر وبذلك دخل شيء من الحضارة في بلادهم
وقد اتسعت مستعمراتهم شيئاً فشيئاً حتى عمت جزر الأرخيل وجزيرة
اقریطش (كريت) وشواطئ آسيا الى بلاد القوقاس شرقاً وجنوباً والى
جنوب ايطاليا وفرنسا واسبانيا غرباً وشواطئ أفريقيا جنوباً وكانوا شعوباً
يمتاز كل شعب باسم خاص كالأثينيين والاسبرطيين والشيبين الخ ما هو
معلوم وكان بعض رؤساء القبائل يذهب بقبيلته الى قطعة أرض ويملكها
ويقوم وقتئذ ببناء مدينة لسكنى جميع القبيلة فتبني كل أسرة بيتاً لسكنائها
ويقام سور المدينة باشتراك الكل فيتم بناء بيوت جميع البلد في زمن يسير
وعند اتمام السور يحتفل به احتفالاً دينياً وبنى هيكل لرئيسهم يقربون فيه
القرابين ويؤدون له أنواع الاحترام والعبادة ويلقبونه بحامي المدينة في
حياته وبعد مماته فقامت حكوماتهم القومية كثيرة العدد قليلة المساحة
وكان بعض الحكومات يشاهد على مقربة منه بناء حكومة اخرى وقد
كثرت بينهم الحروب ولذا كانوا عاكفين على المصارعات بانواعها واحتمال
المشاق واحكام الضرب والطمع كي يعتادوا خوض المعامع ولا تكمل
سواعدهم من كثرة العراك والطعان معودين عزف الموسيقى وتوقيع الأناشيد

الحماسية المشتعلة على بالغ المدح في أبطالهم ومعبوداتهم وكثرة التخييلات
معضمت لديهم ملكة الشجاعة وقوة التمثيل ومع ما هم فيه من الخصام
والضراب كانوا يداً واحدة على من يناوئهم من الأمم الأخرى يرشدك الى
ذلك اتحادهم في محاربة الفرس ومقاومة فيليب المقدوني حين أراد
الاستيلاء على بلادهم ولم تكن يونان حكومة واحدة الا بعد تغلب فيليب
وكذلك ابنه الاسكندر وعقيب موت الاسكندر المذكور خلفه في الحكم
قواده ثم لم يلبثوا ان ملكهم الرومان وانقسمت تلك الدولة الى شرقية مقررهما
(بيزانتيوم) الاستانة وغربية مقررهما رومة ثم تغلبت على الرومانية الشرقية
الدولة العثمانية وانقادت يونان لحكمها وبقيت كذلك نحواً من ٤٠٠ سنة
وفي سنة ١٨٢٧ استقلت تحت حكومة أحد امراء بافاريا

الديانة اليونانية

أخذ اليونان شيئاً من ديانة الصابئة وخلطوا فيها خلطاً كثيراً فلم
يقتصروا على تمجيد الكواكب بل تخيلوا لكل نوع من فوائد الكائنات
العامه الهماً فكانوا وثنيين بهذا الاعتبار ولشدة تخيلهم مثلوا هذه الأرباب
باشكال البشر وجعلوا لها فضائل ورتائل كما للانسان وانه يرضيها ويحملها
على اعانة من يطلب منها الاعانة زيادة القرابين وكثرة الهدايا والتحف
والثناء كما يحملها على الانتقام أصداد ذلك ومن معتقداتهم ان تلك الآلهة
تجتمع فوق جبل الاولب (وهو جبل عال في شمال يونان ذو قمم مكسوة
بالثلج) ويلتئم منها مجلس يرأسه المعبود زيوس (المشتري) وتتفق على
اجراء الشؤون الكونية ويزعمون ان كبار الآلهة هم الذين يجتمعون فوق

هذا الجبل دون سوانج وعدد اولئك الآلهة كثير نذكر ما اشتهر منهم
جوييتير وهو ملك السماء ونبتون إله البحر وأبلون إله الشعر والموسيقى
والفنون الجميلة ورئيس الوحي في دلفيس وهو ابن جوييتير وسائق مركبة
أبيه التي هي الشمس تجرها أربعة من الخيل المسرجة تسير بها حول العالم
كل يوم ومركور إله التجارة والفصاحة وذيوس (الريخ) إله الحرب وعطارد
إله اللصوص والزهرة إلهة الجمال وهي على صورة امرأة حسناء وديانة إلهة
القمص الى غير ذلك وكانت الآلهة عندهم ثلاثة أقسام آلهة السماء وتسكن
فيها ومنهم جوييتير وهو رئيسهم وأبلون والريخ وعطارد والزهرة وغيرها
وآلهة البحار وهي ساكنة فيها ورئيسهم نبتون وله مركبة في شكل صدفة
بحرية عظيمة تجرها خيل أذنانها كأذنان الأسماك وآلهة الأماكن السفلى
تحت الأرض وتسكن الأحرش والينابيع ومجاري المياه واسم رئيسها
بلوتر ولهم أيضاً انصاف آلهة وهم قوادم الذين اشتهروا لديهم بحسن القيادة
وحماة مداتهم وغيرهم ممن برعوا في الأشياء الممدوحة لديهم حتى عدوا
من ذلك البارعين في الشرور والذائل وزعموا ان للآلهة أقارب وأبناء كما
للانصاف كذلك وانهم يغضبون من بعضهم وينتقم أحدهم من الآخر
كما هي حالة البشر وان أرواح الآلهة الكبيرة والصغيرة تغيث من
استغاث بها من أقاربها وعبادها وتحمي مداتهم وذمارهم وقد شاهدوا
على زعمهم بعض القوادم وحماة المدائن في الحروب بعد موتهم على حالة
غريبة في تلك المواقع ونسبوا اندحار الأعداء المحاربين اليهم كما هو مسطور
في أشعارهم وقد أسس للآلهة المشتركة بين عموم اليونان دون الخاصة
بابطال كل قوم وحماة كل مدينة معابد وهياكل يتقرب اليها كل فرد من

افراد اليونانيين كهعبد أبولون في دلفيس شمال أثينه فإنه كان كعبة لكل قاصد وعرفته التي تأتي بالغيب من يطلبه منها تسمى (بيسيا) كانت عند ما يطلب منها ذلك تستحم في حمام مقدس وتجلس على شق من الأرض يخرج منه نسيم آت من مغارة في ذلك المعبد فعند ما تجلس فوق ذلك الشق وحولها الكهنة ويخرج عليها النسيم يعثرها بحران وتتلفظ بكلمات مقطعة فينظمها اولئك الكهنة أشعاراً جواباً لطاب الوحي وكان معبد الرب ذيوس يجيب دعاء المطرين بدوي أشجار البلوط المقدسة التي بجوار معبده وبالجملة فكانت خرافاتهم في ذلك كثيرة سهل اعتقادها ما نما لديهم من قوة التخيل بواسطة عنايتهم بأشعارهم الخيالية وكانوا كل أربع سنوات يذهبون الى جبال الاولم ويلعبون الألعاب الرياضية ويقربون القرابين لمعبوداتهم مدة ٥ او ٦ ايام وقد أرخوا بتلك الألعاب وأولها كان في سنة ٧٧٦ ق م تقريباً ولم يتعموا الكتابة والقراءة الا في القرن الثامن ق م

o- الكلام على بعض مشهوري فلاسفة اليونان -o

سقراط

ولد هذا الفيلسوف بجوار اثينة في قرية صغيرة تسمى (أولويدس) سنة ٤٦٩ ق م وعاش نحو ٧٠ سنة وهو من أهالي اثينة ونشأ من أب نقاش وام قابلة فتعلم صناعة النقش من أبيه ثم تافت نفسه الى التحلي بالعلوم الفلسفية فاخذ عن فيثاغورس وغيره من فلاسفة ذلك الوقت وقد أوزن منه ميلاً واقبالاً على التعليم وذلك نادراً ثم غنى بالفلسفة الادبية حتى بلغ

فيها مبلغاً لم يصل اليه من سبقه من حكماء اليونان فاجاد القول فيها شرحاً
وتهدياً وترتيباً لما رآه من أن رقي المجتمع انما هو بالعلم بها والعمل على
مقتضاه لا بعرفة الفلسفة النظرية ولما عظم فضله وعرف بين قومه اختاروه
عضواً في مجلس شورايم فكان رائده في أقواله واحكامه العدل وفوائده شعبه
وقد نشبت الحرب بين قومه الآثينيين والاسبرطيين وكان قائد المراكب
الحربية البحرية من قبل اسبرطاً ليساندر فغلب القواد البحريين الآثينيين
وانتصر عليهم فعدّ اليونانيون ذلك خيانة منهم فحوكوا أمام ذلك المجلس
الشورى حكم عليهم بالاعدام ولم ير سقراط ان من العدل عدم الحكم
عليهم وباعدامهم فقد الآثينيون مهرة قواديم ولذا أسخط هذا الحكم كثيراً
من الشعب اليوناني واستعقب موت اولئك القواد استيلاء ليساندر على
أثينة وترك سقراط مجلس الشورى لما رأى من تقلب حال أمته وانتقاض
أمرها وقد حملت شهرته وعلوّ صيته قومه على ان يلحوا عليه في أمر
الزواج لأنه كان من عاداتهم ان يكون للرجل العظيم منهم نسل حتى
يأملوه ان يقوم بمنافع الشعب كما قام أصله فأجابهم الى ذلك وتزوج بامرأة
سيئة الخلق اسمها (زتيثة) وعانى من أخلاقها ما لا يطيقه غيره ولما سئل
عن سبب تزوجها دون غيرها من فضليات النساء قال آثرت الزواج بهذه
على غيرها لأعتاد تحمل أخلاق الناس متى تحملت أخلاقها وكان يقابل
سوء خلقها بالصبر والاعضاء وأعقب منها ولده (طنبورقليس) وولدين آخرين
لما اعتزل سقراط مجلس الشورى وتبدلت الأحوال في أثينة وفسدت
الطباع اشتغل بتقويم أخلاق شعبه وأقبل على التعليم إقبالاً كلياً ولم
يكن ذلك في محل خاص بل كان يخرج الى الأزقة والشوارع ويتدىء

بالتعليم على طريق المحاوراة والأسئلة والأجوبة كما هو شأنه فيه فيلتف حوله الشبان ويحيد القول ويحكمه شرحاً وايضاحاً بهذه الطريقة وكان من عادته ألا يأخذ جعلاً على ذلك مع ما كانت عليه زوجته من مشاجرته من جراء عدم أخذ الأجر وقبول الهدايا من تلاميذه وكثيراً ما كان يقول عجباً لمن صناعته تعليم الأخلاق كيف يخطر له ان يتخذ ذلك مغنماً أفلا يكفيه على اعتنائه ان يتيب إليه أنه أصاح حال انسان وأنه اغتم من تلاميذه محباً له أفلا يكون هذا من أعظم المنافع وأدوم الفوائد

كثير في ذلك الزمن قوم من السوفسطائيين الذين يدعون الحكمة وينكرون الحقائق وأصبحت لهم المكانة العليا من نفوس القوم وأكثروا من تعليم مبادئهم مقابلة ما يأخذونه من الأجر فقام في وجوههم ودحض آراءهم بطريقة السؤال والجواب خدمة لقومه ولإحقاق الحق فأنزلهم من مكان العظمة بعامة الباهر وطريقته المثل في الجدل

حالته في معيشته التقشف والرفاهية يلبس القميص الواحد في الصيف والشتاء لا نعل له ومع هذا فكان نظيف الملبس ولو شاء ان يكون ذا ثروة واسعة لكان ولكنه أثر القناعة على ذلك ولم يكن حسن الخلقه ولا طلق اللسان بل ألكنه قبيح الوجه ضيق ما بين المنكبين قصير القامة بطيء الحركة شعث الاحية لم يرض لنفسه ان يدعى عالماً بل كان يقول انه ساع وراء الحقيقة باحث عنها عني بذلك لما شاهده مسطوراً على هيكل دلفيس (أعرف نفسك بنفسك) طبقاً لقوله تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون واذا سئل أطرق ثم أجاب اجابة باهرة وكان لين العريكة سمح الأخلاق لم يحضر الوقائع الحربية سوى مرتين أثر البقاء في وطنه

على الاغتراب والسياسة ومعاشرة الأجانب ومعرفة آرائهم لأنه رأى ان ذلك لا يفيد كثيراً في تقويم اعوجاج بني شعبه وان الأئمة في ان يكون بين ظهرانيهم مقبلاً على تعليمهم وانه لا يعوزة شئ في الوصول الى ذلك المقصد الأسمى

لما استولى ليساندر على أثينة وهم أهلها الذين اعتادوا حكومة شعبهم انه لا يخرج بهم في الحكم عما ألفوه فجمع لذلك ثلاثين رجلاً من الاسبرطيين ووكل اليهم أمر الحكومة ورأس عليهم رجلين أحدهما (اكرنياس) او (اقرسياس) وثانيهما (خارقليس) ليحرضاهم على قضاء لبانات ليساندر فيما يرمونه من الآراء والأحكام وكانا ميالين للظلم فكثرت في أيامهم المظالم ولذلك سماوا بالثلاثين طاغية ومعنى هذا اللفظ في عرف اليونانيين مرادف لمعنى الظالم فساءهما ما قام به سقراط من التعاليم والارشاد والتشهير باحكامهما وآرائهما حتى قال مرة معرضاً بهما اذا كان راعي البقر ينقص عدد بقرة كل يوم ويتركه عجافاً هزلاً فن العجب عدم اعترافه انه لا يصلح لرعيه ففهما ان سقراط يعينهما فساءهما ذلك وسن المجلس قانوناً يحظر فيه التعليم التحاوري بأثينة ففهم سقراط ان هذا القانون عمل من أجله وان لم يتخذ التعليم حرفة فقاده حرصه على منفعة قومه واصلاح شأنهم الى هذين الرئيسين ليستفسر عن ذلك خيرهما بتوجيه الأسئلة اليهما الى ان صرحا له بانه منهي بتمتضي هذا القانون عن مخاطبة الشبان فقال لهما الى أي زمن تمتد الشبوية فقالا له الى ٣٠ سنة فقال لهما ان سألني سائل عن مكانكما أجبه أم لا فقال خارقليس نعم أجبه وقال اقرسياس انما أنت منهي عن ان يلتفت حولك الناس الذين كات مسامعهم من كلامك

فقال لهما ان سألني من اتبعني ما هي الشفقة والانصاف فهل أجيبه
فاجابه خارقليس نعم ورعى البقر ايضاً معرضاً له بما قاله في شأنهما وقال له
احذر ان تكون سبباً في نقص البقر ففهم سقراط زائد استيائهما مما قال
وانه لا يحسن الاتساع معهما في القول بعد ذلك أوغر قلبهما حنقاً من
هذا الفيلسوف ذي المكانة العظمى في نفوس الشعب الاثيني وعلما ان
الاعتداء عليه من غير جريرة يعد في نظر عامة الأمة من اكبر الجرائم
قد يستعقب هياج القوم والانتفاض على الحكومة ففرعا الى الإيعاز لمن
لا خلاق لهم بازاعة قدح سقراط في الآلهة والخط من كرامتهم والذهاب
بالشبان الى التنفير من عبادتهم وتقديم القرابين اليهم حتى أفسد عقولهم
ولما تم لهما ذلك حوكم امام مجلس اولئك الطغاة فقام بالمدافعة عن
نفسه احسن قيام واستشهد على بطلان الفرية عليه بآباء اولئك الشبان
فقالوا خيراً ووصفوا جميلاً واستدل ايضاً بقول عرافة هيكل دلفيس
(مهبط الوحي والانباء الصادقة في معتقدهم) : ان سقراط أعدل وأعدل
رجل : ولو كان طعناً على المعبودات لما قالت ذلك وبتقديمه القرابين
للآلهة كغيره وبكثير من اقواله الدالة على احترامهم وتمجيدهم
فلم يسعهم امام تلك الحجج الدامغة الا ان يحكموا عليه بدفع المال
عوضاً عن ان يحكم عليه بالقتل فرفض ذلك قائلاً ان قبولي هذا اعتراف
مني بالجريمة فشرطوا عليه القعود عما كان عليه من التعليم التحاوري في
الازقة والطرقات فاجاب بانه لا يستطيع مخالفة ذلك الصوت الداخلي
والاحساس الوجداني (وكانوا يسمون ذلك بشيطان سقراط) فتمهد لهم
بكل هذا الحكم عليه بالموت بزيادة رأيين وأودع السجن وكثر تردد

تلاميذه عليه فيه وعاق احدكم افلاطون عن الذهاب اليه مع اخوانه عائق المرض وقد زارته زوجته وأولاده فبكت لديه بكاء شديداً وقالت أقتلونك ضاماً فقال لها أو يرضيك ان اقتل بحق ولما اقترب اليوم الذي عين لتناوله السم كما كانت عادتهم فيمن يحكمون عليه بالموت بكر لزيارته التلاميذ ومن بينهم أقريطون وسيمياس فقال له أقريطون قد اجتهدنا ان ندفع عنك مالا الى هؤلاء القوم وتخرج سراً فتصير الى رومة وتقيم بها حيث لا سبيل لهم عليك فقال له قد تعلم انه لا يبلغ ملكي ٤٠٠ درهم فقال له لم أقل لك ذلك على ان تعطي شيئاً لأننا نعلم ان ليس في وسعك ما طلب القوم ولكن في أموالنا سعة له ولأضعافه وأنفسنا سمحة بأدائه لنجاتك وعدم الفجيرة بك فقال سقراط يا أقريطون هذا البلد الذي فعل بي فيه ما فعل هو بلدي وبلد جنسي وقد نالني فيه من جنسي ما رأيت وأوجب عليّ فيه القتل ولم يكن ذلك جريمة ارتكبتها بل لبغضي الجور وطعني على الافعال الجائرة وأهلها والحال التي أوجبت الحكم عليّ بالقتل هي معي حيث توجهت واني لا أدع نصرة الحق حيث كنت والطعن على الباطل حيث وجدت

فاذا كان هذا هو الباعث على ما أنا فيه بين شعبي وأقاربي وهو معي حيث كنت فكيف الحال بين أهل رومة الذين هم أبعد مني رحماً فقال له أقريطون فتذكر ولدك وعيالك وما تخاف عليهم من الضيعة فقال له الذي أخافه عليهم من الضيعة في رومة اكثر منه هنا لأنهم بينكم ومعكم فأولى بهم ألا يضيعوا ثم دخل عليه القضاة وأزالوا القيد من رجله كما هي عادتهم عند اقتراب إعدام السجين فكشف عن ساقيه ومسحهما

وحكمها وقال ما أعجب فعل السياسة الإلهية فقد قرنت الأضداد بعضها فانه لا يكاد تكون لذة الا يتبعها ألم ولا ألم الا يتبعه لذة فكان ذلك سبباً لدوران الكلام فسأله سيمياس عن الأفعال النفسية وكثرت المذاكرة بينهم حتى أتى على الكلام في النفس وهو في حال سروره وبهجته ومزحه في بعض المواضع كما هي عادته وكلهم متعجب من شجاعته واستهانته بالموت ولم ينكل عن تقصي الحق في موضعه ولم يترك شيئاً من أخلاقه واحوال نفسه التي كان عليها زمان أمنه من الموت وهم على حال عظيمة من الكمد والحزن لفراقه فقال له سيمياس ان في كثرة الاستفسار منك لثقلنا علينا شديداً وقبحاً في العشرة وان في الامساك عن ذلك حسرة عظيمة بعدك لاننا نعدم الفاتح لما نريد

فقال له يا سيمياس لا تدعن تقصي شيئاً أردته فان تقصيك ذلك هو الذي أسر به وليس لدي فرق بين هذه الحال والأخرى في التقصي عن الحق فإننا اذا عدمننا اصحاباً وخلصنا أفضل اشرفاً محمودين سنلقى اخواناً اشرفاً محمودين كأسلاوس وأيارس وأرقليس وجميع من سلف من ذوي الفضائل النفسية ما دمنا متيقنين لما نسمع منا ولما أشبعهم قولاً في احوال النفس سألوه عن هيئة العالم وحركات الأفلاك وتركيب الاستقصات فاجابهم عن ذلك ثم قص عليهم كثيراً من العلوم الالهية والاسرار الربانية ولما فرغ من ذلك قال أظن ان قد حضر الوقت الذي ينبغي لنا ان نستحم فيه ونصلي ما امكننا ولا نكلف احداً إحمام الموتى ثم قال لهم انصرفوا الى اهليكم ثم نهض ودخل بيتاً واستحم فيه وصلى واطال اللبث والقوم يتذاكرون في عظم المصيبة بما نزل به وبهم من موته

وانهم يفقدون بفقده أبا شفيقا وحكيما عليما ثم خرج ودعا بولده الكبير والصغيرين وزوجته فوصاهم وودعهم وصرّهم فقال له اقريطون فما الذي تأمرنا ان نفعله في اهلك وولدك وغير ذلك من امرك قال لست آمركم بشيء جديد بل هو الذي لم ازل آمركم به قديما من الاجتهاد في اصلاح انفسكم فانكم اذا فعلتم ذلك فقد سررتوني وسررتم من كان على سنتي ثم سكت مليا واقبل عليه خادم القضاة ومنفذ احكامهم فقال له يا سقراط اني ارى منك الصبر والشجاعة وانك لتعلم اني لست علة موتك وان علة ذلك القضاة وأنا مأمور به مضطرا اليه وانك افضل من صار الى هذا الموضوع فاشرب ما اعطيكه بطيب نفس واصبر على ما ستصير اليه ثم ذرفت عيناه وانصرف ثم اقبل مستصجبا الشراب السام (وهو من فصيلة الشوكران (الذكران) اعتادوا اعطائه لمن يحكم عليه بالاعدام) فلما راوه قد شربه غلبهم من الحزن والأسف ما لم يملكوا معه انفسهم فقلت اصواتهم بالبكاء والنحيب فاخذ يلومهم ويعظمهم وقال انما صرفنا النساء لئلا يكون منهن مثل هذا فأمسكوا استحياء منه وقصد إطاعته وأخذ سقراط في المشي حتى ثقلت رجلاه فقال للخادم لقد ثقلت رجلاي فقال له استلق فاستلقى وجعل يغمز قدميه ويقول له هل تحس شيئا فيقول لا وشرع يعلو شيئا فشيئا ويسأله فيقول لا أحس وأخذ يجمد ويبرد تدريجا فقال له له اقريطون يا امام الحكمة ما ارى عقولنا لا تبعد عن عقلك فاعهد لنا فقال عليكم بما امرتكم به اولاً ثم مديده الى يد اقريطون فوضعها على خده فقال انه مرني بما تحب فلم يجر جوابا ثم شخص بصره وقال أسلمت نفسي الى قابض انفس الحكماء وفاضت نفسه فاطبق اقريطون عينيه

و شد لحية مات ذاكم الفيلسوف العظيم عن ١٢٠٠٠ تلميذاً وتلميذة تلميذة
قضى وقومه في أشد ما كانوا من الاحتياج اليه في تقويم الاخلاق
واثلاف القلوب حتى يستخلصوا اوطانهم من يد اعدائهم فكانت نازلة
موته فادحة ومصيبة الشعب به عظيمة فعم الملح عقلاء قومه واجزع من
عرف فضله وشدة الحاجة اليه ففقده فمدان الساري الضال ضوء البدر
لم يجمع شيئاً من أقواله وآرائه لأنه كان يقول في شأن العلم دعوه
في النفوس الناطقة الطاهرة لا في جلود الحيوان القذرة بل جمعة افلاطون
وذنفون في كتبهما التي نقلها فيها عنه الآداب والمعارف وتوافقت فيهما
نقولهما بالمعنى لأن الاول كان يتحرى المعاني التي قصدتها سقراط دون
الألفاظ بخلاف الثاني فإنه كان يتجراها معاً يشهد لذلك ما كان من سقراط
حين قرئت عليه مخاطباته التي جمعها افلاطون المسماة (لوسيس المحبة)

حِكْمَةٌ

حكيم سقراط ونصائحه كثيرة مشهورة في الكتب منها كثير في
كتاب طبقات الاطباء نذكر منها هنا شيئاً قليلاً محيلين مطالعة الكثير
على ما في ذلك الكتاب وغيره قال :

النفوس أشكال فما تشاكل منها اتفق وما تضاد منها اختلف

اتفاق النفوس باتفاق همها واختلافها باختلاف مرادها

من بخل على نفسه فهو على غيره أبخل ومن جاد على نفسه فذلك

المرجوّ جوده

النفوس الخيرة مجتزئة بالقليل من الأدب والنفوس الشريرة لا ينجع

فيها كثير من الأدب لسوء مغرسها
لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف
لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك فكيف بك إذا كنت لا يأمنك
صديقك

لا تردنَّ على ذي الخطأ خطأه فإنه يستفيد منك عاماً ويتخذك عدواً
حسن الخلق يعطي غيره من القبايح وسوء الخلق يقبح غيره من
المحاسن

داووا الغضب بالصمت
الى هنا أمسكنا القلم عن الاطالة في ترجمة ذلك الفيلسوف الذي
كثر قول المترجمين في فضائله ومناقبه

أفلاطون بن أرسطون

ولد هذا الفيلسوف سنة ٤٢٩ ق م وتوفي سنة ٣٤٧ ق م فعمره ٨١
سنة تقريباً وهو من البيوتات العظيمة في اليونان وكان مسمى باسم أبيه
فسماه معلمه الألعاب الرياضية بأفلاطون لطول قامته وضخامة جسمه
وعرض اكتافه وجبهته وقد اشتغل بالشعر في بدء أمره ولما سمع سقراط
يذمه ويرغب في العلوم الحقيقية أعرض عنه وأحرق كتبه الشعرية اقدمه
والده الى سقراط وسنة ٢٠ سنة ليتلقى عنه العلوم فلازم دروسه ٥ او ٨
سنوات على روايتي المؤرخين ولم يتول الخطط السياسية لان روابطه
الأسرية تربطه بالحزب المضاد للحكومة الجمهورية ولكن حبس أستاذه
ظالماً وموته مسموماً بغض إليه رجال السياسة وزاد في نفوره منهم فترك

أثينة بعد موت استاذه الى مقام أفليدس اليوناني ببلدة صور كما نص عليه القفطي في كتابه اخبار الحكماء وكان هذا معنياً بالفلسفة الايطالية فأثرت صحبته له في آرائه وقد سافر لاكتساب العلوم فجاء مصر واخذ العلم عن كهنتها والى صقلية ٣ مرات الاولى ليرى النار التي تقبل هناك في الصيف وتكثر في الشتاء والمتغلب عليها يومئذ رجل يوناني اسمه ديونوسيوس أودينيس وكان شاعراً له اطلاع على الفلسفة فطلب من أفلاطون ان يتكلم بشيء من خطبه وشعره فاجابه الى ذلك وأظهر براعته وعدوبة ألفاظه واحكامه لما يورده كعادته وقال في ضمن خطبته ان اجود السير وأفضلها التي تكون على الناموس والسنن فظن دينيس انه قصده بذلك لتغلبه على من ملكهم بدون استحقاق وقال لأفلاطون هل ترى في أصحابي سعيداً وظان انه سيقول له امام الجميع انك سعيد فقال له غير محاش ليس في أصحابك سعيد ثم ساله عن أرفليس وكان من شعراء اليونان مدح في شعره هذا الملك فلحنه وتغنى به في الهيكل فقبح افلاطون سيرته فغضب الملك ودفعه الى بوليدس (الذي وفد عليه من قبل ملك لقدمونيا بجهات بلاد اسبرطة ليهادنه عن مملكته) ليقتله فذهب به ولم يقتله بل باعه من رجل اسمه انقريس القيرواني وكان هذا الرجل محباً لأفلاطون متشبهاً به في أخلاقه وان لم يره قبل فاما بلغ ذلك ذيون نسيب الملك أرسل له الثمن ^(١) وذلك لفرط محبته لأفلاطون وإعجابه بعلمه وخطاباته

(١) مقدار الثمن كان ٣٠ مناً من الفضة والمن رطلان والرطل ٢ اوقية والاقية ٤٠ درهماً فالمن ٩٦٠ درهماً أي ٦ ارطال و $\frac{2}{3}$ بالنسبة للرطل المصري الذي هو ١٤٤ درهماً

ولما لم يتمكن من اطلاق سراحه لدى الملك لم ير بداً من مجاملته بدفع ثمنه فلم يرض المشتري عن ذلك وقال هذا حكيم مطلق لنفسه وانما بذلت المال لأنقذه من أسرهِ وسيسير الى بلاده في سلامة وخير فابى ذيون ارجاع ذلك المال الى ملكه بل اشترى به لافلاطون بساتين ينفق على نفسه من غلاتها . وكان يلقي الدروس على تلاميذه بمدرسته المسماة (أقاذيميا^(١)) بتلك البساتين وهم مشاة بين تلك الاشجار ولذلك سمي بعضهم بالمسائين واخذت عنه في التعليم طريقة اخرى وهي ان الوصول الى العلوم لا يكون بالنظر والاستنباط بل بالرياضة والفكر اللطيفة فتشرق المطالب العرفانية على النفوس وقد تبعه في ذلك بعض تلاميذه وهم المسمون بالاشراقين

والثانية ليأخذ كتاباً في النواميس من ذلك المتغلب كان وعده به والثالثة ليصاح بينه وبين نسيبه ذيون وكان قد غلبه على امره واخذ منه بعض بلاده لولا انه تغلب عليه بعد ذلك ونفاه وقد بنى مذهبه على اراء ثلاثة من الفلاسفة فاخذ الطبيعيات عن اراء هرقليطس لاختصاصه باحكامها وعلوم ما وراء الطبيعة عن فيثاغورس لعلومه فيها والقوانين والآداب عن آراء سقراط لانه أول من عنى بها تهديباً وترتيباً وفضله عليهما وقال بثلاثة أصول الآله والمادة والادراك فالاله عقل العقول والمادة السبب الأول للتولد والفساد والادراك جوهر روحي فأتم بذات الإله تعالى وان الإله نظم من تلك المادة القديمة العالم ومن مذهبه قدم الروح والتناسخ وان المعارف ليست مكتسبة كسباً جديداً بل هي ثابتة في

النفس بواسطة الأبدان الأولية التي ارتبطت بها وقال بالمثل النوعية المجردة عن المادة المدبرة للانواع بمعنى ان لكل نوع مثلاً مجرداً عن المادة يدبر شأنه ولم يقل بالهيمولي وخالفه في ذلك تلميذه ارسطو ووفق بينهما فيما وقع فيه اختلافهما الفيلسوف الاسلامي ابو نصر الفارابي في رسالة له خاصة بذلك كان يأذن لبعض تلاميذه الذين تصعب عليهم العزوبة بمشاركته المتزوج منهم

وعاش أعزب لم يتزوج وانفق أغلب ماله في زواج بنات اخيه وكتب على باب مدرسته لا يدخلها من لم يعرف علم الهندسة دفن ببساتينه ولم يترك مالا سواها وسوى مملوكين وجام وقدح وقرط ذهب كان يلبسه وهو يافع كما هو شعار ابناء الاشراف اليونانيين وكتب على احد جانبي قبره (هنا وضع رجل الهي فاق الناس كلهم في العلم والعفة والنباهة والاخلاق العادلة فكل من مدح الحكمة فقد مدحه اذ فيه اكثرها) وكتب على الجانب الآخر (يا أيتها الارض ان كنت مخفية جسد افلاطون لا يمكنكِ الدنو من نفسه التي لا تموت) وقد تولى بعده التدريس في مدرسته احد أقاربه المسمى سوفسيوفوس وحكمه كثيرة مشهورة

أرسطوطاليس ويلقب بالمعلم الاول

ولد هذا الحكيم الشهير بقرية (طاجيرا) من بلاد مقدونيا قبل الميلاد بنحو ٣٨٤ سنة واسم ابيه نيقوماقوس وكان طبيباً مصاحباً لملك مقدونيا المسمى أمنتس جد الاسكندر بن فيلب المقدوني توفى أبواه وهو

صغير فكفله برقانس وكيل ابيه ودرس من مبادئ علم الطب ما أهّاه
لأن يخلف أباه في صناعته فشرح الحيوان وعلم ما كان معلوماً عند الأطباء
في ذلك الوقت ثم أمهل تلك الصناعة وأقبل على تعلم العلوم الفلسفية ولما
بلغ الثامنة عشرة من عمره ذهب بأمر عرافة هيكل دلفيس الى اثينة
للتلقي عن افلاطون فالفاه غائباً في سراقوسه احدى مدن جزيرة صقلية^(١)

فكف على المطالعة والاشتراك مع تلاميذه ثلاث سنوات حضر عقبها
افلاطون فاشتغل بالتلقي عنه نحواً من ٢٠ سنة وقد رأى فيه استاذه
مخايل النجابة ووثق انه سيصل في العلم الى درجة سامية فكان اذا طلب
منه الكلام يقول حتى يحضر العقل فاذا جاء ارسطو يقول سلوا وتكلموا
وقد اعتمد عليه الطلبة فكانوا يرجعون اليه عند اختلافهم وفي كل ما

أشكل عليهم فهمه مع ما كان عليه من مخالفته استاذه في بعض آرائه
وقد أنابه عنه في التعليم بالمدرسة لما توجه الى صقلية المرة الثانية وبعد
هذه المدة تصدر لتعليم شبان اثينة البلاغة واصالة الرأي كي يبرزوا في
خطاباتهم الاجتماعية وينالوا الشهرة وحسن السمعة وتعظم افادتهم وأوطانهم
وقد رحل بعد ذلك من اثينة لأن افلاطون استخلف بعده على مدرسته
ابن أخته اسيوسيدس (وقد خلفه بعد ذلك اكسينوقراط) لأنه كان
يرى نفسه أحق بذلك من غيره أو لفساد ذات الين بين الملك فيليب
وأهل اثينة وتنقل في رحلته هذه من مدينة الى أخرى ملاقياً عظيم
الترحاب وزائد الإقبال في كل مكان حل به ثم دعاه الملك المذكور لتعليم

(١) وهذه المدينة مقر الملك دينيس الظالم الذي مر الكلام عليه في ترجمة

وتهذيب ولده الاسكندر وكان عمره وقتئذ ٤٢ سنة وعمر الاسكندر ١٥ سنة فاشتغل بذلك وعلم معه أحد أقاربه المسمى كلتوس رجاء ان يجيئه الى الاسكندر فيستصحبه وقد حصل ذلك فانه بعد اتمام التعليم أخذه معه في غزواته فلم يعامله معاملة التابع المتبوع لما كان بينهما زمان التعلم من اطراح هذا الأمر فاغضب ذلك الاسكندر وعلم ارسطو نخشي عليه وخاطب الاسكندر في الصفح عنه فلم يفعل وأمر بقتله فاغضب هذا ارسطو مع ما انضم اليه من غضب الاسكندر عليه لانه أجرى راتباً لمساعديه على الفحص والتنقيح في أجسام أنواع الحيوان واستخراج خصائصها رجاء ان تنسب اليه علومه فلما ألف كتبه وبلغ أمرها الاسكندر وهو في غزوه كتب اليه مامضونه : من الاسكندر الى ارسطو ليس من الصواب ما صنعتُهُ من اشهار كتب العلوم ليتداولها عامة الناس لانه اذا فشا بين عمومهم على اختلاف أنواعهم ما تعرفه فبأي شيء تفضلهم ومما لا يخفك اني أوثر أن أكون فوق غيري في المعارف الشريفة على ان أفوقه في الشوكة والبأس اه . فكتب اليه ارسطو تسكيناً لغضبه

أبرزته ولم أبرزه يقصد انه وضعه رمزاً لا يفهمه كل أحد أولان تأليفه كانت تعاليق لم يعتن بتحريرها وتنقيحها وجمعها تلاميذه على تلك الحالة فجاءت معجزة مستغلة وأول من فهمها وأجادها شرحاً الفيلسوف الاسلامي أبو نصر الفارابي وكان ارسطو ذهب الى اثينة بعد الفراغ من تعليم الاسكندر وأنشأها مدرسته المسماة (الليسسيون) لبنائها بمحل يسمى (ليسي) تكتنفه الاشجار ولم يوجد في بلاد اليونان أعظم من مدرسته

ومدرسة استاذة افلاطون وقد عكف على التعليم في تلك المدرسة وتخرج عليه عدد كثير فلقب بالعلم الاول وسمى أتباعه بالمشائين لأنه كان يعلمهم وهم مشاة أو لأن محل التعليم كان يسمى بالمشى . استمر ارسطو على ذلك وقد عظم أمره وذاع فضله بين اليونانيين الى ان جاء خبر وفاة الاسكندر فوجد حاسدوه ومبغضوه طريقاً الى ايدائه لانه استاذ من يبغضونه وتحاشوا اظهار ذلك خشية منه فاكثروا فيه القول وكفروه كما كفروا سقراط نخشي على نفسه ان يبطشوا به كما بطشوا بسقراط فشخص من أئينة الى (طاجيرا) ومات هناك وسنه ٦٢ سنة تقريباً فقبروه بها وبنوا له هيكلاً واتخذوه مزاراً كما هي عادتهم في عظامهم ونولا كتب ارسطو ما انتقلت الفلسفة من مكان الى آخر ومن أمة الى غيرها

فرق الفلاسفة

قال المعلم الثاني أبو نصر الفارابي في رسالته التي وضعها فيما ينبغي ان يعلم قبل تعلم الفلسفة ان أسماء فرق الفلاسفة مشتقة من سبعة أشياء أحدها من اسم الرجل المعلم

ثانيها من اسم البلد الذي كان مبدأ ذلك العلم

ثالثها من اسم الموضع الذي كان يعلم فيه

رابعها من التدبير الذي كان يتدبر به والاخلاق التي كان يتخلق بها

خامسها من الآراء التي كان يراها أهلها من حيث تعليمها

سادسها من الآراء التي كان يراها أهلها في الغاية التي ينظر اليها في

تعليمها

سابعا من الافعال التي كانت تصدر عنه في تعليمها

فاما الفرقة الاولى التي سميت باسم الرجل المعلم للفلسفة ففرقة أصحاب
فيثاغورس فانهم سموا بالفيثاغورسيين وقد بلغت شهرة هذا الرجل مبلغاً
عظيماً ووصل عدد تلاميذه الى نحو من ٣٠٠ وكان يرى ان عامة أشياء
الاجبة تكون شائعة بينهم وان المحبة تورث المساواة بين الاحباب فلذا
كان لا يتميز أحد من تلاميذه بشيء عن الآخر بل كل ما يملكونه لجميعهم
فهم متحدون مصرفاً وموردأً ومن أصوله في التعليم ان الطالب يمكث
منقطعاً للطلب ٥ سنوات لا يسأل فيها استاذه وبعد تلك المدة يسوغ له
سؤاله ومحاورته ولكونه قائلاً بالتناسخ حظر ذبح أنواع الحيوان وقتله وقال
ان ذنب قاتله كذنب قاتل الانسان فان لكل أرواحاً منتقلة في الاجساد
كان شديد الميل لعلم الهندسة والهيئة والحساب

وهو أول من برهن على ان مربع وتر الزاوية القائمة يساوي مجموع
مربعي ضلعيها ومن مزاعمه ان أصل كل شيء الواحد كما في الاعداد فانه
الاول وبانضمام آخر اليه يوجد الاثنان وبانضمام آخر لهما توجد ثلاثة وهكذا
والخلقة كذلك فان النقطة واحدة وبانضمام اخرى اليها يتكون الخط
وبانضمام آخر اليه يتكون السطح وبانضمام سطح آخر يتكون الجسم
التعليمي ومثل ذلك يقال في عامة الكون فان الأصل هو الاله الواحد
وبانضمام العقل الأول اليه وهو واحد يكون موجودان^(١) الى آخر ما قاله

(١) وهذا العقل له ثلاث جهات وجوده وجهة وجوده بالغير وجهة امكانه
فبالاولى يصدر عنه عقل ثان وبالثانية نفس فلكية وبالثالثة جسم الفلك ففيه اسناد
ايجاد الاشرف الى الجهة التي هي كذلك وكذا الحال في الجهتين الثابنتين وكذا
يقال في العقل الثاني والثالث الى العاشر وفي الفلك الاول والثاني الى التاسع

الفلاسفة في ترتيب الموجودات وعلى هذا القياس في بقية الاشياء كما هو مبسوط في موضعه

وهو القائل بأنه لا يحصل في العالم عدم محض بل تغيير من حال الى أخرى فالأشياء تتحول الى بعضها وباستدارة الأرض وانها موضوعة في وسط الكون وان الهواء المحيط بها قليل الحركة بل يكاد يكون قاراً بخلاف الذي في الأفلاك والكواكب وهذه علة فناء العالم الارضي السقلى دون العالم العلوي فانه دائم

ولد هذا الفيلسوف في نحو سنة ٥٥٦ ق م وعاش نحواً من ٦٠ أو ٧٠ سنة وأما الفرقة الثانية المسماة باسم البلد الذي كان فيه الفيلسوف المعلم بفرقة القوريين وهم الذين تعاملوا على أرسطيفوس الذي نشأ ببلدة قورين جهة برقة ببلاد الغرب^(١) وفلسفته هي الفلسفة الاولى وقد جهلت مؤخراً لما تحققت فلسفة المشائين وقد عثر له على كتاب في الجبر يسمى بالحدود وشرحه وعلّله بالبراهين وعلى كتاب قسمة الاعداد

وأما الفرقة الثالثة المسماة باسم الموضوع الذي كانت الفلسفة تعلم فيه بفرقة أصحاب كرسيفس ويسمون بأصحاب المظلة لأنهم كانوا يتعاملون في رواق هيكل أثينة وكرسيفس هذا كان معاملاً للفلسفة الأولى التي لم تهذب قواعدها ولم يعلم عن آراء هذه الفرقة شيء

وأما الفرقة الرابعة التي سميت باسم تدير أصحابها وأخلاقهم فأصحاب اثثينوس^(٢) وتلاميذه ديوجنس فانهم يسمون بالسكيبين لانهم اطرخوا

(١) وقال ابن القفطي ان هذه البلدة بالشام قرب مدينة حلب والصحيح الاول

(٢) ولد هذا الحكيم سنة ٤٤٤ ق م ومات سنة ٣٦٥ فعمره ٧٩ سنة وهو

ما كان عليه أهل المدن من الفرائض والتكاليف

ومن خلقهم حب أقاربهم واخوانهم وبنفس غيرهم من سائر الناس
والتغوط في الطرقات بلا ستار فلقبهم الناس بالكليين لان خلقهم خلق
الكلاب ومولد ديوجنس بلدة سينوب وكان أبوه صيرفيًا يسمى ايزيوس
اتهم هو وأبوه بتزيف النقود فقبض على أبيه وأودع السجن حتى مات
وفرّ ديوجنس من بلده الى ائينة وقلبه ممتلئ رعباً وذهب ليأخذ العلم عن
انتثينوس فلم يقبله غير ان ديوجنس صمم على التلقي عنه غير مبالٍ بذلك
فأعيا الاستاذ طرده فانتظم في سلك طلبته وأصبح ذا القدرح المعلى في
الفلسفة الأدبية والآراء المغايرة لآراء من سبقه ومن آرائه أنه إذا احتاج
الانسان الى شيء وأخذه فلا تثريب عليه

رفض القوانين الطبيعية في الزواج وقال الخيرة لهوى الشخص
ويرى ان الحياء من ضعف النفس ولذا كان لا يستحي من فعل قبيح
الأشياء أمام الناس ويقول ان الأكل شيء عظيم فإيمنع الانسان أن
يأكل في الطرق والاسواق كما يأكل في بيته وقد كان حافي القدم سميك
الكساء ليجمعه فراشاً وغطاء ويعطر قدميه دون رأسه

ولما سئل عن ذلك قال ان رائحة القدمين تصعد الى الأنف بخلاف
رائحة الرأس فانها تصعد في الهواء ورأى يوماً طفلاً يشرب بكفيه
فاستحيا من ذلك وقال كيف تكون الأطفال أشد معرفة مني بالأشياء
التي يدرك التحلي عنها وأخرج قدحه من خرجه وكسره اذ رآه متاعاً لا

تلميذ سقراط والمظنب في الثناء عليه وهو أول من لبس العباءة العريضة المبطنه واتخذ
الخرج والعصا فصارت هذه الاشياء خاصة الكليين

ينفعه وكان يتدحرج أيام القيظ على الرمال الشديدة الحرارة ويلصق
جسده بالرُّخام أيام الشتاء ليعتاد جسمه شدة الحرِّ والبرد

ومن خلقه شدة احتقار الناس

ومسكنه برميل ينقله معه أين يكون

وهو من معاصري افلاطون بلغه عنه انه عرف الانسان بانه
حيوان ذو رجلين لا ريش له فاخذ ديكا وشفه وخباه تحت عباءته
ولما دخل مكتب افلاطون اخرجته وطرحه فيه وصاح هذا انسان
افلاطون فزاد في تعريفه بعد تلك الحادثة ذو اظفار عريضة

سئل لم لقبوك كلباً فقال لأنني أملك من يعطيني وأنج من منعي
وأعض من يؤذيني وليم على الإقامة بالاماكن القذرة فقال الشمس
تدخل في أماكن أقدر من هذه ولا تتسخ

مات وعمره ٩٠ سنة وولد سنة ٤١٣ ق م

واما الفرقة الخامسة المسماة باسم الآراء التي كان يراها أصحابها فهي
التي تنسب الى افينغورس فانهم يسمون بالمانعين لانهم يرون منع الناس
من تعلم الفلسفة وهذا الحكيم يقول بان الموجودات أبدعت وان كل ما
كوّن منها يستحيل اليها فمنها المبدأ واليها المعاد وربما يقول الجميع يفسد
وليس بعد الفراق حساب ولا قضاء ولا مكافأة ولا جزاء بل كلها
تضمحل وتذثر والانسان كالحیوان مرسل مهمل في هذا العالم وما يرد
على الانفس من فرح وحزن ونحوهما هو من ذاتها على نسبة أعمالها فان
فعلت خيراً ورد عليها سرور وفرح وان شرّاً ورد عليها كدر وترح وسرور
كل نفس بالانفس الأخرى وكدرها منها بنسبة ما يظهر لها من أفعالها

وتبعه في ذلك أهل التناسخ

أما الفرقة السادسة المسماة بالآراء التي كان يراها أهلها في الغاية التي ينظر إليها في تعلم الفلسفة فهي الفرقة التابعة لفورون اللذي ويقال بأنه كان قبل الميلاد بنحو ١٠٠٠ سنة فانهم يسمون بالذيين لقولهم الغرض من تعلم الفلسفة انما هو اللذة النفسية فان النفس الناطقة انما تنزلت من عالم الملائكة الى هذا العالم لتحصل بواسطة الجسم الذي ارتبطت به على معشوقها الذي هو العلم فاذا فارقت البدن بعد ذلك بقيت في لذة بحصولها عليه وحكمة هذا الفيلسوف هي الحكمة الأولى وهي التي ذهب إليها ثالث الميطي وفيثاغورس وعامة فلاسفة يونان ومصر ومع كونها غير مستقرة لديهم لما اعتورها من التغيير في بعض الآراء بقيت شائعة الى ان ظهرت فلسفة سقراط الادبية فكثر الاقبال عليها واطرحت تلك وبقي أثرها في عامة المتأخرين من الفلاسفة وبنوا عليها الميعاد الروحي

وأما الفرقة السابعة التي سميت بالافعال التي تصدر من أربابها فهي التابعة لأرسطو فانهم يسمون بالمشائين لتلقيهم الدروس وهم يشون على ما تقدم تفصيله^(١)

(١) اساطين الحكماء عند بعض مؤرخي العرب خمسة هم فيثاغورس وسقراط وافلاطون وأرسطو وابندقليس وهذا ولد بنحواً من سنة ٤٤٠ ق م ويقال انه من تلاميذ فيثاغورس وهو من جزيرة صقلية وكان بارعاً في الطب والفلسفة خطيباً مفوهاً من أسرة عظيمة ذا جلة بين قومه ولما أحس باقتياد العامة اليه وانهم كادوا ان يعبدوه ورأى نفسه هرمًا أراد ان يقوي فيهم هذا الميل فعمد الى امرأة مريضة أعيا الاطباء وعنى بها حتى برئت فقربت له القرابين وأدبت مادبة عظمي ودعت اليها الكثيرين من علية القوم وبعد ان حضروا وهو بينهم اختفى عنهم

أقسام الحكماء الذين نظروا في أصول الموجودات

ينقسم الفلاسفة الذين نظروا في أصول الموجودات الى ثلاث فرق
دُهريين وطبعيين والهيمن فاما الدهريون فهم فرقة قديمة جحدت
الصانع المدبر للعالم وقالت ان العالم موجود بنفسه وليس له صانع
واما الطبعيين فمنهم قوم بحثوا عن أفعال الطباع وانفعالاتها وما
صدر عن تفاعلها من المواليد الثلاثة التي هي الحيوان والنبات والجماد وقالوا
ان هذه الطباع التي لها تلك الخواص قد خلقت ملازمة لها لا تنفك
عنها بحال من الأحوال لأن ما بالذات لا يتخلف ولم يقولوا ببعث ولا
نشور فجدوا الله من حيث أنه خلق تلك الخواص الغريبة التي نشأت
عنها تلك المواليد والنظام البديع وضلوا من الجهات الأخرى
واما الالهيون فهم القائلون بالصانع الثابتة له صفات الكمال
وبنسبة كل ما صدر في الكون إليه واثابة المحسن والمسيء والميعاد الروحي
وعدوا من هؤلاء المتأخرين من حكماء اليونان كسقراط وأفلاطون
وارسطو مرتب هذه العلوم ومحررها ومقرر قواعدها والراد على الدهريين
والطبيين والمندد عليهم والقائم باظهار فضائهم ومهدب كلام سقراط
وأفلاطون ومرتبها بجاء كلامه أوضح معاني وأقوى حججاً غير ان من
نقلوا كلامه من اليونانية الى لغة أخرى حرفوا وجازفوا وأقرب الناس
حالاً في تفهمه ومعرفة أغراضه أبو نصر الفارابي ثم ابن سينا قال ابن
العبري وكان لارسطو ابن اخت اسمه ثاوفريسطس قرئت عليه كتب
وصعد الى أعلى البركان والتقى بنفسه في النار فاحترق وقد وجدوا نعله وكانت من
حديد قد قدقها النار فآتموه بالغش اذ فهموا غايته من هذا العمل

خاله واستفيدت منه (وصنف التصانيف الجليلة) منها كتاب الآثار
العلوية وكتاب الادب وكتاب ما بعد الطبيعة نقله من السرياني الى
العربي ابن عدي وكتاب الحس والمحسوس وكتاب أسباب النبات
عربيهما ابراهيم بن بكوس اه

الكلام على من اشتهر بالحكمة من الامم

ممن اشتهر بهذا العلم الكلدانيون فقد برع حكماءهم في العلوم
الرياضية فكانت لهم عناية كبرى في رصد حركات الكواكب والتنجيم
ولما غلبهم الفرس على أمرهم انظمت آثار علومهم ودرست أقوال حكمائهم
ولم يعلم منها غير الارصاد التي نقلها عنهم بطليموس في كتاب المجسطي
فانه اضطر اليها في اصلاح ما يتعلق بحركات الكواكب المتحيرة لأنه لم
يجد لاصحابه اليونانيين أرصاداً يشق بها ومنهم أمة الفرس ويظن انهم
أخذوا ذلك العلم عن الكلدانيين وقال بعض المؤرخين ان لنفس الفرس
قبل ذلك عناية بالغة بصناعة الطب ومعرفة ثاقبة باحكام النجوم وكانت
لهم أرصاد قديمة وقال بعض علماء العجم ان أول من ملك بعد الطوفان
كيومرت من بني سام بن نوح ونزل فارس واتخذ الآلات لاصلاح
الطرق وحفر الأنهار ولذبح ما يؤكل من الحيوان وقتل السباع اه

وفي زمن الملك العادل كسرى انوشروان اضطهد كوستنسيان
قيصر الروم المسيحي الفلاسفة اليونانيين الوثنيين وأقفل الهياكل والمدارس
الوثنية فهاجروا الى غير بلدانهم وجاء فارس ٧ منهم فاقبل عليهم كسرى
انوشروان وأمر باخذ الفلاسفة عنهم وترجمها الى الفارسية وحفل بالجدال

والمناظرة كما حفل بها المأمون في الدولة العباسية حتى خيل لأوثك الفلاسفة انه من تلاميذ افلاطون

ومنهم اليونان وهم أمة عظيمة القدر كثيرة الحكماء، وأول من عرف منهم على ما يظن فورون اللذي رئيس فرقة اللذية غير انه لم يشتهر عندهم أمر الفلسفة والفلاسفة إلا منذ ثالث الميطي وقد نشأ بعده فطاحل العلماء وعظماهم حتى أصبحت بقاع اليونان منابت الفلاسفة ذوي الافكار الثاقبة والمعارف الواسعة وأصبح غيرهم من الأمم كالعيال عليهم

ومنهم المصريون وهم السباقون الى هذا العلم وظهر من كهنتهم حكماء عديدون أخذ عنهم عطاء حكماء اليونان كثالث الميطي وفيثاغورس وأفلاطون ويظهر ان الفلسفة تسربت اليهم من الكلدانيين الأمة العربية لم يكن بين أبناء هذه الأمة زمن الجاهلية أحد من الحكماء لان جل عنايتهم كانت بالمنظوم والمنشور من أقوالهم والاجادة فيه وبالشجاعة والفروسية ولقد ذهب من بينهم الحارث بن كلدة السقيفي الى بلاد الفرس قبل البعثة بقليل وتعلم صناعة الطب وطب كثيراً في تلك البلاد وجمع مالا عظيماً ثم تاقت نفسه الى بلاده فذهب اليها وأدرك الإسلام

كان النبي عليه السلام إذا رأى مريضاً يأمره بالذهاب الى الحارث ليستوصفه وأحواله في العلاج كثيرة ومما يؤثر عنه قوله من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء (اراد بحفة الرداء عدم الدين)

والعبرانيون قد حرموا علم الفلسفة في ذلك الزمان لمجانبتهم الأمم

واقْتصارهم على علوم الشرائع وسير الانبياء فكانت أحبارهم أعلم الناس
بأخبار الانبياء وبدء الخليقة وقد أخذ ذلك عنهم غيرهم

نتيجة

قد علمت مما أوردناه في تعريف الحكمة أنها قيمان نظرية وعملية
وأن غاية الحكماء من القسم الأول أن تكمل فيهم مزايا الانسانية
وتحصل نفوسهم في هذه الحياة على ما يشوقها من معرفة الحقائق
وأحوالها كي تبقى في لذة أبدية سرمدية بعد مفارقتها الأجسام المظلمة
فتنال بذلك السعادة الباقية وإن الغرض من الفلسفة العملية التخلُّق
بمكارم الاخلاق والعكوف على فضائل الاعمال الانسانية الاختيارية النافعة
لهذا المجتمع الانساني لينال في حياته السعادة والنعيم وقد غني الفلاسفة
بالأمر الاول قدر استطاعتهم ووقعوا في كثير من الاغلاط ومال عنهم
سقراط ومن تبعه الى الأمر الثاني وتخطوا في طريق الوصول الى معرفة
الحسن منه والقبيح فان رائدكم فيما ذهبوا اليه البحث والتنقيب العقلي
اذ بينهم وبين العصمة في الأقوال والأفعال مسافات شاسعة بخلاف
الانبياء عليهم السلام فانهم بينوا كل نوع من أنواع الحكمة العملية
بالوحي من الله العليم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا
في السماء فهم رسل الله الى عباده ليرشدوهم الى خير الأعمال ويحذروهم
شروها ومنحهم الله من الحكمة النظرية ما تستحقه مراتبهم وقد حتموا
على من دعوه الى الله فعل الواجب وندبوه الى المستحب وأجازوا له
المباح وحرّموا عليه فعل ما حظره الشارح وكرّهوا اليه فعل ما كرهه

وقرنا ذلك بالترغيب والترهيب وأطلقوا للعقول سراحها في معرفة
الفلسفة النظرية وعدوا معرفتها حسنة إلا ما عاد منها على أصولهم بالنقض
فاغلق باب وجوب وجود الصانع والعقائد الدينية والعمل بالأحكام
الشرعية التفصيلية وطرق إلى ما يضاد الايمان الذي هو ملاك السعادة
ان علماً لا يرقى بالاجتماع الانساني ولا تتوفر فيه وسائل الرفاهية
ومدارج الحضارة فيهبوي بالاجتماع إلى مدارك الذل والشقاء حتى لا يأمن
فيه الشخص على نفسه ونسله وعرضه وماله لا يجلب نفعاً عمومياً لجدير
بان يترك ويستبدل بما يوجب السعادة الملية والرفعة القومية

لذلك كانت الحكمة العملية الحقة سلم السعادة وطريق الحضارة
والقائم بها خليفة الله في ارشاد النوع الانساني إلى ما فيه الكمال والبقاء
الذيان حبيهما الله اليه وتحذيره ما يضاد ذلك ورتب على فعل أسبابهما
الثواب والعقاب

ولذا عصم الله أولئك الانبياء في الأقوال والأفعال وحتم عليهم
التبليغ قال تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل
فما بلغت رسالتك والله يعصمك من الناس

طبعهم الله على التفاني في التبليغ والارشاد لا يباليون بما يقف أمامهم
من العقبات في ذلك السبيل يفرحون بهداية من يهتدي بهديهم ويأسفون
من الإعراض عن اجابة دعوتهم قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم
ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً

فهم الذين خلصوا النوع الانساني من الضلال وأطلقوا له القيود في
طرق الهداية الرشيدة

انتقام الله ذوي نفوس طاهرة ملكية تتلقى الوحي بتلك الجهة
فيتدلى الى المدارك البشرية ليبلغوه الى من أرسلوا اليهم
أيدهم الله بخوارق العادات في دعواهم الرسالة كي تجزم النفوس بصدق
دعواهم وتؤمن بوعدهم ووعدهم وما يحكمون به على الاعمال من حسن وقبح
فليست النبوة آية بكثرة الرياضات الروحية ولا بعظيم الاجادة في البحث
والتنقير للحصول على المسائل العلمية ولا بزائد الاستقامة وكثرة العبادة
بل هي بمحض اصطفاء العليم جل شأنه لتلك النفوس الشريفة بخلقها
الطاهرة بفطرتها قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته خلافاً للحكماء
القائلين باكتسابها

تلك حال الأنبياء وهي مخالفة لحال الحكماء في كل ما قلناه ومن ثم
تعرف الفرق بين الأنبياء عليهم السلام وبين أولئك الحكماء

الإسلام

لم يكن عند الامة العربية قبل الإسلام شيء يعول عليه من الفلسفة
سوى ما حسن لديها من فاضل الأخلاق كالشجاعة والمروءة والنجدة
والسخاء مع الغلو في بعض ذلك غلو لا تحمده الشريعة الإسلامية وسوى
شيء قليل من الحكمة المنزلية والمدنية كبعض عادات قومية وغير قليل من
الحكم والمواعظ في مثورها ومنظومها أنتجت لها خبرتها وتجاربها مع ما لها
من فرط الذكاء الفطري وقد ألفت الحروب وشن الغارات الأتثار أو
سلب مال الى غير ذلك من مآلوفاتها التي ضمتها بطون التاريخ ولما جاء
الإسلام وصدع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه وضحت وسائل

المهدي وظهر لاحب السعادة الفانية والباقية فاقبل الناس أفواجا على
اجابة دعواه

عنيت تلك الشريعة بالفلسفة العملية فجاءت مشتمة على بيان أحكام
حسن الأعمال وقيحها لأن سعادة النوع الانساني منوطة بعلم أحكام تلك
الاعمال من حيث تأثيرها في الاجتماع البشري قوة أو ضعفاً والعمل على
مقتضى ذلك العلم وأباحت من الفلسفة النظرية ما شاء الله ان تبيح
ومدحت العلم والاتصاف به على شريطة ما قدمناه بل حضت على تعلم
القسم الالهي القاضي بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر
وبالانابة والعقوبة فيه وبما اشتمل عليه الكتاب الكريم والسنة السمحة
من الوعد والوعيد فاستتبع هذا الاقبال على محاسن الأعمال التي رغب
فيها ومجانبة سيئها التي نهى عنها على قدر حال الأشخاص في الاستيقان
فان الإقبال على العمل نتيجة التصديق به والتيقن من فوائده ولذا استتبع
إيمان الأنبياء عليهم السلام العصمة لقوة يقينهم كان يقين غالب الصحابة
رضوان الله عليهم أقوى من يقين غالب من بعدهم لما شاهدوه من باهر
المعجزات وينابيع العلم المتفجرة ومكارم الأخلاق وباهر الآي الدالة على
صدق الرسول عليه السلام في كل أقواله وعلى سداد أفعاله مما لا يجتمع في
غير معصوم . النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم اذا اختلفوا في شيء
ردوه الى الله والى الرسول فاتحدت القلوب في وجهتها واجتمعت الايدي
على الأعمال فكثرت فتوح الإسلام وعلا سلطانه ودان الناس لاحكامه فمنهم
من خالطت بشاشته قلبه وكره ان يعود الى حاله الأولى كما كره ان
يقذف في النار ومنهم من لم تهز قلبه باهر آياته وبدائع حكمه فدان

لاحكامه ظاهره ولم يطمئن اليها باطنه وفتح الشارع منه بذلك مفوضاً
أمره الى الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وبقي مع أولئك
ما ملأ قلوبهم من باطل الاعتقاد وفساد الأعمال فقالوا بها وعملوا على
مقتضاها عندما وجدوا لذلك مساعماً

وأول خلاف أعقب ضرراً كان زمن عثمان رضي الله عنه فقد
تحيز فريق إليه وفريق آخر الى منابذيه واستتبع ذلك الخلاف بين علي
كرم الله وجهه ومعاوية رضي الله عنه وظهر عقبه أمر الخوارج فافترقت
الآراء وتنافرت القلوب وغلت مراحل الفتنة والتهمت في الاقدة نيران
الاحقاد والادغال فترحزح الدين عن طريقه ولم يعل أمره بعد ذلك فلم
يكثر فتوحه الاسلامي بل كان الاستيلاء على الاقطار استيلاءً ملكياً
سلطانياً لا اسلامياً خلافاً فان الدول أيام نشأتها تكون واهمة الى
الاتساع وعظم السلطان

أصبح الاسلام ملكاً عضوضاً غلب فيه ذلك على أمر الدين
فالتسعت الاقوال وتباينت الآراء فذاع الخلاف وأخذ الذين اتقادوا اليه
ظاهراً يبدون ما وقر في نفوسهم وتبعهم غيرهم فتمزق شمل الوحدة
الاسلامية بما حصل من التفريق والله تعالى يقول

ان الذين فرقوا بينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء (وهو يقتضي
أنهم ليسوا منه في شيء)

جاء زمن المأمون وكان شيعياً مولعاً بالجدل والبحث في الحكمة
النظرية فندب الحجاج بن مطر ويحيى بن البطريق ويوحنا بن ماسويه
وسلما صاحب بيت الحكمة ببغداد لاحتضار الكتب الفلسفية من بلاد

اليونان فُشخصوا اليها وأحضرها منها ما شاء الله ان يحضروا وشرعوا في نقلها الى العربية وكان رئيس أولئك المعربين يوحنا بن ماسويه وقد بذل له المأمون زنة ما يترجم ذهباً فأوسع في الخط وما بين الاسطر وكتب في صحف سميكة كي يثقل وزن الكتاب ولما تم تعريبها وجدت في أولئك القوم الذين كثر اختلافهم وتباين آرائهم استعداداً لها فأقبلوا عليها إقبال الظمان على الماء ليعضدوا ببراهينها ومباحثها مذاهبهم واهتم الناس بعد ذلك بالبحث عن تلك الكتب وتعريبها عن الفارسية والسريانية واليونانية وقد أعان على هذا كله القائمون بتلك العلوم بمدرسة الحكمة في بغداد التي أنشأها الرشيد وعنى بها المأمون ولم يعتن قبل ذلك بترجمة كتب الفلسفة سوى ما كان من حمل أبي جعفر المنصور جرجيوس ابن بُختيشوع على ترجمة الطب الى اللغة العربية (وكان جرجيوس هذا عالماً باللغات العربية والفارسية والسريانية واليونانية وهو الطيب الخاص بأبي جعفر استقدمه من جند سابور بأشارة الأطباء ليستوصفه مرض معدته وكان قد أعيامه علاجه فدبره تدبيراً حسناً وترجم له كتباً من الطب عدا ما ألفه له وبقي نسل آل بُختيشوع في خدمة العباسيين) وفي زمن الرشيد نقل الحجاج بن مطر كتاب أفليدس في الهندسة الى العربية وتسمى هذه بالنقلة الطارونية تمييزاً لها عن النقلة المأمونية ولم يترجم شيء من الفلسفة أوائل الاسلام خلاف هذا لأن القائمين بأمر الدين اذ ذاك كانوا لا يرضون عن اذاعة ما يخالف ظاهره الاسلام وكذلك علماء الامة وبنوها الى ان تضائل ذلك زمن المأمون فكان ما

قدمناه

ذکر نبد من تراجم مشهوری فلاسفة الاسلام

نذكر في كتابنا هذا تراجم بعض من اشتهروا من الفلاسفة
الاسلاميين بالايجاز وهم أبو نصر الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا وحفيد
ابن رشد مراعين سبقهم في الزمان

الفارابي

هو أبو نصر محمد بن طرخان فارسي الأصل من بلدة فاراب من
بلاد خراسان (قال ياقوت وسميت بعد ذلك أطرار) كان عارفاً باللغة
التركية وكثير من اللغات الأخرى جاء الى بغداد واشتغل بتعلم اللغة
العربية فأتقنها وأخذ علم المنطق عن أبي بشر متى بن يونس النصراني أحد
تلاميذ قويرى وقد انتهت رئاسة المنطق في ذلك الزمان ببغداد الى أبي
بشر هذا المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ثم انتقل الى مدينة حرّان وتعلم بها الفلسفة
وعاد بعد ذلك الى بغداد وكان واسع الاطلاع في العلوم الفلسفية لايدانيه
أحد في احكام فنّ الموسيقى اخترع آلات للتوقيع والغناء غاية في بابها
وحلّ ما تعقد من كتب أرسطو وألف تأليف كثيرة ثم رحل الى دمشق
وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان وقد حضر مجلسه وكان به كثير من
عظماء علماء دمشق ودار البحث في الموضوعات العلمية فما زال صوت
أبي نصر يعلو وصوتهم يسفل حتى سكتوا وشرعوا في كتابة ما يقول فعمت
لدى سيف الدولة منزلته

قيل انه سافر الى مصر سنة ٣٠٨ هـ وعاد الى دمشق وكان متقشفاً
زاهداً فنوعاً اکتفى من سيف الدولة بان يجري عليه كل يوم أربعة دراهم

وكان محباً للعزلة لا يوجد إلا عند المياه الجارية والأشجار المنتفة وبعلق
التعاليق هناك ولذا جاء كثير من تآليفه في رسائل خاصة ببعض الموضوعات
وهو في مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب أفلاطون
وأرسطو ووقفوا على أغراضها وأحسنوا فهمها يدل لذلك ما حكاه الشيخ
الرئيس من انه عرف غوامض الفلاسفة ووقف على مقاصدها واستظور
القسم الالهي منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه فسئمته نفسه
وكان ذات يوم لدى الوراقين ومرّ عليه دلال كتب ويده مجد وقال له
اشتر هذا فلما علم انه في الفلسفة الالهية قال لا حاجة لي به فقال له الدلال
ان صاحبه محتاج الى بيعه ويطلب به ثمنًا قليلاً وأبيعه بثلاثة دراهم قال
فأخذته ووجدته تأليف أبي نصر الفارابي فلما قرأته وفتت منه على أغراض
ذلك العلم وفهمته بعد ان مللت الاشتغال به وأيست من فهم أغراضه
فتصدقت بشيء من مالي شكراً لله على هذه النعمة ولما كان أكثر ممن
سبقه من الفلاسفة الاسلاميين ايضاحاً وشرحاً لكلام أفلاطون
وأرسطو وأقدرهم على فهم أغراضهما لقب بالمعلم الثاني كما لقب أرسطو
بالمعلم الأول وسئل أنت أعلم أم أرسطو فقال لو أدركته لكنت أكبر
تلاميذه توفي سنة ٣٣٩ هـ وعمره يناهز الثمانين سنة فصلى عليه سيف
الدولة وأتباعه ودفن خارج الباب الصغير بدمشق

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري
والده من أهل بلخ انتقل منها الى بخارى أيام أميرها نوح بن منصور

الساماني وتولى العمل له بقرية يقال لها اخريميش من ضياع بخارى وتزوج بامرأة من قرية افشنة على مقربة منها فأنجبت له بالشيخ الرئيس وأخيه ثم انتقل الى بخارى وأحضر له والده معلم القرآن الكريم والأدب ولما بلغ عمره ١٠ سنوات أجاده حفظاً وحفظ أشياء كثيرة من الأدب وكان أبوه ممن أجابوا داعي الاسماعيلية وكثيراً ما كان يذكر المهندسة والفلسفة ويتكلم في مباحث النفس وغيرها على رأى الاسماعيلية مع أخيه وهو يسمع ما يقال ويفهمه ولا تظمن له نفسه ثم وجهه الى رجل يقال يجيد حساب الهند فعرفه منه وبعد ذلك اشتغل بالفقه على اسماعيل الزاهد وأجاد السلوك في تعلمه وجاء الى بخارى أبو عبد الله الثاني فانزله والده داره رجاء ان يعلمه الفلسفة فابتدأ في قراءة ايساغوجى عليه وعرف منه ظواهر المنطق وأخذ يكثر من مطالعة كتبه وكتب المهندسة والطب وقد عرض يومئذ للأmir منصور بن نوح مرض ودعا اليه الأطباء وقد عرف الشيخ بينهم بالطب فدعوه معهم وتكلم في شأن المرض فأذناه بعد ذلك منه فطلب أن يدخل دار كتبه ويطلع عليها فأذن له في ذلك - فوجد لكل علم في تلك الدار بيتاً خاصاً فاطع على فهارس الكتب وطلب ما احتاجه منها ورأى من بينها كتباً كثيرة لم يقف أحد على أسمائها فضلاً عما اشتملت عليه من الفوائد وظهر بما فيها من الدقائق وتم له ذلك وهو ابن ١٨ سنة وكان يقول اني كنت منكباً على حل العويص من المسائل فكل مسألة لم أظفر فيها بالحد الاوسط أصلي ركعتين لله وأبتهل اليه حتى يبيض عليّ العرفان وكثيراً ما كنت أحلم بالمشكلات التي تعترضني وألهم حلها في النوم وما ازددت علماً بعد

ان بلغ سنى ١٨ سنة غير ان علمى الآن أنضح وما أعيانى من العلوم
الفلسفية سوى العلم الالهى الى ان قرأت كتاب أبى نصر الفارابى
فاوضح لى المحجة غاية الايضاح . ووقفت منه على أغراض ذلك العلم ثم
انتقل من بخارى الى أماكن شتى حتى وصل جرجان فاتصل به أبو عبد
الله الجرجانى أكبر تلاميذه ثم ذهب الى الرى وعالج الامير مجد الدولة
على بن ركن الدولة حسن بن بويه وكان مريضاً من غلبة السوداء فسقى
واتصل بخدمته ثم اتصل بخدمة شمس المعالى قابوس بن وشمكير ثم فارقه
وقصد علاء الدولة بن كاكويه باصفهان وكان مريضاً بالقولنج فعالجه وشفاه
الله مما به وتولى لديه منصب الوزارة ثم مرض بالقولنج وأهمل أمر الحيلة
من هذا المرض فمات سنة ٤٢٨ هـ وسنه ٥٨ سنة ومؤلفاته كثيرة جداً

حنيد بن رشد

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبى الوليد محمد بن رشد ولد بقرطبة
سنة ٥٢٠ هـ وأسرته من أكبر الأسر فى الأندلس أسسها جده قاضى
قرطبة وأعلم أهل الأندلس بفقهِ المالكية وكانت له الكعب العالية فى
القضاء والسياسة تضرب اليه أكباد الابل فى طلب الفتيا وخلفه فى
القضاء ابنه أحمد أبو المترجم

درس الحنيد فى صغره الفقه والأصول وعلم الكلام وكانت أساتذته
فى ذلك أبو القاسم وأبو مروان بن مسره وأبو بكر بن سمجون وأبو جعفر
ابن عبد العزيز وهم أعظم فقهاء الأندلس فى ذلك الزمان ثم جد فى دراسة
الطب على أبى جعفر هارون ومن الناس من يقول انه أخذ عن الحكيم

ابن بجا أعظم فلاسفة الأندلس قبل صاحب الترجمة وتعلم الرياضيات والاهليات ولما شبَّ وظهرت عليه مخايل النجابة وأصبحت له اليد الطولى في العلوم ودّه العلماء وأكبروا شأنه فعظمت المودة بينه وبين الفيلسوف ابن طفيل واتصل بأسرة بني زهرة التي اشتهرت بالعلماء الذين نبغوا منها فداع صيته حتى نعى الى الأمير يوسف بن تاشفين فأحضره وذاكره في العلوم فأعجب ببراعته وكافه شرح فلسفة أرسطو بإشارة ابن طفيل لأنه كان كبير ووهنت قواه فلم يستطع أن يباشر هذا العمل فأشار بنديب ابن رشد لذلك فملت منزلته لدى الأمير وولاه قضاء اشبيلية سنة ٥٦٥ هـ وكانت ولاية القضاء تقضى عليه اذ ذاك بالتنقل في البلاد فذهب الى مراکش سنة ٥٧٤ هـ وبعد ذلك بسنة انتقل الى اشبيلية وفي سنة ٥٧٨ هـ استدعاه الأمير يوسف الى المغرب وأقامه طيباً له بدل ابن طفيل وجعله قاضي القضاة في قرطبة وحصل بذلك على مرتبة أبيه وجده فحسده كثير من العلماء ولم يرضهم ان يتولى رئاسة القضاة رجل عرف بالفلسفة وقد خلف يوسف بن تاشفين الخليفة يعقوب المنصور بالله فاحب المترجم وأكثر من احضاره مجلسه وكان ابن رشد لثقتَه بعلو منزلته عنده يقول له عند ما يخاطبه يا أخى فحاول الحاسدون الايقاع به وقالوا للخليفة انه يخاطبك خطاب المتماثلين وانه قال في بعض تأليفه رأيت الزرافة في دار ملك البربر ولم يقل في دار الخليفة وانه لا يعتقد ما جاءت به الشريعة الاسلامية ويثق بالفلاسفة وآرائهم فدفع بعض محبيه ذلك بان البربر هي البرين أى بر مراکش والأندلس وانكر ابن رشد نسبة ذلك اليه ولكن هذا الدفاع لم يجد شيئاً لما قام به العلماء والعامّة من الانكار عليه

وكان من حبه للفسفة وطول باعه فيها وفي الشريعة يكثر من القول بالاتصال بين الشريعة والحكمة في أقواله ومؤلفاته لما يراه من ذلك وللتخفيف من حنق العلماء والعامه عليه وكل ذلك لم يحط من قدر الحقد والسخط عليه فأمر الخليفة بجمع كثير من العلماء ليجثوا في كتبه ويقولوا في شأنه ما يروونه فبعد البحث قر رأيهم على مخالفتها للشرع فأبقى عليه الخليفة واكتفى بأن يذهب به وبصديقه عبد الله ابن ابراهيم الأصولي (لأنه عدت عليه فلتات في بعض مجالسه ومذاكراته) الى الجامع العام ويشهر بهما كي تعرف العامة مروقهما من الدين حتى يؤمن من اغسادهما عقائد العامة ويتقى ضررها ففعل ذلك وكتب منشور من قبل الخليفة يقبح فيه أمر الفلسفة ومن اشتغل بها ويذكر مرقه من الدين ونفي ابن رشد الى (أليسانه) وهي بلدة قريبة من قرطبة يسكنها اليهود ونفي أيضاً المشتغلين بهذا العلم الى غير منفي ابن رشد ومنهم أبو جعفر الذهبي ومحمد بن ابراهيم قاضي بجايه والقاضي أبو عبد الله بن ابراهيم الأصولي وغيرهم وأمر المنصور باحراق كتب الفلسفة ما عدا ما يحتاج اليه في أمر الحياة كعلم الطب والحساب والمهندسة والمواقيت يروى عن ابن رشد انه قال أعظم ما طرأ على من النكبات أني دخلت المسجد انا وولدي عبد الله لأصلي العصر فنار علينا سفلة الناس بالمسجد وأخرجونا بدون ان نصلى ولما نفي كثرت شماتة أضداده به وأكثروا من قول الشعر في هذا المعنى من ذلك

نقد القضاء بأخذ كل مموه متفلسف في دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا ففيل حقيقة ان البلاء موكل بالمنطق

والاشعار في ذلك كثيرة ضربنا صفحة عن ذكرها وبعد انقضاء سنة من الأمر بنفيه كالم في شأنه المنصور كثير من العظماء وأبناؤا له ان تهمة غير حقة ليس منشؤها الا الحسد فعفا عنه وعن نفاهم واستدعى الى مراکش ومات بها قبل ان يتجاوز مدة العفو سنة ودفن هناك ثم نقلت جثته بعد ذلك الى قرطبة وكانت وفاته سنة ٥٩٥ هـ فعمر ٧٥ سنة

أدوار الفلسفة اجمالاً

قدمنا أن الفلسفة راجح أمرها في الدولة الاسلامية أيام المأمون وكثر اقبال الناس عليها وكذلك راجت في بلاد الفرس أيام كسرى أنوشروان فانه حفل بها على انها قد كان لها أثر في تلك البلاد أيام الملك سابور بن أردشير فانه أمر بنقلها من اليونانية الى الفارسية وفي أيامه اخترعت العود وهي الملهة المعروفة وقد توفي سابور هذا سنة ٥٥٩ لعلبة اسكندر بن فيلبس الفرس وكان اشتغال العرب والفرس بها على الطريقة التي كانت عليها أيام الأقدمين من اليونان وقام كثير من علماء الاسلام بدحض ما وجدوه منها مخالفاً لظاهر الشريعة وقد جارت حكومة الاندلس الخلفاء العباسيين في جلب كتبها والوقوف على مباحثها كما كانت عليه من قديم الزمان أيضاً ولما قامت الحكومات المتعددة في البلاد الاسلامية خشيت من سخط العلماء فقللوا من الاشتغال بها وأعرض الناس عنها اتقاء غضب الحاكم والجمهور الى أن ضعف الاقبال عليها في أغلب البلاد التابعة للدولة العثمانية وبقى الاقبال عليها في بلاد الفرس والهند ولما حضر الى مصر المرحوم الشيخ محمد جمال الدين الافغاني وقرأ كتاب شرح الهداية لقاضي

مير والاشارات لابن سينا وشرح حكمة العين لمبارك شاه والقطب على الشمسية في المنطق وكتاب سلم العلوم وقرأ من كتاب مطالع الأنوار في المنطق الى تلازم الشرطيات وكتاب الجفميين في الهيئة وكان مجيئه في أواسط حكم ساكن الجنان اسماعيل باشا واستمر على قراءة الكتب المتقدمة الى أوائل حكم المرحوم توفيق باشا خديو مصر السابق أقبل بعض الأزهرين عليها

ومعلوم ان الاشتغال بها في كل هذه الأحوال كان على الطريقة التي لا تستتبع نتيجة عملية . هذه حال الشرقيين في الفلسفة الى الآن . وأما أمم الغرب فقد اشتغلت بما ينشأ عنها من الفوائد العملية منذ القرن ١٧ بعد الميلاد ففرقوا بها الى أوج الحضارة وقد حصلوا من فوائد الجذب والبخار وغيرهما مما لا يحصى على عظيم الفوائد والمنافع ولا يزالون يحصلون على جديد من الفوائد الجزيلة فكأنى بهم وقد أصبحوا قادة المنافع المودعة في العالم الى النوع الأنساني

تقسيم الدليل من حيث مادة القضية

يتقسم الدليل من هذه الجهة الى ثلاثة أقسام برهان وخطابة وجدل وأما الشعر والسفسطة اللذان زادها أرسطو على الأقسام الثلاثة وسمى الجميع بالصناعات الخس فلا محل لا يرادها لأن أولهما ليس الأتحيلياً يؤثر في النفس قبضاً أو بسطاً وثانيهما لا يوصل الى التصديق بالحقائق الثابتة البرهان هو ما تركب من قضايا ضرورية واجبة الصدق سواء

تألف منها مباشرة أو من مقدمات تنتهي إليها عند الاستدلال على صحتها
والضرورات سبع

الأولى - القضايا التي يجزم بصحتها العقل عند ما يتصور طرفيها
وتسمى أولية نحو قولنا الكل أعظم من الجزء والواحد نصف الاثنين
والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان

الثاني - القضايا التي يجزم العقل بصحتها بسبب واسطة لا تغيب
عن الفكر عند تصور طرفي القضية نحو الأربعة زوج والخمسة فرد
والأشياء المتساوية إذا أضيفت إليها أشياء متساوية كانت النواتج متساوية
والأشياء المتباينة إذا أضيفت إليها أشياء متساوية كانت النواتج متباينة فإن
العقل يحكم بصدق زوجية الأربعة بواسطة قياس لا يغيب عنه وهو
انقسامها إلى متساويين فكان لديه قياساً هكذا الأربعة منقسمة إلى
متساويين وكل ما كان كذلك فهو زوج ولما كانت الواسطة لا تغيب عن
الذهن عند تصور موضوع كل قضية عدت القضايا التي شأنها هكذا
ضرورة ومثل ذلك الخمسة فرد وكذلك الأشياء المتساوية إذا أضيفت
إليها أشياء متساوية الخ فإن العقل يحكم هذا الحكم بواسطة قياس لا يغيب
عنه عند تصور ذلك وهو عدم انضمام كمية إليها تزيد ذلك التساوي فكان
لديه قياساً هكذا الأشياء المتساوية المضاف إليها أشياء متساوية لم يطرأ
عليها ما يغير التساوي وكل ما هذا شأنه لا يزال التساوي فيه باقياً وكذلك
يقال فيما بعده

الثالثة - المشاهدات وهي قضايا يحكم بها العقل بمجرد الحس
الظاهر من غير تكرار ولا حدس ولا اخبار جماعة والا كانت من قبيل

المجربات أو الحدسيات أو المتواترات على ما سيأتى وذلك مثل الشمس طالعة وهى مضيئة والنار حارة وهذا العطر طيب الرائحة وذلك العاج أملس وهذا الصبر مر الطعم وهكذا فان هذه القضايا الجزئية المدركة بالحس تفيد أحكاماً جزئية صادقة متى كانت الحواس صحيحة لا خلل فيها (والحكم بان كل نار حارة وكل عطر طيب الرائحة الخ انما هو حكم نفسى أعدت الحواس النفس الى ادراكه بواسطة تكرار لدى الحواس المذكورة فى كثير من الجزئيات) أو الباطن كاعتقادنا بأن لنا فكراً وجوعاً وشبعاً وريباً وظماً واعتقادنا بوجودنا ووجود أفعالنا ويسمى هذا النوع بالوجدانيات

الرابعة - المجربات وهى ما يجزم بها العقل بواسطة الحس مع التكرار كالحكم بان الضرب بالعصا مؤلم وان الفحم مزيل للعفونة وحامض الفينيك كذلك وان زيت الخروع مسهل ولا بد معها من قياس وهو ان الوقوع المتكرر تكررأ دائماً أو أكثرياً ليس اتفاقياً بل لا بد له من سبب ما (وان لم تدرك حقيقة السبب) ومتى وجد السبب وجد المسبب فكان هناك قياساً صورته هكذا زيت الخروع دام ترتب الاسهال على تناوله ودوام ترتب الاسهال على تناوله لسبب فيه اقتضى ذلك وكل سبب لشيء اذا حصل حصل مسببه وهو الاسهال

الخامسة - الحدسيات وهى قضايا يحكم بها العقل لحدس قوى يزول معه الشك والحدس سرعة انتقال الذهن من المبادئ الى المطالب فهو سنوح المطالب مع دليله للعقل دفعة واحدة فليس فيه حركة النفس من المطالب التي لم يدعن بها الى أداتها ثم انتقالها من هذه

الادلة الى تلك المطالب على وجه الازعان والتصديق ولا يكون الاً للاذكياء أو الهاماً للنفوس المستعدة له كقولنا الصانع المتقن صنعته عالم بها اذا جاء ذلك للعقل مع أدلته دفعة واحدة اذ من المعلوم أن اجادة صنع جزء من المصنوع لاحتياج جزء آخر اليه في القيام بالميزة التي خص بها واحكامه صنع تلك الاجزاء احكاماً يؤدي الى احكام الوصول لما قصد منه يدل على ان ذلك ليس ناشئاً الاً عن علم بتلك الاشياء ولا ينكر ذلك الاً مكابر وكقولنا نور القمر مستفاد من نور الشمس اذا كان لنا ذلك حديثاً فان اختلاف أضوائه وتشكلاته بالنسبة لأوضاعه من الشمس يدل لذلك ولا بد فيها من تكرار المشاهدة والقياس فهي كالمجربات وليس بينهما من الفروق الاً أن ماهية السبب هنا معلومة بخلافها في المجربات

السادسة - المتواترات وهي ما يحكم فيها العقل بمجرد تواترها عن جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب ولا يكون الاً في المحسوسات كحكمتنا بوجود مكة ودمشق وباريس ولوندره ولا يقبل التواتر الاً في المحسوسات دون العقليات كما في القضايا الهندسية والحسابية ووجود الصانع ووحدانيته الى غير ذلك ولا بد فيها من تكرار وقياس والحاصل بها علم جزئي فلا يكون عنها علم كلي

السابعة - الوهميات في المحسوسات فان حكم الوهم فيها صادق نحو كل جسم له جهة فان العقل يصدقه في تلك الاحكام ولذا كانت العلوم الهندسية والجارية مجراها شديدة الوضوح لمطابقة العقل فيها الوهم بخلاف حكمه على المجردات وذلك كحكمه على كل موجود بأنه في جهة ومكان فان هذا الحكم غير صادق بالنسبة للمجردات وذلك لان الوهم يتزعم

أشياء من المحسوسات فاذا حكم بتلك المنتزعات على غيرها من الاجسام التي لم تحس كان حكمه صحيحاً بخلاف ما لو حكم بها على المجردات فانه يكون حكماً كاذباً كما سلف . والغرض من البرهان معرفة الحقائق على ما هي عليه في الواقع بحيث لا تكون الاً كذلك

الدليل الخطابي

هو دليل لا يفيد القطع بل غلبة الظن وهي مما يبتنى عليها غالب أفعال الجمهور الشرعية وغيرها وعمادهم أيضاً اذ لا يسلك طريق البرهان الاً الخاصة الذين عنوا بالبحث والتدقيق وقليل ما هم ومن ثم تقول كما قال حفيد بن رشد ان ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الشرائع الاعتقادية والعملية دعت الكافة الى الاتقياد اليه والامتثال به وفيهم من لا قوة له على تقصي البراهين القطعية فلو كفوا في عامة ما اشتملت عليه بالبرهنة القطعية لكان تكليفاً لا غلبهم بما لا يطيقون لانهم لا يهتدون الى الوصول اليه وذلك يضاد المقصود من التشريع يرشد الى ذلك ما تراه في القرآن الكريم من الادلة الخطابية السهلة القريبة الى فطرتهم . أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض اله مع الله قليلا ما تشكرون . أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرايين يدي رحمته اله مع الله تعالى لله عما يشكرون . أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . وذكر في التنبيه على وجوب الأفعال وحرمتها

الأوامر والنواهي . وأدلة افادة الاولى الوجوب والثانية التحريم لا تصل الى درجة القطعية المستفادة من البراهين العقلية والدليل الخطابي يتألف من مقدمات لا تخرج عن أربعة أنواع

الأول — المسامات التي تقبل من غير دليل لأنه دال عليها في موضع آخر كتقواعد أصول الفقه المسامة لدى الفقيه لأنه دال عليها فيه كقوله الزكاة واجبة لأمر الشارع بها إذ الأمر يفيد الوجوب فلم القضية الثانية لأنه دال عليها في ذلك العلم

الثاني — القضايا المشهورة التي اتفق عليها الجميع أو الكثير فالأولى نحو العدل حسن والظلم قبيح والثانية نحو الاله واحد فإنه لم يتفق عليها الجميع ألا يرى أن المانوية قالت بألهين أحدهما للخير وثنانهم للشر وكقولنا التسلسل مطلقاً محال فإن الفلاسفة لم يقولوا باستحالته إلا بشرائط مخصوصة أو يحكم العقل فيها بواسطة رقة نحو مراعاة الضعفاء محمودة أو همية نحو حفظ شرف الأسرة والذود عنها ممدوح أو بواسطة انفعالات نفسية من آداب شرعية نحو كشف العورة مذموم والحسد محرم أو مزاجية نحو الغضب يمدح عند الالهانة والغرض منه اقناع الطالب القاصر عن البرهان أو الترغيب أو التهيب

الجدل

هو ما تألف من مقدمات مسامة عند الخصم فيبني المستدل دليله عليها كي يفحم مجادله والغرض منه إسكات المجادل وإلزامه الحجة وذلك كما إذا قال شخص باستحالة تعدد القدماء فانا نقول له اذن لا يصح ان تقول

صفات الله القديمة زائدة على ذاته لانه يلزم من ذلك ما لا تقول به وهو تعدد القدماء

الأدلة

تنقسم الأدلة الى ثلاثة أقسام

الأول - الدليل العقلي وهو ما كانت مقدماته القريبة عقلية لا غير كقولنا العالم متغير وكل متغير حادث وكقولنا النفس الناطقة تقوم بها أعراض متضادة في وقت واحد كالحرارة والبرودة والملاسة والخشونة المتصورة ولا شيء مما هو كذلك يُجسم وكذلك البراهين التي تذكر في العلوم الرياضية كدلائل الحساب والهندسة

الثاني - الدليل النقلى وهو ما كانت مقدماته القريبة نقلية نحو المخالف لأوامر الشرع عاص وكل عاص يستحق العقاب فان المقدمة الأولى نقلية لقوله تعالى أف عصيت أمرى والثانية كذلك لقوله جل شأنه ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم الى غير ذلك من الأدلة القائمة على الاحكام الشرعية

الثالث - المركب من المقدمات النقلية والعقلية معا نحو أبو بكر رضى الله اختاره رسول الله لأمر الدين (فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يؤم المسامين بدلا منه وفيهم عمر وعلى وعثمان وغيرهم رضوان الله عليهم) وكل من اختاره النبي لأمر الدين فهو أجدر أن يختار لأمر الدنيا وهو تولى الأحكام بطريق الخلافة عن الرسول عليه السلام فالمقدمة الأولى نقلية والثانية عقلية

الدليل العقلي والنقلي

لا خلاف يعتقد به في أن الدليل العقلي اذا روعيت مادته وهيئته
حق المراعاة أفاد اليقين ولا ينازع في ذلك الامكابركالسوفسطائين وغيرهم
ممن نحانحوم وأما النقلي فقد ذهب جماعة الى أنه لا يفيد اليقين محتجين
بأن افادته معناه افادة قطعية متوقفة على ثلاثة أشياء

الأول — معرفة المعاني الافرادية والتركيبية

الثاني — معرفة ان تلك المعاني هي مرادة الشارع

الثالث — عدم معارضته بالدليل العقلي

والأول متوقف على معرفة المعنى الموضوع له مادة اللفظ وعلى
اختلافه باختلاف البنية وعلى هيئة التركيب وذلك يتوقف على معرفة عامي
اللغة والصرف وعلى علم النحو وهي غير قطعية لثبوتها عن العرب
برواية الأحاد

والثاني متوقف على عدم نقل الالفاظ من معانيها المرادة منها زمن
الشارع الى معاني أخرى كي لا تكون المعاني المرادة الآن غير المعاني التي
أرادها الشارع وعلى عدم الاشتراك حتى لا يراد منها أحد معاني المشترك
الذي لم يردده وعلى عدم التجوز بها الى معنى آخر وعلى عدم تخصيص
العام منها ببعض أفرادها وعلى عدم حذف شيء من الالفاظ وعلى عدم
اضمار شيء في النفس لم يلفظ به وكل ذلك غير قطعي

والثالث ان لم يتحقق من عدمه بق احتمال وجوده ومع هذا الاحتمال
لا يكون الكلام قطعياً في افادة ظاهره لأنه ان وجد يجب تأويل الدليل

النقل أو التوقف في معناه اذ من المعلوم أنه لا يمكن الأخذ بالدليلين معاً
لاجتماع النقيضين ولا الغاؤهما معاً لارتفاعهما ولا الأخذ بالدليل النقلى
والغاء العقلى لان في ذلك الغاء النقلى لأنه أصله فان التصديق بالنقلى انما
جاء بعد اثبات عصمة القائل وهو فرع عن اثبات نبوته وهو فرع اثبات
وجود مرسله وهو الله عز وجل وذلك لا يكون الا بالدليل العقلى فلو ألغى
الدليل النقلى العقلى ألغى نفسه لأنه أساسه والاعتداد به لم يكن الا بسببه
فاذا بطل السبب لمجرد النقل فقد سقط المسبب واذا توقفتا فيهما معاً لم
يكن الدليل النقلى مفيداً لليقين وكل هذه الأشياء ضنية وما توقف على
الظنى ظنى بالاولى

وقد يقال قد تعلم ارادة الشارع المعانى بواسطة القرائن والأفعال كما
قال عليه الصلاة والسلام صلوا كما رأيتمونى أصلى وكتبيني الزكاة بدفع
عشر المال على أن التشكيك في أمثال ذلك تشكيك في الضرورى فانا نعلم
بدهاهة أن معانى لفظ السماء والأرض والماء وغير ذلك هى المعانى التى لها
زمن الشارع والتعويل على تلك الاحتمالات يستلزم عدم الوثوق بالمحاورات
 والمراسلات والعقود ويخالف ما نجده في أنفسنا من الاطمئنان واليقين
في فهم المراد منها واخبار الشارع دليل على عدم المعارض العقلى لان الكلام
في الشرعيات التى ليس للعقل طريق الى اثباتها أو نفيها فهى أمور جائزة
فاذن لا معارض من جهة العقل مطلقاً نعم يرد هذا على الدليل النقلى فيما
للعقل طريق الى اثباته أو نفيه

بان من هذا أن الدليل النقلى في تلك الأشياء مفيد لليقين كما في
البعث والنشور وما يتعلق بأحوال الجنة والنار الى غير ذلك

أقسام المطالب

تنقسم المطالب من جهة اثباتها بالدليل العقلي أو النقلى الى ثلاثة أقسام
الأول - ما تتوقف صحة الدليل النقلى عليه وللعقل طريق الى الحكم
فيه كإثبات وجود الله جل شأنه فان ثبوت الرسالة وصدق الرسول فيما يقوله
واعتبارنا ذلك دليلاً نقلياً مثبتاً للمطالب متوقف على اثبات الصانع لأنه ان
لم يكن مشبوتاً مقطوعاً به لا يحصل التصديق بمجئ رسول من لدنه فهذا
المطلب لا يتأتى اثباته بالدليل النقلى عن الرسول عليه السلام لازوم الدور^(١)
الثانى - ما ليس للعقل ولا للحس طريق الى الحكم فيه بإثبات
أو نفي وذلك كل أمر جائز الوجود بعيد عنا بحيث لا تدركه حواسنا
كحكمنا ونحن فى مصر بوجود طاووس فوق سطح الجامع الأموى
بدمشق اذ ليس للعقل طريق اثبات هذا الأمر أو نفيه ولا طريق
لادراكه بالحس لبعده عنا فلا طريق لحكمنا به الا النقل ومن هذا القبيل
الحكم بالبعث والنشور بعد الموت والجنة والنار وما فى الأولى من النعيم
المقيم والثانية من أنواع العذاب وكذلك حال الموقف والبرزخ وغير ذلك
من الأحكام المسميات بالسمعيات

الثالث - ما للعقل طريق الى اثباته أو نفيه ولا يتوقف عليه
الاعتقاد بمجئ الرسول كوحدة الآله وبقائه وسمعه وبصره وكلامه وهذا
يثبت بأحد الدليلين

(١) خلافاً للحشوية القائلين بان الأمرين يعلمان من الرسول دفعة واحدة

بالمعجزة وهم القائلون بعدم الاعتداد بالبرهان العقلى

فلا يصح أن يقام برهان ثقلي في موطن ما تتعين فيه البرهنة العقلية
ولا العكس

ابطال الدور

هو أن يكون الشيء علة لما هو علة له أو لما هو علة لعلته أو علة علة
علته وهكذا. ويسمى الأول صريحاً والثاني وما بعده مضمراً وهو محال
بالبدهة كما قاله الفخر الرازي وقد ينبه عليه بأن العلة متقدمة على معلولها
بمعنى أنه ان لم يتم وجود العلة لا يكون عنها المعلول وهو التقدم المصحح
لقولنا وجدت العلة فوجد المعلول كما تقول وجد الكسر فوجد الانكسار
دون العكس فلو كان الشيء علة لعلته وهي متقدمة عليه ذلك التقدم
لكان متقدماً عليها التقدم المذكور ومعلوم أن المتقدم على الشيء متقدم
على كل ما تقدم عليه ذلك الشيء فيكون متقدماً على نفسه بمرتبتين هذا
إذا كان الدور صريحاً وإذا كان مضمراً كان عدد مراتب التقدم مساوياً
لعدد الأشياء التي ثبت لها وصف العلية والمعلولية

أسباب وجود الشيء

أسباب وجود الشيء - هي جزؤه وشرطه وارتفاع مانعه والتصديق
بالغاية المترتبة عليه والمعدله ونفاعة وصورته التركيبية والأول والأخير لا
يكونان إلا في المركب فالشرط كاستقرار مجموع اللبئات لحفظ الوجود
المفاض عليها والغاية ما يقصد من العمل ويترتب عليه والتصديق بذلك
الترتب هو الذي يبعث عليه والمانع ما يكون حصوله مانعاً منه
كعدم سلامة أعضاء البناء المحركة للبناء والمعد ما يكون موصلاً له

ويجب عدمه عند حصوله كحركة الوصول الى المنزل وحركة يدالبناء
لوضع اللبنة واستقرارها والفاعل هو الذي يفيض الوجود ومجموع هذه
الأشياء يسمى بالعلة التامة

وجوب وجود العلة الفاعلة مع معلولها

وذلك لأنه لو جاز وجود أحدهما بدون الآخر لانفكا عن بعضهما
فلا يكون هذا علة لإيجاده ولا الآخر موجوداً عنه ويبان ذلك أن بين العلة
والمعلول تضاف كما أن الكسر علة للانكسار ودرجة الحجر علة لتدرجه
والعلة مضافة للمعلول وليس المضاف الشيء الكاسر أو المدرج . وما
يتوهم من عدم وجودهما معاً كما في البناء والبناء فبناء التبناس المعد بالموجد
فان حركة اللبنة معدة لاستقرارها واستقرار مجموع تلك اللبنة شرط
يحفظ الوجود الصادر من الواجب فكون المجموع على هذه الحالة شرط في
حفظ الوجود المفاض عليه من الواجب ومثل ذلك يقال في وضع البذر
وصلاحية الارض للنبات فالذي أفاض الوجود على النبات هو الواجب
جل شأنه وكل هذه معدات وشروط . وأنت أرشدك الله ترى من هذا
البيان بعد الامعان أن تلازم العلة والمعلول في الوجود مما لا يحتاج الى برهان
بعد ما فسر الفلاسفة المراد بالعلة الفاعلية بقولهم ان العلم بها يوجب العلم
بمعلولها لأنها شأن من شؤونه وبعد ما ذكره هنا من التضاف ومن
هذا يعلم أن المعلول طور من أطوار العلة ومظهر من مظاهرها كالضوء
السارى في الأمكنة فانه مظهر من مظاهر أصل الضوء في مكانه الأصلي
الخاص به وانما الاختلاف فيه بالشدة والضعف وهذا الاختلاف تميز به

حقائق الموجودات عن بعضها فالاضواء المختلفة شدة وضعفا هي أطوار الضوء الأول ومنبعثة عنه واختلافها بالشدة جعل كلا منها حقيقة مخالفة لغيرها فهي مرتبطة ببعضها في وجودها وتمايزها هذا ما يؤخذ من أقوالهم وان لم يفصحوا عنه هنا حق الافصاح وقد أشار لذلك العلامة صدر الدين الشيرازي في أسفاره الاربعة اذ قال في الكلام على جعل الماهية ما نصه (ان صاحب الاشراق ومتابعيه ذهبوا على وفق الاقدمين من الفلاسفة الاساطين كأغاثاديمون وانباذقليس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون الى ان الواجب تعالى والعقول والنفوس ذوات نورية ليست نوريتها ووجودها زائدة على ذاتها) ولنا فيه كلام بعد ابطال التسلسل

ابطال التسلسل

التسلسل هو ان يستند شيء الى آخر والآخر الى غيره الى ما لانهاية (واذا عاد الاستناد الى واحد من الاغيار المتقدمة سمي دوراً وقد بينا لك استحالته)

استدل الشيخ الرئيس في قسم الالهى من الشفاء على استحالته بالدليل الآتى :

قال اذا فرضنا معلولا له علة ولعلته علة ونظرنا في ذلك وجدنا العلة الاخيرة ذات وصف واحد وهي كونها علة للامرئين اللذين بعدها أحدهما بدون واسطة والآخر بواسطة فليس لهما الا وصف كونها علة واذا نظرنا للوسط وجدناه ذا وصفين وصف كونه معلولا لما قبله ووصف كونه علة لما بعده واذا اعتبرنا المعلول الأول وجدناه له وصفاً واحداً وهو كونه معلولا

للغير فاذن لكل طرف من الطرفين حكم واحد يغير حكم الآخر وهو
المعلولية المحضة لاحد الطرفين والعلية الخالصة للطرف الآخر وللوسط
أمران. ولو كان الوسط كثيراً بقي هذا الحكم فقد علمنا أن الحكم الثابت
للطرفين والوسط لا يتغير وان كثر الوسط أى كثرة كانت فلو فرضنا عدم
التناهي في الماضي وقتنا ان كل علة لما بعدها معلولة لما قبلها الى ما لانهاية
كان ما عدا المعلول الأخير الى ما لانهاية ثابتاً له ما ثبت للوسط فلا
يكون الاحكامان هذا خلاف

قال أبو نصر الفارابي في الاستدلال على ابطاله أيضاً

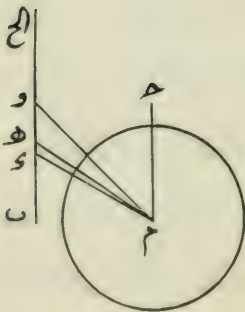
انا اذا نظرنا في سلسلة الحوادث نجد ان كل واحد منها معلول لما
قبله فما لم يوجد لا يوجد واذا فرضنا ان تلك السلسلة ذاهبة في الماضي الى
غير النهاية كانت آحاد تلك السلسلة غير موجودة لان كل واحد منها لا ينال
ذلك الوجود الا من غيره فاذن لا بد من شئ آخر يتوقف عليه وجود آحاد
تلك السلسلة وهو يكون علة لا معلولاً لغيره والا كان مع آحاد السلسلة في
التوقف على الغير فلا توجد وهذا باطل بمشاهدة الكائنات

وبرهن على بطلانه ايضاً صدر الدين الشيرازي في كتاب الاسفار

بما مضمونه

ان بين العلة والمعلول تضافاً كما قدمناه فيجب ان يكون عدد المعلول
وعدد العلة متساويين كما تقضيهِ البداهة فلو فرضنا أن سلسلة الكائنات
الحادثة ذاهبة الى غير النهاية كانت معلولية المعلول الأخير في الطرف
المتناهي مقابلة لعلية الذي قبله ومعلولية هذا مقابلة لعلية ما قبله . وهكذا
فلو امتد الأمر ولم يكن له آخر لما أمكننا الحكم بأن عدد المعلولية مساوٍ

لعدد العلية . وهذا باطل فاذن لا بد من الوصول الى آخر تثبت له صفة العلية دون المعاولية حتى يتساوى العددان وهو المطلوب وفي المقام شكوك وبراهين أخرى كبرهان التطبيق وغيره وخلاف في اشتراط أشياء في هذا البرهان بين الفلاسفة والمتكلمين أضربنا عنها لطولها وشهرتها غير أننا نقول ان ما ذهب اليه الفلاسفة في وجوب وجود العلة الفاعلة مع المعلول القاضي بأنه مظهر من مظاهرها وقول بعضهم في بيان ذلك ان النور ينبعث من مكانه الأصلي الى الأمكنة المجاورة له وان كل نور من تلك الأنوار أضعف مما قبله في الجهة القريبة من النور الأصلي وفرضهم ذلك في الواجب والعقول والنفوس الفلكية قاض بأن إيجاد تلك الأشياء وصدورها انما هو عن الموجد الأول وهو الاله تبارك وتعالى بطريق الإيجاب دون الاختيار تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقد تمحل لذلك بعض فلاسفة الاسلام كابن رشد فأجاز ان يقال ان الخلاق جل شأنه نور يرى بالعين يوم القيامة فانه أطلق على نفسه ذلك قال تعالى الله نور السموات والأرض . وأنت وفقك الله الى الحق تنزهه ربك ذا الجلال والاکرام عن سلب الاختيار الذي هو تقيصة في المخلوق فكيف بالخالق القاهر فوق عباده



تناهي الابعاد

اختلف في تناهي الابعاد فقال قوم بتناهيها وقال علماء الهند بعدم التناهي مع اتفاق الكل على أن الابعاد أمور وجودية خلافاً للمتكلمين

احتج القائلون بالتناهي بأنها لو كانت غير متناهية لا يمكن أن نفرض غير متناه وليكن خط α والح α وكرة β وان الخط β α الواصل من مركزها الى سطحها موازياً لذلك الخط α الح الذي لا يتناهي فاذا حركت الكرة المذكورة الى وضع تزول فيه موازاة الخط β α المفروض فيها للخط α الح زالت الموازاة مع ثبات طرفه β وعدم حركته وصار الخط β α الذي كان منطبقاً على الخط β α قبل الحركة مساماة للخط β α بمعنى انه يتلاقى معه في نقطة ومعلوم انه اذا كان البعد غير متناه وأن هذه المساماة الحادثة لها أول وهو ابتداء زوال الموازاة وأنه اذا كان البعد غير متناه كانت كل هذه الفروض ممكنة وأن الممكن لا يترتب على فرضه محال فكلما كان البعد غير متناه أمكنت هذه الفروض وكلما أمكنت أمكن تعيين هذه النقطة التي هي أول المساماة وتقابل الخطين والتالى باطل فالمقدم مثله أما الملازمة فقد بينها وأما بطلان التالى فلاستحالة تعيين تلك النقطة لان كل نقطة تفرض تكون التي فوقها من جهة عدم التناهي أسبق منها فلزم من فرض عدم التناهي محال فيكون محالاً واذن ثبت تقيضه وهو التناهي وايضاح ذلك أنك ترى ان نقطة المساماة β التي هي نهاية الخط β α المفروض في الكرة نقطة ثابتة ونهاية للخط β α المفروض من جهة المركز ونهاية الخط الذي حصل بحركة الكرة وهو β α المسامات للخط β α الح الذي لا يتناهي وهي رأس الزاوية التي بين الخطين وهي زاوية β α β وأن نقطة المساماة في الخط المتناهي β α هي نقطة تلاقى أحد ضلعيها β α مع الخط β α الح (الذي لا يتناهي) في نقطة β التي هي أيضاً نقطة المساماة في الخط الذي لا يتناهي ومعلوم أن هذه الزاوية يتوهم

تقسيمها الى ما لا نهاية كما نص عليه أقليدس فلو قسمناها الى زاويتين
د ه ه ، ه ه ، لكانت نقطة المسامته في الخط الذي لا يتناهى هي ه
ولو توهمنا تقسيم الزاوية د ه ه الى قسمين د ه ه ، و ه ه لكانت نقطة
المسامته هي و وهي فوق نقطة ه وكذلك لو قسمنا زاوية د ه ه الى
قسمين فظهر من هذا ان لا يتخيل نقطة أولى للمسامته على الخط الخ
مع ان العقل يوافق الخيال في المحسوسات كما هو الحال في المسائل الهندسية
كما بيناه أولاً في القضايا التي يتألف منها البرهان ويسمى هذا ببرهان
المسامته وبعض العلماء فرض الخط الذي في الكرة مسامتاً ثم فرض
تحريكه حتى صار موازياً وقال ان أول نقطة زالت فيها المسامته لا يمكن
تعيينها بل كل نقطة تخيلناها نجد أن هناك نقطة فوقها هي الجذيرة بأن
تكون آخر نهاية المسامته وهكذا فلزم من هذه الفروض الممكنة محال
وسمى ذلك برهان الموازاة فلزم من ذلك استلزام فرض الممكن أمراً محالاً
وهو عدم تخيل تعيين نقطة المسامته أو الموازاة وإما تنهاى الخط الذي
فرض غير متناه وأن نقطة المسامته أو الموازاة هي آخر الخط المذكور
وقد برهن عليه الشيخ الرئيس بأنه لو وجد بعد غير متناه لأمكننا
ان نفرض فيه مثلثاً يكون بعد كل واحد من ساقيه عن نقطة الرأس
مساوياً لبعد ما بينهما فلو فرضناه ممتداً الى غير النهاية لكان بعد كل
واحد من ضلعيه عن رأسه المساوى للبعد الذي بينهما غير متناه من
الجهة المقابلة لرأسه مع انه مساو للبعد الذي بينهما فيلزم ان يكون ما لا
يتناهى وهو ما بين الضلعين محصوراً بين حاصرين وهما ضلعاه وحصر ما
لا يتناهى محال وهذه فروض ممكنة نشأ منها محال وهو أحد أمرين إما

عدم الشيء على فرض وجوده أو حصر ما لا يتناهى بين الحاصرين المذكورين
وسمى هذا برهان السلم وهناك براهين آخر كبرهان الترس والتطبيق فلا
نطيل الكلام بذكرها وإذا أمعنت النظر فيما أسلفناه من الكلام على ما
يتألف منه البرهان علمت أن حكم القوى التخيلية في المحسوسات قطعي
إذا كان على نحو تلك المحسوسات بخلاف حكمه في غيرها أو فيها على نحو
غير النحوي في الأشياء التي تحس ومعلوم أن ما لا يتناهى لا يقع هو ولا
أحكامه تحت الجواس بخلاف المتناهى

استدل القائلون بعدم التناهى بأن ما وراء العالم متميز فان ما يلي
يمينه غير ما يلي يساره بدليل أن ما يلي القطب الشمالى غير ما يلي القطب
الجنوبى وما يميز لا يكون عدماً بل موجوداً وكما لقبوله التقدير بل انه
مقدر فان ما يوازي ربع العالم أقل مما يوازي نصفه فهو مقدر وكل ما
يقدر فهو كم وعلى هذا فما وراء العالم بعد فيكون البعد غير متناه وذلك
مردود لان ما ذكر مجرد وهم من قياس ما لم نحسه على ما أحسنه ومثل
ذلك من القضايا الكاذبة

الوجود

قبل التكلم على معنى الوجود نقول ان أول ما يدرك ويعقل هو
الجزئيات التي تعلم بواسطة المشاعر الخمسة وهذه المشاعر تعد النفس الى
ادراك أشياء مرتبطة بها كالوجود والحقائق التي لتلك المحسوسات سواء
كانت تمام ماهيتها أو جزءاً منها أو عرضاً لها فالمدرك الاول الذي هو
الجزئيات يسمى بالمعقولات الاولى والثانى يسمى بالمعقولات الثانية وتسمى

بالمعقولات الاولى أيضاً بالنسبة الى ما يعترىها من العوارض والبحث عن المعقولات الثانية وما يعترىها من الخواص مقصد صاحب الفلسفة النظرية كما أن البحث عن أحوالها من حيث الوصول الى المجهول التصورى أو التصديق هو غرض الناظر فى علم المنطق . والوجود كما أوضحناه لك من مقاصد الفلسفة ولأجل تحقيق معناه نقول انه قد يطلق على كون الشيء موجوداً فى الخارج وهذا ما نسميه بالوجود الخارجى العام وهو عرض عام لانواع الوجود الخارجى وقد يطلق على حصول صورة الشيء ومفهومه فى الذهن وهذا ما يسمى بالوجود الذهنى العام وهو عرض عام لانواع هذا الوجود وكلاهما من قبيل المشترك المعنوي بين عامة أنواعه وأولهما تحقق معه للوازم الخارجية فانا نجد الاضواء الخارجية لازمة لذوات الاشراق كالشمس والنار والكهرباء بخلاف ثانيهما فانه تسلب فيه تلك اللوازم فان البرودة تسلب فى ذلك الوجود عن الثلج كما تسلب الحلاوة عن السكر الى غير ذلك وهذا أمر وجدانى لا ينكره الا المكابرة

وما تراه لازماً فى الوجودين كالزوجية للاربعة والفردية للخمسة مثلاً فانما هو أمر عارض للمفهوم عرضاً اعتبارياً وهو معه أنى تحقق

وقد يطلق على ما به الشيء هو هو لأن ما هية الأشياء منظر فيها الى أنحاء وجودها (وهذا هو الوجود الخاص) فاذن الوجود والماهية متغايران مفهوماً متحدان ما صدقاً بمعنى ان أحدهما تمام حقيقة الاخر وان اختلفا مفهوماً فان مفهوم الماهية جنسها وفصلها القريان ومفهوم الوجود الخاص ما به الشيء هو هو (اي الجنس والفصل القريان) مرعياً فيهما التشخصى الجزئى اذ هو مسارق للوحدة على ما يأتى (وكل منهما فى

المصدق عين الآخر) لان هذا الوجود لما كان ضعيفاً في الممكن لكونه مستمداً من واجب الوجود اعتراه ما أوجب فيه بعض المغايرة مفهوماً للماهية ويقرب ذلك ما تراه في ترييع الاضواء النافذة الى بصرك من نحو مربعات شباك صيد الاسماك فان تلك المربعات الضوئية في محيطها ظلام فقد غايرت بما اعتراه من الضعف الضوء التام النافذ الى بصرك بلا حائل وعلى هذا سقط ما يقال من انه لو كان الوجود نفس الماهية لكان مساوياً لها في الاحكام واللازم باطل فالمقدم مثله أما الملازمة فيبينة وأما بطلان اللازم فلأن الوجود يسلب عن الماهية ولا تسلب عن نفسها فنقول الخليل الصادق غير موجود ولا تقول الخليل الصادق ليس بخليل صادق ولأن حمل الوجود على الماهية مفيد بخلاف حملها على نفسها. فمن المفيد أن تقول الجبن موجود دون أن تقول الجبن جبن ولأن اثبات الوجود للماهية كسبي يحصل للنفس بالبرهنة عليه فلا يحصل لك التصديق بوجود حياة ثانية الا بعد أن تبرهن أو يبرهن لك عليها بخلاف ثبوت تلك الحياة لنفسها ولأن معنى مفهوم الوجود في الانسان والفرس والجمل واحد مع تخالف ماهيات وحقائق كل واحد منها بالنسبة للآخر ولأننا قد نعقل الماهية ولا نعقل وجودها الخارجي أو الذهني وان كان هذا الاخير حاصلًا بالتعقل والتصوّر الا أننا نعقل عن تصور هذا التصوّر الذي هو الوجود الذهني

وكل ما ورد من هذه الشكوك على كون مفهوم الوجود عين مفهوم الماهية يرد على كونه جزءاً من مفهومها وان لم يقل به أحد لان جزء الشيء لا يسلب عنه واثباته له غير كسبي وغير مفيد وتصوّر المركب بدونه

لا يتحقق كما هو الحال في الشكوك الخمسة ما عدا الرابع وقد ظهر لك من تحقيق معنى الوجود ردها لاننا قلنا انه متحد معها ما صدقا وان اختلفا مفهوماً ومعلوم أن هذه الشكوك لا ترد تقضاً على الشئيين المتحدين في الماصدق دون المفهوم وعلى هذا فالوجود بالمعنى الثانى أمر عيى مساو للماهية بخلافه على المعنى الاول لما تقدم من بيان معنى الوجود الخالص وابطال أدلة الرادين على العينية اذ بعد هذا يكون ثبوت العينية له بديهيّاً وبنبه عليه بما استدل به الاشعري من أنه لو كان غير الماهية لكانت اذا اعتبرت مجردة عنه عدماً محضاً فاذا اتصفت به لزم اتصاف العدم بالوجود وهو محال وبأن الوجود أمر ثبوتى فيقتضى أن تكون الماهية التى يقوم بها ثابتة لأن ثبوت شئ لغيره يقتضى ثبوت ذلك الغير هذا خلاف . ونقض هذا خطأ نشأ من اعتبار الوجود العام دون الخاص على ما عرفت

ومن هنا تعلم أن الخلاف في الوجود أهو عين الماهية في الممكن وغيره كما ذهب اليه الأشعري أو عرض عام الماهية في الممكن وغيره كما ذهب اليه بقية المتكلمين أو هو عين الماهية في الواجب مغاير لها في الممكن عند الحكماء ^(١) مبنى على عدم ايضاحهم المعنى الذى أريد من الوجود

(١) واستدلوا عليه بأنه ان لم يكن عين الواجب لكان صفة له فيكون ممكناً لاحتياجه في وجوده الى غيره ولا يجوز ان تكون علتة سوى واجب الوجود ومعلوم أن العلة متقدمة على المعلول فيكون الوجود متقدماً على نفسه كما تقدم في الكلام على الدور أو يتسلسل ولا يعارض هذا الدليل بأنه يرد في وجود الممكن مع قولهم بأنه غير الماهية فيه وبيانه أن نقول لو كان الوجود غير الممكن لكانت ماهية ذلك

ولما كان الحكماء قائلين بأن الباري جل شأنه هو الوجود المحض
الواجب وأن كل صفاته عين ذاته فهو عالم بنفسه وقادر كذلك كما أن
الضوء مضيء بنفسه وأن ذلك نهاية الكمال وأنه واحد من جميع جهاته
ليس له جهة تعدد مطلقاً قالوا ان وجود الخالق جل شأنه هو عينه فبعد
أن يبين ذلك بياناً لا لبس فيه يكون اثبات الوجود له عز شأنه أمراً
بديهياً لا يحتاج الى برهان لأن ثبوت الشيء لنفسه من الضروريات
وما يذكر من الأدلة لذلك انما يكون من قبيل التنبيه ولنا كلام في ذلك
نبيه في الالهيات ان شاء الله تعالى

الوجود الذهني

اعلم أن الحواس الخمسة مظاهر لادراك النفس المحسوسات واتزاعها
منها أموراً مشتركة بين أفرادها المختلفة مثل الانسان المنتزعة حقيقته من
أفراده الجزئية المدركة بتلك الحواس وهذا المشترك المنتزع ليس موجوداً
في الخارج بل الموجود فيه جزئى خاص وكذلك القوى الباطنية كالخيال
فانها مدركة للحقائق التي لم تنل حظ الوجود الخارجى وهى مظاهر لادراك
النفس اياها وكلاهما من الأمرين هو الوجود المذكور وعلى هذا فالوجود

الممكن متقدمة على وجوده لانها قابلة له والقابل متقدم على المقبول وكذلك الحال
بالنسبة للاجزاء المقومة المركب لانا نقول انه يشترط فى القابل الخلو من القبول
لا الوجود بخلاف العلة فإنه يشترط فيها سبق الوجود لأن وجود العلول لا يكون
عنها إلا اذا كان لها الوجود فى نفسها وكذلك المقوم لا يشترط فيه سبق الوجود
عن المقوم

الذهني عبارة عن حصول صورة ذهنية لدى المدرك وتلك الصورة هي حقيقة المعلوم من حيث ظهورها الظلي الذي لا يترتب عليه أثرها المقصود منها. اذا فهمت هذا فاعلم أن قد اتفقت كلمة جمهور الحكماء على اثبات ذلك الوجود الذهني الظلي

قالوا في الاستدلال على دعوائهم انا نتصور معدوم الوجود في الخارج بل مستحيله كشرية البارى واجتماع النقيضين وارتناعهما ولا تصور الأ بمميز يميز الشيء المتصور عما عداه حتى يقال علمه دون غيره ومعلوم أن المميز لا يكون إلا للأمور الوجودية دون العدمية لأن ثبوت المميز للشيء فرع عن ثبوته في ذاته ولما كان غير ثابت في الخارج تعين أن يكون له ثبوت آخر وهذا ما نعينه بالوجود الذهني الظلي

وقالوا في اثباته أيضاً ان كل فاعل انما يفعل لغرض وغاية وحكمة يتصورها قبل الاقدام على ذلك الفعل وهي غير موجودة خارجاً قبل الاقدام واتمام الفعل بل قد لا توجد بعده ولو كان لها وجود قبل الاقدام لكان ايجادها بعد الفعل تحصيل حاصل واذا كانت قبل الفعل لانصيب لها من التقرر كانت عدماً محضاً فلا تبعث الفاعل على الفعل فتعين أن يكون لها حين التصور قبل ايجادها بالعمل نوع من التقرر والثبوت وهذا ما نسميه بالوجود الذهني كيف وحركات عامة الحيوان انما تكون بتصوّر تلك الغايات ألا ترى أنك قد تهتز فرحاً لمجرد تصورك الوصول الى ما يلائمك ويمتلىء فؤادك رعباً وجزعاً عندما تتصور قرب وقوع فادحة بك وتعتريك وُشْعْريرة عند ما تدرك شيئاً تشمئز منه نفسك ولا يرد على هذا ما قالوه من أن للطبائع غايات في أفعالها الطبيعية كميل جذور النبات الى

جهة الماء وصولاً الى الرىّ الذي هو من أسباب النمو وانحرافها في الصعود عن الجدران التي تعوقها عن نمائها الطبيعي واحرازها لب الفواكه بين الاوراق التي تصونها عن المتلفات وكثرة الاوراق الحافظة لها من الآفات لاننا نقول ان لها شعوراً على قدر ذلك ويقال مثل هذا فيما يصدر عن النحل والنمل من التدبير فان لأنواع النبات والحيوان شعوراً وادراكاً يناسبها كما أن لها حياة كذلك فانهم عرفوها بانها صفة تصحح لمن قامت به العلم والادراك غير أن تلك الحياة تكون على نسبة العلم قوة وضعفها وأن ذلك الشعور النباتي والحيواني ليس شعوراً يؤدي الى استنباط المجهولات من المعلومات بواسطة التعاريف والأقيسة ولو كان بها أكثر مما في الانسان أو مماثلاً له لما استخدمها في حاجه وانكار ذلك مكابرة لانحفل بدحضها

أنكر جمهور المتكلمين الوجود الذهني واستدلوا على ذلك بأنه لو كان للأشياء وجود ذهني لكات موجودة فيه خواصها معها فيحترق محل تصور النار من المخ وكذلك يبرد محل تصور الثلج وهكذا (وهذا معلوم الرد مما بيناه سابقاً في الوجود المذكور) وبأننا نتصور أشياء عظيمة جداً لا تسعها قواها العقلية كالجبال العظيمة والصحارى المترامية الأطراف والأشجار الضخمة ولو كانت صورها في الذهن لزم المحال وقد علمنا مما سبق أن الذي في الذهن ليس هو^(١) تلك الهويات الخارجة باشباحها المعروفة بل الذي فيه هو صورتها من حيث ظهورها الظلي الذي

(١) يفهم من أدلة كل أنهم متفقون على أن تصور الشيء لا يترتب عليه آثاره الخارجية وان كلا منهما لا ينازع الآخر فيما يقول وانما النزاع في تسميته وجوداً فتأمل

لا يترتب عليه خاصة من خواصها الخارجية من حرارة أو برودة أو كبر حجم أو صغره

أنواع الادراك

اعلم أن أنواع الادراك أربعة الاحساس والتخيل والتوهم والتعقل فالاول — (وهو الادراك باحدى الحواس الخمسة الظاهرة التي هي السمع والبصر والذوق والشم واللمس) يشترط في مدركه ثلاثة أشياء الأول حضور مادته عند آلة الادراك التي هي احدى الحواس المذكورة الثاني ان تكتنف به هيأته ككونه في زمان ومكان مخصوصين ونسبة أجزائه الى بعضها ونسبتها الى الاشياء الخارجية ككونه أمام كذا أو وراءه وتجاه كذا وفوق هذا وتحت ذلك ولونه كذا أو طعمه الى غير ذلك من الكيفيات الثالث كونه جزئياً . والحاصل بالذات منه في حاسة الادراك صورته لا نفسه أما الأول فلأنه ان لم يحصل في آلة الادراك أثر مخصوص عند الادراك بالفعل لكان هذا الادراك الفعلي مساوياً للادراك بالقوة وأما الثاني فلأنه ان لم يكن ذلك الحاصل صورة المعلوم لما علمناه دون سواه غير أن تلك الصورة مجردة عن مادة المعلوم الخارجية من الطول والعرض مثلاً الخاصين بها بل عارية عن لوازمها الخارجية والألماً يمكن العين أن تبصر الجبال الشاخنة والمسافو الشاسعة ومع هذا فصورة المعلوم غير متجردة عند القوة المدركة تمام التجرد

الثاني — (وهو التخيل) ادراك لذلك الشيء الذي من شأنه أن يَحْتِ وَيَشْتَرِط فِيهِ الشَّرْطُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ اللَّذَانِ تَقْدَمُ ذِكْرُهُمَا فِي ادْرَاكِ

الحس فلا يكون فيه ذلك المدرك الجزئى بهيئته حاضر المادة لدى تخيله بل لا بد من فقدان هذا الشرط

الثالث - (وهو التوهم) ادراك معنى جزئى بسبب اضافته الى جزئى محسوس كادراك الشاة عداوة الذئب وادراك شخص مخصوص محبة آخر له ولا يشترط فيه الا الشرط الثالث المتقدم ويجب فيه عدم تحقق الشرطين الأولين

الرابع - (وهو التعقل) ادراك الشئ من حيث ماهيته وحدها مع قطع النظر عما معها من الشخصيات سواء كانت مدركة وحدها او مدركاً معها شئ من صفاتها الكلية فكل نوع من هذه الأنواع فيه تجريد أكثر مما قبله كما علمت من البيان السابق هذا كله بانسبة للاشياء ذوات المادة والتشخص الخارجى وأما ما ليس كذلك كالمجردات فان النفس تعقلها بدون واسطة واحتياج الى التجريد

الوحدة

هى كون الماهية مشخصة تشخصاً مميزاً لها عن جميع ما عداها فهى مساوية للوجود الخاص واذا تشخصت بشخصيات عديدة بحيث كانت مع كل واحد من تلك الشخصيات جزئياً مغايراً للجزئى الآخر الذى هو بالتشخص المغاير للتشخص الاول وهكذا سبى الجميع كثرة وقد تطلق الوحدة على الكثرة بالاعتبار والقياس الى ما هو أعظم منها كثرة كالعشرة فانها ليست ذات وحدة حقيقية بل ذات كثرة ولكن تعتبر وحدة للمئات والكثرة عرضت لها من حيث انها جملة وحدات

وفي هذا المبحث كلام طويل قليل الجدوى لا حاجة لنا بذكره هنا

واجب الوجود جل شأنه

اعلم أيها الناظر في كتابنا هذا أرشدك الله الى طريق الفلاح أن الشريعة الاسلامية جاءت عامة للناس كافة ومن بينهم الجاهل الذي لا يعرف صناعة البرهان واذا حمل على ذلك عسر عليه ولم يكن في طاقته الاهتداء الى مسالك الضيقة ومزالقه الصعبة فحمله على ذلك تكليف بما فوق الوسع والطاقة قال تعالى لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . فوجب اذن أن تكون دعوتها العامة الى التصديق بما جاء فيها والعمل بما اشتمت عليه مما لا يتعذر أو يتعسر ادراكه على كل فرد من الافراد الذين شملتهم دعوتها وذلك لا يكون الاً بالادلة الاولية على ما فيها من المعتقدات وبيان المنافع الظاهرة المترتبة على الاعمال التي أوجبتها عليهم أو نذبتها لهم والمضار الناشئة عن الافعال التي نهتهم عنها مما هو مشاهد لديهم أو مقاس عليه أو مركزوز في فطرتهم

واما التعمق في الادلة وتقصى البراهين في الاثبات والبيان فليس مما قصده الشارع الشامل شرعه لمن ليس في استطاعته ادراك غير المحسوس وتصديق ما ليس مألوفاً وهو الصنف الكثير من الناس ولذوى الافكار الثاقبة النفاذة الى ادراك المألوف وغيره بمنظار البرهان النافذ الى ادراك ما وراء ذلك وان لم يكن له مثال مما يشاهد لان هذا سبيل من عانى الصناعة البرهانية وعرفها حق المعرفة فلم تذهب به في

الطريق الجائر الذي غاية ايباق وهلاك بمخالفتها

اذا علمت هذا قلت لك ان الذين بحثوا في هذا المقام سلكوا مسالك متعددة وكلها دلائل وبيانات لا تصل اليها أفكار غالب من كلفهم الشرع بتصديق ما أوجب عليهم تصديقه وفهم المرغبات فيما أمروا به والمرهبات فيما نهوا عنه وعلى هذا فالاجدر بنا أن نسلك في بحثنا هذا المحجة البيضاء كي نستطيع سلوكها كل واحد من آحاد أمة الدعوة المحمدية قياماً بما يقتضيه ظاهر الشريعة المطهرة ولذلك طريقان الاولى طريق العناية والثانية طريق الابداع والاختراع

الكلام على الطريقة الاولى

هي مبنية على العناية بخلق الانسان واتقان صنعه وعلى خلق الاشياء المغايرة له على طريقة تناسبها وتناسب وجوده ونموه وفوائده والدليل في هذه الطريقة مترتب على مقدمتين بسيطتين اولاهما أن خلقة الانسان جاءت على الوجه الاكمل مع ما يناسبها من خلق سائر العالم على الوجه الذي هو عليه ثانيهما أن ما هو كذلك يكون صادراً عن موجد قادر عالم أما القضية الاولى فاننا نرى أن لكل عضو من اعضاء الانسان عملاً نافعاً يتوقف عليه حصول الغرض المقصود من الانسان وأن له ارتباطاً بتأدية عضو آخر عمله ألا يرى أن حدة الابصار مكوّنة من أجزاء متعددة موضوعة بنظام خاص بحيث لو زال هذا الوضع لتعدد المبصر لدى العين ووصل الى خزنة تلك الحاسة متعدداً وقد قيل ان بعض الناس بانكثرتا كان يرى القمر الواحد خمسة عشر قرراً وكذلك

جميع ما فيها من الاعصاب الناقلة لصورة المبصر الى الدماغ كاتحاد
الجليدتين في كل من الحدقتين وصيرورتهما جليدة واحدة ولو لم يكن
كذلك لشوهد الشخص المبصر شخصين كما يحصل للاحول على ما مثل
به متقدمو الفلاسفة وكذلك الجلد الذي يغطي بالارادة تلك الحدقة عند
قصد عدم الرؤية أو قصد وقايتها من الطوارئ الضارة والهدب الذي له
دخل في الوقاية المذكورة الى غير ذلك من الفوائد وبالجملة ان شرح فوائد
الاعضاء ومجيئها على غاية من الاحكام والاتقان وارتباط بعضها ببعض مما
يحتاج شرحه وايضاحه الى كلام طويل والمزاولون للمعلوم المتعلقة بحال
تكوين الانسان وما لجميع أعضائه من المنافع والاعراض التي تقصد منه
وما لبعضها من الارتباط في تأدية البعض الآخر العمل المنوط به على
وجه الاحكام يعرفون ذلك على وجه أدق وأكثر ولا يسعهم الا القول
بان بيان ذلك يستدعي كتباً مطولة على أنه لا يزال المجهول من ذلك
كثيراً وكلما بحثوا بدا لهم شيء منه لم يكن معلوماً لهم قبل ولا تزال
الابحاث تظهر ما كان خفياً ما دام النظر والتنقيب على تعاقب الازمان
يدلنا على ذلك المعلومات التي يقف عليها الباحثون في الازمان المتتالية
فسبحان من لا تحيط العقول بحكم صنعه وأما خلق العالم على وجه مناسب
له وللغرض المقصود منه فظاهر من خلق الشمس والقمر وغيرهما من
الكواكب ونظام حركة الجميع والليل والنهار وفصول السنة الاربعة
والارض وحجمها وحركتها المنتظمة انتظاماً لا يحس معه بيده النظر الا
بكونها قارة ساكنة وصلاحها باوضاعها المخصوصة وما فيها من المعادن
ووسائل الدفء ومواد تغذية النبات ومواءمة درجة حرارتها الى حياة

الانسان وكذلك الامطار والأنهر الجارية والينابيع والآبار وموافقة الهواء للطيور والماء للاسماك والآجام والجبال الخالية من السكان لانواع الحيوان المفترسة وبالجملة كل ما خلق في الكون اذا تأملته وجدته خلق على حال تناسبه وفي مكان كذلك ومساعداً على تكوين الانسان أو بقاءه على حاله التي قصدت منه وشرح ذلك شرحاً وافياً لا يتم إلا للباحث في علوم هذه الاشياء ولذا كان أكثر وقوفاً على الدليل المذكور

وأما القضية الثانية فلأن من يجد مصنوعاً على الوجه الذي قصد منه بحيث انه روعي في صناعته ذلك الغرض حق المراعاة يحكم لأول نظرة أن صانعه قادر على ايجاده على ذلك النحو وانه عالم بكيفية صنعه واحكامه وصولاً الى الغرض المذكور وأن ذلك المصنوع لم يحصل بطبيعته كيف وقد يعتريه الفساد أو التغير بعد ذلك من حال الى أخرى وما بالطبع لا يتخلف وأنه لم يكن كذلك من قبيل الصدفة وان قدرة موجدته على هذه الحالة فوق القدر البشرية وغيرها من قدر الممكنات وأن له علماً أوسع فان العالمين المعتمنين بالابحاث لم يصلوا الى الآن الى كل أسرار ذلك وله وجود أرقى وأكمل من الوجود البشري والمنكر لذلك مكابر لا تحسن مجادلته

أست تجزم اذا رأيت كرسياً موضوعاً وضعاً مخصوصاً يتمكن فيه الجالس من الوصول الى الغرض المقصود من الجلوس أن هذا الكرسي صنعه صانع لهذا الغرض وأنه قادر على ذلك عالم بكيفية صنعه الموصلة الى الغرض المقصود من الجلوس عليه واذا رأيت على غير هذا النحو حكمت بأن وجوده هكذا على سبيل الصدفة أو أن صانعه عاجز أو جاهل بصنعه

الموصل الى الغرض المقصود وهذا من الاوليات المركوزة في طباع البشر وهم الذين دعيتهم الشريعة الى التصديق بما جاء فيها . ويراد الشكوك على هذا الدليل مكابرة فيما تألفه الطباع وترضاه العقول فمثل المشكك في ذلك يقرب من مثل الذين قال الله تعالى فيهم ذاماً لمكابرتهم في الحق (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون)

الكلام على الطريقة الثانية

هذه الطريقة مؤسسة على قضيتين كلتاهما مغروسة في الفطر والطباع اولاهما ان الكائنات مخترعة وثانيتها ان كل مخترع له مخترع قدير عليم أما كون الكائنات مخترعة فلما نراه من ان انواع الجماد والنبات تصير كائنات حياً كما هو ظاهر في تكوين الانسان وغيره من انواع الحيوان فان ذلك يدل على ان الحياة مخترعة في تلك الاشياء اى كانت بعد ان لم تكن وأما الثانية فظاهرة لأن ذلك لو كان لطبيعة تلك الاشياء لما تخلف عنها ولو كان من قبيل الصدفة لما كانت انواع الجماد والنبات على نظام خاص فبان من هذا ان لهذا العالم مخترعاً عالماً قديراً مريداً

وبعض الناظرين في هذا المقام الذين سلكوا الطرق الغامضة التي ليست من مقاصد الشريعة في شئ قسموا المعلوم الى واجب وهو ما كان وجوده ليس آتياً من غيره وهو الله جل شأنه والى ما ليس كذلك بان يكون وجوده من غيره ان وجد وسموه بالممكن أو بأن لا يتأتى وجوده وهو المستحيل وثانى الاقسام هو العالم وبرهنوا على وجود الاول ببراھين

كثيرة منها أنه ان لم يكن لهذه الممكنات موجد واجب لزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطل كما قدمناه فما أدى إليه باطل فثبت أن الممكن موجداً واجب الوجود وهو المطلوب وقد علمت مما أشرنا إليه سابقاً أن دليل ابطال التسلسل لا يخلو من شكوك وأنه بعيد الإدراك عن الذين لم يعنوا بالبراهين وأن مطالب الشريعة شاملة لهم وللخواص الذين مارسوا صناعة البرهان ولذا عولنا في الاستدلال على الطريقتين السالفتين وقد أرشدنا إليهما ما جاءت به الشريعة المصطفوية فإن كثيراً من آي القرآن الكريم تشير إليهما قال الله تعالى في الانسان منبهاً على الطريقة الأولى (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين وهديناها النجدين) وقال أيضاً (خلق لكم ما في الارض جميعاً - ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم ثباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وحنات الفافا - قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون - قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين - تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً - فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شققاً فأنبتنا فيها حباً وعبقاً وقصباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم) وقال تعالى (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم والخليل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما

لا تعامون) وقال منبهاً على الطريقة الثانية (فلينظر الانسان مِمَّ خلق خلق
من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) - أفلا ينظرون الى
الابل كيف خلقت الخ - يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين
تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له - انى وجهت وجهى
للذى نظر السموات والأرض حنيفاً - وقال منبهاً عليهما معاً (يا ايها
الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل
لكم الارض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات
رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) فان قوله تعالى (الذى خلقكم
والذين من قبلكم) تنبيه الى دليل الاختراع وما بعده ارشاد الى دليل
العناية وكذلك قوله تعالى (واية لهم الارض الميتة احييناها وأخرجنا منها
حباً فمنه ياكلون وجعلنا فيها جناتٍ من نخيل وأعناب) ومثل ذلك
قوله تعالى (الذين يتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت
هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) فلو كان غير هاتين الطريقتين
أحسن منهما مسلماً لاشار له الشارع فاما ارشاد اليهما علمنا انه لا ينبغي
سلوك سواهما لما قدمناه ولان الذين سلخوا غير ذلك من الحكماء
والمتكلمين تخبطوا فى سيرهم وما وصلوا الى قصدهم لعنايتهم ببيان غوامض
الاشياء البعيدة عما هو فى الفطر واعتدادهم بدحض الشكوك الواهية
فوقعوا فى بحر لحي لم يستطيعوا الخروج منه فالأجدر بالسالك فى هذا
المقام الأيطوح بنفسه فيما تنبو عنه العقول مجانباً ما أرشده اليه الشرع
الشريف وعامة الكتب السماوية والله يهدى من يشاء الى طريق مستقيم
أيها الأخ فى الله قد وضع لك مما قلنا وجود اله قادر مريد عليم

غير أنك محتاج لحل ما سوف يرد عليك في مجموعنا هذا من إيضاح غوامض مسألة القضاء والقدر الى زيادة بسط وإيضاح في صفة علمه جلّ شأنه فاعلم هداك الله الى اتباع طريقة الفرقة الناجية التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أن الشريعة الغراء لم تأمرنا بالبحث عن حقائق صفات الاله عزّ شأنه وعن كونها عين ذاته أو غيرها أو ليست عيناً ولا غيرا كما خاض فيه القوم وصار مزلقة للأفهام لما قلناه من أنها انما جاءت بالسمة السهلة وهي العقائد الواضحة التي نبهت على اعتقادها بالأدلة السهلة المركوزة في طباع أمة الدعوة وحضت على الأعمال الجالبة للرق والسعادة فلا تطوح بالمطالع الى تفصي براهين الحكماء والمتكلمين وغيرهم مما لم تأمرنا به شريعتنا المطهرة غير أنا وجدنا كثيرا من الناس خاضوا في مسألة القضاء والقدر وتعدوا حدود الله فرموا الشريعة بما رموها وما ذلك إلا من انحراف أحلامهم وعدم وصولهم الى أغراضها وانا وان كانت شريعتنا ذهبت بنا الى الاعراض عن الخوض في هذا الخضم المظلم الذي لا يأمن السابح فيه من الغرق وعدم الوصول الى شاطئ السلامة رأينا أن نعتصم فيه بركوب سفينة النجاة راجين بأن يعصمنا القادر العليم مما وقع فيه غيرنا وما حملنا على الولوج في هذا المعبر الحرج إلا ما رأيناه من شغف كثير من أبناء هذه الأمة بمعرفة الحق الواضح في ذلك وأن تركهم وشأنهم مجلبة الضلال فانهم لا يباليون بالقدح والطعن والاعتراض على ذلك حتى اذا رجوتهم الاعراض عنه كما تقتضيه الشريعة زادوا في اللجاج والاعتراض ومعلوم أن للوسائل حكم المقاصد فاذا كانت وجهتنا فيما نقول ارشادهم وازالة ما لصق بقلوبهم سوغ لنا الشارع

أن تتكلم في هذا الموضوع متمسكين بحبل الله الذي لا يضيع من استمسك به وقد عزمنا بعون الله على الكلام فيه بعد انتهاء مبحث الرسل عليهم الصلاة والسلام وقد تكلم أبو الوليد حفيد بن رشد على ذلك المبحث ووفاه حقه ولكن بحثه فيه جاء ناقصاً لأنه وإن أجاد القول احكاماً وترتيباً وتهذيباً في صدور أفعال الانسان وبين وجه كونه مختاراً وأبان ترتب الثواب والعقاب على الأعمال إلا أنه أهمل الكلام على مسألة علم الله بتلك الأفعال وبيان ان كان ذلك العلم موجباً لحصول الفعل أو لا فبقى بيانه مبتوراً غير مقنع لمن طالعه من أولئك القوم وكثيراً ما أحلنا بعض المتحيرين في هذا المبحث على مطالعة ما كتبه فقرؤه وعادوا وعادت معهم الشكوك فلذا رأينا أن نذكر شيئاً من ايضاح معنى علمه جل شأنه لأن له فائدة في بيان ازالة غوامض ذلك الموضوع كي نحيل المطالع عليه عند البحث فيه ان شاء الله تعالى

لعلك تعلم أيها الحبيب أن علم الله جل شأنه ليس كعلمنا أنت تعلم الحوادث التي تحصل في الحال ولا تعلم ما أكنه المستقبل إلا اذا جاء وحصلت فيه تلك الحوادث فاذن لا تبصر ولا تسمع ولا تشم الحادث الزماني قبل أن يصل اليك الجزء الا-تقبالي من هذا الامتداد الواقع فيه ذلك الحادث ويكون حالياً بعد ان كان استقبالياً ثم تتعقله كما أسلفناه لك في الكلام على مراتب الإدراك وليس هذا شأنك وحدك في ادراكك بل هو شأن كل حادث زماني يدخل تحت حيطه الزمن فلا يدرك من حوادثه إلا ما يمر عليه ويسمى قبل المرور حادثاً استقبالياً وعنده حالياً وبعده ماضياً وأما من ليس زمانياً فلا يدخل تحت حكم الزمن وحيطته

بل يعلم كل الحوادث في أزمانها وكذلك أطوار الشيء الواحد في الأزمنة المختلفة فإن تعلم التراد وقت كونه ثماداً ثم تعلمه بعد ذلك نباتاً ثم بعد ذلك حباً ثم خبزاً ثم دماً ثم نطفة ثم علقة ومضغة ثم جنيناً وهكذا في جميع أطواره ولم تبصر هذه الأطوار دفعة واحدة لأن كلاً منها واقع في جزء من الامتداد الزماني فلا تراه إلا إذا مر أمامك ذلك الجزء بخلاف العالم الذي ليس بزماني ولا داخل تحت هذا الحكم فإنه يعلم ذلك الشيء بأطواره المختلفة مرة واحدة ولنضرب لك مثالا في المشاهد كي تقيس عليه الغائب تقريباً لعقلك كما ضرب الشارع الامثال على هذا النحو في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وكذلك رسوله عليه السلام في كثير من الأحاديث الشريفة تقريباً للفهام فإن الناس انما يفهمون بما يألفون^(١) اذا فرضنا خيطاً يبلغ طوله نحواً من الف متر تقريباً وكان لون كل مائة متر منه غير لون مائة متر أخرى ومددنا تلك المسافة ووضعنا شيئاً

(١) قال الله تعالى يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقده منه وقال تعالى مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم وقال عليه السلام في فضل من علم وعلم فيما رواه ابو بردة عن أبي موسى مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشرّبوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به

ضيق الحدقة كالنملة مثلاً أمام أحد طرفيه فانها لا تبصره ملوناً بلون الأ
بلون المائة الأولى فاذا جر أمامها الخيط الى أن قاربها المائة الثانية فانها
تدرك لونها وهكذا واذا أبصر انسان سليم الحدقة ذلك الخيط من عند
أحد طرفيه فانه يدرك هذه الالوان المختلفة دفعة واحدة فهذا الخيط
الممتد شبيه بالامتداد الزماني كما أن النملة كالعالم الزماني الذي حكم عليه
هذا الامتداد الطويل فلم يبصر الا بعضه الملون باللون الخاص به
والانسان ذو النظر العالي عن نظر النملة لم يحكم عليه هذا الامتداد بحصر
حسه في جزء خاص منه كاخارج عن حكم الزمان وحيطته فمن هذا يضح
لك أن العالم جل شأنه أذى لا أول ولا نهاية له وهو خالق كل شيء وأنه
ليس في زمان (لان الزمان اما مقدار حركة الكوكب أو أمر توهمي هو
مقارنة متجدد موهوم لمتجدد معلوم والله خالق الكوكب وحركته)
لا تسرى عليه الاحكام الزمانية فليس عند ربك ماض ولا مستقبل
وهذا سر ما سمعت في مباحث النجوى الابتدائية من أن الفعل اذا أسند
الى الله تجرد عن الزمان

لا إخالك الا قد عرفت أن العالم ما زال ولا يزال كما علمه ربك وأنه
لم يتغير عن تلك الحال في جميع أطواره فعلى هذا الله عالم بالعبد وبجميع
أطواره لانه حاضر لديه بهذه الاحوال فالله عالمه نظفة وعلقة وطفلاً
ويافعاً وشيخاً وهرماً وهكذا وعالم بالقدره والاختيار اللذين منحه ايها
وأنه أساء استعمالهما أو أحسن كما بين له فعلمه بذلك تابع لتلك الاحوال
اذ من المقرر أن العلم تابع للمعلوم فعلمه اياه على هذه الحال تابع لكونه
يكون كذلك لا أن العلم هو الذي أوجب عليه ذلك الأمر ومعلوم أن

العلم الصحيح يكون مطابقاً للواقع لا محالة فلا بد أن تكون أحوال العبد وأطواره على وفق العلم لكونه علماً حقاً لا أن العلم هو الذي اقتضى ذلك ويقرب لك هذا ما يحصل كثيراً فيما نشاهده وهو أن السيد قد يسلم مفاتيح داره لبعض خدمه ويقول ان سرقت أعاقبك بكذا وكذا ويعلم انه لا بد له من السرقة أو يعلم انه أمين غير سارق فاذا حصل منه الاول كان عامه حقاً وهذا العلم مع كونه حقاً ليس مجبراً للخادم على السرقة وغير مانع من العقوبة كما أن الحال في الفرض الثاني (وهو عدم السرقة) كذلك ولو كان عامه تعالى ذلك جابراً للعبد على الفعل أو الترك سالباً لاختباره لما ذمه على فعل المحرم ومدحه على فعل الواجب ألا ترى انه عزّ شأنه ذم القائلين ذلك بقوله (وقالوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا أبأؤنا) وكذلك ما ورد في صحيح البخارى مما معناه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى منزل على كرم الله وجهه وطرق الباب فوجده وفاطمة نائمين فقال ما منعكما أن تقوما فقال على رضى الله عنه ان أنفشنا بيد الله ان شاء أرسلها وان شاء لم يرسلها فتركهما عليه السلام وولى مغضباً يضرب بيده على فخذه ويقول لا إله الا الله وكان الانسان أكثر شياً جدلاً

هذا وما قيل في تقسيم العلم الى قسمين أحدهما انفعالى وهو حصول صورة المعلوم فى الذهن وان هذا هو التابع للمعلوم وثانيهما فعلى وهو تصور ما لم يكن موجوداً ثم يجاده فى الخارج على وفق تلك الصورة وفى هذا المعلوم تابع للعلم على عكس القسم الأول فان هذا خاص بعلم الحادث الزماني أما علم القديم واجب الوجود فليس على هذا النحو بل على حسب البيان الذى ذكرناه وإنما أطلنا فى هذا المقام وبيناه البيان الذى يستطيع

مع صعوبة ادراكه لدى الجمهور الذين لم يعتادوا تصور مثله قياماً بجمل
الشكوك التي نوهنا بها

الوحدانية

اتفقت الطوائف كافة على وحدانية الخالق جل شأنه ما عدا الثانوية
فانهم خالفوا في ذلك وقالوا انا نجد في العالم خيراً كثيراً وشرّاً كثيراً وأن
الواحد لا يكون خيراً شراً بالضرورة فتعين أن يكون الاول موجد وهو
النور والثاني موجد آخر وهو الظامة وما ذهبوا اليه مردود بأنهم ان أرادوا
بما قالوه أن الواحد لا يصدر عنه خير كثير وشر كذلك قلنا هو غير ممنوع
بالضرورة وان أرادوا به أن الواحد لا يكون غالباً خيره على شره وشره
على خيره فان ذلك هو معنى الخير والشرير سامناهُ وقلنا ان كل ما في
الوجود خير بهذا الاعتبار

ومنهم المانوية والديسانية والمزدكية والمزقيورية والكنيوية أما المانوية
فهم أصحاب ماني الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير بعد ما
بعث عيسى عليه السلام وقتله بهرام بن هرم بن سابور ومن شريعتهم
انجاب أربع صلوات في الليل والنهار وتخريم الزنا والقتل والسرقه والكذب
والسحر وعبادة الأوثان وغير ذلك ويعتقدون الشرائع والأنبياء وأن أول
من بعث بالحكمة والنبوة آدم عليه السلام ثم شيث ونوح وابراهيم عليهم
السلام وزرادشت والمسيح صلوات الله عليه ومحمد صلى الله عليه وسلم
عند متأخريهم الذين كانوا بعد بعثته عليه الصلاة والسلام ويقولون ان
للخير آتاهما وهو النور وللشر آتاهما وهو الظامة وكل منهما قديم وأما

الديسانية فهم أصحاب ديضان وهو من أتباع ماني وقد خالفه في بعض
أشياء وادعى النبوة

ومعتقدهم معتقد المزدكية أصحاب مزدك الذي ظهر في زمن
أنوشروان وقتله الملك المذكور وهو قدم النور والظلمة على الوجه الذي
اعتقده المانوية الآن المزدكية يقولون النور عالم حساس وأنه يفعل ما
يفعله بالقصد والاختيار بخلاف الظلام فإنه جاهل أعشى ويفعل ما يفعل
بحكم الاتفاق والخطب والديسانية يخالفونهم في ذلك ويقولون ما يحدث
من الشرور إنما يحدث عن الظلام بطبعه لا بحكم اتفاق وأما المزيورية
وهم التابعون لمزيور وهو رجل من فارس ادعى النبوة قبل بعثة النبي عليه
السلام فقد وافقوا أولئك المذكورين في إثبات الوهية النور والظلمة
وخالفهم في إثبات أصل جعلوه إلهاً ثالثاً وهو المعدل الجامع بين النور
والظلمة وقالوا أنه دون النور في المرتبة وفوق الظلمة وحلمهم على هذا ما
رأوه في الوجود من الخير والشر وما هو بينهما فقالوا ان الموجد كما
لا يكون خيراً وشريراً معاً كذلك لا يكون خيراً ومتوسطاً بين
الخير والشرير ولا يكون شريراً ومتوسطاً بين الخير والشرير وأما
الكنيوية فقد قالوا ان الاصول ثلاثة النار والماء والارض فالنار خير
بطبعها يصدر منها الخير المحض والماء ضدها فيحصل عنه الشر الخالص
والارض يصدر عنها ما كان وسطاً بين الخير والشر وهو ما كان فيه أحد
الأمرين مشوباً بالآخر. واتخاذ بيوت للنار وتعظيمها بالعبادة ناشىء عن
مذهب أولئك القوم وأما الوثنيون فقائلون بوحدة الآله وما اتخذوه
معبوداً لهم من أنواع الاوثان إنما هو مثال للكواكب والعظام من الانبياء

أو الملائكة أو البشر فمدحهم من المشركين نظراً لقولهم بأن تلك الاوثان تستحق العبادة فأشركوا مع الآلهة غيره من الاوثان في هذا الاستحقاق لالانهم يقولون بتعدد الآلهة . وظاهر أن ما ذهب اليه الثانوية باطل بالنظرة الاولى فان الضوء والظلمة من الاعراض التي تقوم بالجسم واذ كان الجسم جائز الوجود فمن باب أولى ما اقتقر في وجوده الى ذلك الجائز وهو العرض القائم به والاله جل شأنه واجب الوجود

دلينا على أن الله واحد ما هو مركز في الفطر والطباع من أنه لو كان اثنين لكان وجود العالم منسوباً الى كل واحد منهما لما قدمناه من أن ذلك الواجب هو الموجد للعالم ومعلوم أن المادة الواحدة لا تقبل فعلين من نوع واحد لتماثلين واذ كان الامر كذلك ففعل احدهما بالمادة ما فعله الآخر لا يتأتى مع بقائها بل يكون ذلك قاضياً بفسادها فلا يوجد شيء من العالم وهذا باطل . ألا ترى أنه اذا شكل جسم من الاجسام بشكل مربع مثلاً يستحيل أن يشكل بهذا الشكل بعد التشكيل الاول وأنت اذا ذهبت به الى ذلك أفسدت مادته فانضح لنا من هذا برهان على عدم تعدد الاله وصورته هكذا . لو تعدد الاله لفسد العالم والتالى باطل فالمقدم وهو تعدد الاله مثله واذ انتفى التعدد فقد ثبت تقيضه وهو وحدته أما الملازمة فيينة مما قلناه وأما بطلان التالى فلما نشاهده من وجود العالم ولو انفرد كل منهما بعمل مخالف لعمل الآخر فاما أن يتكافئا فلا يوجد شيء وهو محال وأما أن يتغلب أحدهما على الآخر فيكون هو الاجدر بالالوهية ويكون الثانى عاجزاً فلا يكون لها والى الشق الاول الاشارة بالآية الكريمة وهي قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا)

والى الثانى الاشارة بقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله
اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله وتعالى
عما يقولون علوا كبيرا) ولو اختص واحد منهما بخلق شىء واختص
الآخر بخلق غيره فاما أن يجوز لكل منهما أن يخلق ما خلقه الآخر أو
يعدمه وكلاهما محال كما تقدم أو لا يجوز وهو باطل أيضاً لان كلاً من
المخلوقين ممكن وموجوده هو الاله كما قدمناه فعدم جواز خلقه اياه ناشىء
من تعلق قدرة الآخر به فيكون عاجزاً والآخر قادراً فلا يكون الهاً

وما قلناه هو الظاهر لدى الجمهور الذين خوطبوا بالشريعة فانه
يستوى فى التصديق به من زاولوا البحث البرهانى ومن لم يزاولوه وهذا
ما عُنينا بذكره بخلاف ما قالته الحكماء وغيرهم فى الاستدلال على هذا
المطلوب فانه خاص بأهل البحث والنظر لا تسهل فقاهته اللهم ولمن
على شا كلتهم . ولا بأس بأن نشير اليه سالكين طريق الايجاز

قالوا لو وجد الهان لاشتركا فى شىء وتمائزا فى آخر لان الاثنينية
تستدعى التمايز ومعلوم أن ما به الاشتراك غير ما به الاختلاف فهذان
الأمران اما أن يكونا داخلين فى الذات فيجىء التركيب المستلزم للامكان
واما أن لا يكونا كذلك بأن كان أحدهما ذاتياً والآخر ليس كذلك أو
يكونا عرضيين فنشأ عروض أحد المختلفين غير منشأ عروض الآخر
فهذان المنشآن اما أن يكونا ذاتيين أو عرضيين فان كان الثانى قلنا فى
شأنهما ما قلناه فى العارضين لأجلهما وهكذا فاما أن يدور الأمر أو
يتسلسل أو ينتهى الى تركيب فى ذات كل منهما وكل ذلك باطل فما أدى
اليه وهو تعدد الاله باطل واذا بطل ثبت نقيضه وهو الوحدانية وهذا

البرهان كما قلناه لا يفقهه إلا من زاوُل النظر على أنه يرد عليه الشكوك
الواردة على برهان ابطال التسلسل كما قدمناه

قد ثبت لك مما سبق وجود الاله وأنه عالم قادر مرید وما عدا ذلك
من صفات الكمال التي أطلقها على نفسه جل شأنه في كتابه الكريم
وصرحت بها الاحاديث النبوية منها ما يثبت بالعقل والنقل ومنها ما
يثبت بالنقل لا غير كالسمع والبصر والكلام وانا من الفائلين بأن للدليل
النقلی الذي اشتمل عليه الكتاب المجید والحديث الشريف تأثيراً في
النفوس واذعاناً من القلوب وانه جاء موافقاً لها لما هو مركز في الطباع
البشرية فهو عام شامل يخاطب به العالم وغيره من هذه الأمة ولذا ضربنا
صفحة عن تعداد تلك الصفات واثباتها للواجب جل شأنه اكتفاء بما جاء
في الكتاب العزيز والسنة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام
وهذا بخلاف الدليل العقلي فانه مزلفة العقول لا يدركه إلا الخاصة مع ما
يرد عليه من الشكوك وما يعتوره من المشاغبات فان ارباب النظر أطلقوا
للعقول سراحها فيما هو فوق مداركها فتخبطت في البحث وكلما جدت في
الوصول الى الحق بعدت عنه يتضح ذلك أجلى اتضح لمن نظر في كتب
القوم وشاهد ما وقعوا فيه من الابحاث الطويلة وما وصلوا الى شيء حتى
انك لتجد كل دلائهم غير خالية من الشكوك . راموا أن يصلوا بقواهم
العقلية الى مطالب لا يعوق العقل عن الوصول اليها أقل شك وحملوه على
غير المستطاع فاجهدوا الفكر وأطالوا النظر ولم يصلوا الى ما أملاوا ولو عولوا
على ما جاء في الشريعة لما حاروا تلك الحيرة واصرفوا أزمانهم في الاعمال التي
تصل بهم الى طريق السعادة والله الموفق للصواب واليه المرجع والمآب

الرسول عليهم السلام

اعلم هداك الله الى ادراك الصواب وعصمك من الزلل ووقفك الى التمسك بشريعة حبيبه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم أنك اذا أجلت النظر في أنواع الموجودات من أول المواليد الثلاثة راقياً الى ما فوقها وجدت أن أفق الجمادات مرتبة أنواعه ترتيباً غريباً بديعاً منها ما هو عريق في أفق الجمادية ومنها ما يترقى عنه شيئاً فشيئاً الى أن يصل الى نهاية هذا الافق ويقرب مما هو في الدرجة السفلى من النبات كما هي خاصة النبات فمنه ما هو قريب من الجماد (كالحشائش التي لا بذرها يحفظ نوعها) وكذا الحال بالنسبة لافق النبات فان بعضه يترقى عن الآخر شيئاً فشيئاً حتى يقارب أول افق الحيوان ^(١) فيرى فيه بعض

(١) وذلك كالنخل فانه كالحيوان في أنه اذا قطع رأسه لا ينمو وكذا شجر الفاكهة فان فيه شيئاً من الادراك الحيوانى ألا يرى أنه يحفظ ثمره من الآفات بما يحيطه من الاوراق وأن جذوره تذهب الى جهة الماء لأجل الرى والى الجهة التي فيها الغذاء والتماء ومثال الحيوان السافل الذى يشبه الطبقة العالية من النبات الاسفنج والمرجان فان الاول يتنفس في الماء ويتغذى بواسطة الاجزاء الممتدة من فمه ويفرز الاسفنج وأن الثاني ذو معدة تحفظ الغذاء وتفرز فروعاً على شكل شجرة تتفرع منها فروع كثيرة وهذه الفروع فيها جملة من هذا الحيوان صغيرة الجسم معداتها متصلة ببعضها بحيث ان تغذية بعضها تغذية للبعض الآخر وهذه تفرز فروعاً في تلك الشجرة وهكذا ويسمى ذلك في التاريخ الطبيعى بالمستعمرة المرجانية وما في الاسفل يسمى هرماً وما في الاعلى من هذه الفروع يسمى شاباً ولاول يموت بعد الافراز وما ينشأ عنه وهو الشاب لا يسمى هرماً ولا يموت الا بعد افرازه فروعاً أخرى وهكذا . والذى يشبه الطبقة السفلى الانسانية من النوع الراقى الحيوانى مثل

خصائصه كالأحاساس وكذلك الحال في أفق الحيوان فان الصنف العالى منه يقارب السافل من الانسان فكل هذا يرشدك الى أن الانسان على هذا السنن فيكون فيه نوع راق يقارب أول أفق الملائكة التي تدرك الحقائق الكلية بذاتها بدون توسط آلات الادراك والاحساس التي للانسان كما أسلفناه عند الكلام على النفس الناطقة وهذا الصنف منه ما يكون انصاله بذلك الافق فطرياً من الله سبحانه وتعالى وهؤلاء هم الانبياء الذين اجتباهم الله لقيادة النوع الانسانى الى ما فيه نجاحه وفلاحه ومنه ما يكون له ذلك بوسائط يستعين بها كشفل حواسه بوسائل أخرى من النظر في الاجسام الشفافة أو بعض العظام أو السجع كي يشغل حواسه عن ايرادها المحسوسات الى القوى التي تجردها عن العوارض تدريجياً حتى تعلمها النفس الناطقة أمراً كلياً مجرداً عن تلك العوارض الجزئية وأنواع هذا الصنف هم ارباب الكهانة ولما لم يكن اتصال نفوس هؤلاء بعالم الملائكة فطرياً بل ناقصاً لما فيه من الاستعانة على الوصول اليه بالوسائط الخارجية جاء فيه خلط واخلطاً بخلاف أهل الصنف الاول ولذا ندبهم الله للارشاد

القرد فانه يشبه بالادون من الانسان فى الادراك واستنباط الخيل قل الدكتور فلورى الفرنسى الذى عنى بدراسة مخ أنواع الحيوان فى سنة ١٨٥٠ بحيث اذا عرض عليه مخ أى نوع من أنواعه يحكم بانه مخ نوع كذا منه (ان مخ القرد يشبه مخ الانسان غير أنه أصغر منه حجماً فهو كمخ الطفل) وهو شبيه به أيضاً من حيث انتظام جذعه الاعلى والتقاء ابهامه مع كل اصبع من اصابع يديه كما هى الحال بالنسبة للانسان لاجل سهولة المسك والقبض بالاصابع كما تتمضيه الصاعلة اليدوية

واذ قد علمت ان المدرك المحسوس يصل بواسطة قوى الادراك الى النفس كلياً مجرداً عن العوارض الجزئية فاعلم أن أولئك الاخيار الذين تتصل نفوسهم بأفق الملائكة وتدرك العلوم الكلية الرحمانية مما يتعلق بتشريع الاحكام وتهذيب الاخلاق وبالحكم والمواعظ والاخبار الماضية والآتية التي لها ارتباط بالتشريع وتهذيب تدرج مدركاتهم هابطة من النفوس الى قوى الادراك حتى الحواس فتلبس لباس تلك القوى التي تكسوها لباس العوارض الخارجية والمدارك البشرية حتى يتأتى تبليغها الى البشر من أمته الذين ندبه الله الى القيام بهدايتهم اذ من المعلوم أنه لا بد من مناسبة بين المتلقى والمتلقى عنه كما أنه لا بد من ذلك بين المبلغ والمبلغ وهذا الاتصال الذي يتأتى به الوقوف على تلك المعارف التشريعية والكمالات البشرية هو المعبر عنه بالوحي وما ذكر فيه من أن له صلصة كصلصة الجرس أو أن الملك يتمثل له أحياناً الخ ما هو مذكور في حديث البخارى جواباً للحارث بن هشام الذى سأله صلى الله عليه وسلم عن الوحي هو اشارة الى تصويره بالمدارك البشرية ولباسه ثوبها واذ كان هذا الاتصال بأفق الملائكة فيه شئ من انسلاخ الروح عن البدن وجب أن يكون شديداً على صاحبه كما يشير الى ذلك الحديث الشريف فإنه ذكر فيه أنه كان يعانى من ثقل الوحي معاناة شديدة وأن جبينه ليتفصد عرقاً الى آخر ما هو معلوم ومن البين أن الصعب اذا تكرر اعتيد وأصبح أقل صعوبة مما كان قبلاً وهذه حكمة نزول القرآن منجماً لادفعة واحدة وطول المنزل فى المدينة عن المنزل فى مكة

ظهر من هذا أنه يجوز أن يبعث الله من هذا النوع انساناً يهديه

ويرشده الى طريق الرشاد . انا نشاهد في الطيور والنحل والنمل قادة لها من أجناسها فمن الممكن أن يكون الامر في النوع الانساني كذلك فيجوز أن الحى العالم يرسل من قبله من يختاره لذلك غير أنه قد يدعى ذلك من لم يختصه الله بهذه المنحة واذن فلا تقبل قول من يدعى هذه الدعوى الا اذا قامت لدينا بينة وأمارة على صدقه فيما ادعاه فاذا تم ذلك صدقناه فيما يقوله من أمر التشريع واعتقدنا عصمته من الخطأ فيه ومن كتماننا اياه وأمانته على ما أئمنه الله عليه من تلك الاحكام الشرعية وما يتعلق بها ونفاد ادراكه فيها كى يحلى ما غمض علينا أمره مما تدعو الى ضرورة بيانه حاجة التشريع واعتقدنا فيه العصمة من كل أضداد ذلك والأ ذهب الغرض المقصود من ارساله

أمارات صدق مدعى النبوة

هى المعجزة وذلك بأن يطالب منه ما يدل على أن الله بعثه لقيادة بنى النوع الانساني فيأتى بشئ لا يدخل تحت القدر البشرية بحال من الاحوال ولا يتناول واحد الى الاتيان بمثله سواء كان هذا الامر وجودياً أو عدمياً بأن يقول مثلاً انى أرفع يدي ولا أحد منكم يقدر على ذلك مع سلامة أعضائهم ويتم له هذا دونهم فيكون ذلك بمنزلة قوله تعالى صدق عبدى فيما قاله عنى ويقوى ذلك ما نجده من أولئك الكلمة كاتصافهم بفاضل الاخلاق وعكوفهم على التقوى ومجانبة الهوى واعراضهم عن زخارف هذه الحياة وانصراف كل قواهم الى هداية أبناء أمتهم وفرحهم بحصول ذلك وبوصول السعادة اليهم وترحمهم وحزنهم من ضده .

واحساس من يعارضهم بعدم القدرة على ذلك لما يهرده من فضلهم العالى
ومعرفتهم الشاملة حتى يرى من نفسه أن وجوده لو استطاعه مكابرة وقد
نقلت الينا معجزات الانبياء عليهم السلام على وجه تطمئن اليه النفوس
والتشكيك فى ذلك مجرد سفسطة وأوهام لا تؤثر فى الاذعان بما جاء منها
ولو تابعنا مطلق التشكيك وظاهر السفسطة لما وثقنا بما نعلمه من
المحسوسات كيف وأغلب المحرك لسعادة الانواع الحية من العالم علوم
لا يخلو شىء منها غالباً من نحو تلك الشكوك

نبوة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم

الدليل على ذلك ظهور المعجزة على يديه وأعلاها وأبعدها عن شبه
القادحين القرآن الكريم وذلك لانه دعا قومه وفيهم فطاحل البلغاء على
أن يأتوا بمثله وتكرر ذلك لديهم بحيث لم يجمله واحد منهم وهم أحرص
الناس على عدم اتمام أمره لما فى طباعهم من الثبات على القديم وعدم
الميل الى المستحدث مع ما جبلت عليه العرب من الشدة فى الخصومة
والتمسك بالرأى قال تعالى (فأتوا بسورة من مثله) وقال ايضاً (فأتوا
بحديث مثله) وقال جل شأنه (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) فلو أمكنهم
ذلك أو ما قاربه لما أحجموا عنه بل كان يقبل عليه بلغاؤهم وفصحائهم
ويصل ذلك الينا

فكيف لا يعتقد الناظر أن ذلك أمر معجز على أن المنزل عليه
هذا الكتاب أمى لا يقرأ ولا يكتب ولا تحول من جزيرة العرب الى غيرها
وأن تنقلاته بها معلومة لا يتوهم فيها أنه مارس عاملاً ونشأته منذ طفولته

الى دعواه النبوة معلومة الاطوار والاحوال تقضى على من عرفها بان يقول ان ذلك الكتاب العزيز ليس من عنده ولا تعاليم بشرية لديه تطرق له الولوج الى هذا الباب صرف القوم عن معارضته وهم هم ارباب القوة العظمى في اجادة التراكيب واحكامها مع حرصهم الشديد على ذلك امر خارق للعادة . قال قوم في بيان اعجازه هو ما اشتمل عليه من التركيب الغريب والاسلوب العجيب المخالف لنظم العرب في أوائل السور وخواتمها وأواخر الآي

وقال آخرون كونه في الدرجة العالية من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم وقصرت عنها درجات بلاغتهم وفسر هؤلاء البلاغة بأنها التعبير باللفظ الرائع عن المعنى المناسب للمقام الذي أورد فيه الكلام بلا زيادة ولا نقصان في البيان والدلالة على المعنى قال الوليد بن المغيرة بعد طول محاولته المعارضة وتوقع الناس منه ذلك . عرضت هذا الكلام على خطب العرب وأشعارها فلم أجده منها ولذلك كان اذا نظر فيه أى بليغ منها أيقن من نفسه باستحالة معارضته فأمسك عنها الا من كابر كسيامة الكذاب فهذى فيما قال وهو (والزراعات زرعاً فالحاصدات حصداً فالطابخات طبخاً فالآكلات أكلات) وقال (الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل)

وقال آخرون وجه اعجازه أنه جاء مشتملاً على أنواع التشريع وأحكامه من تهذيب النفوس وأنواع العبادات والعقوبات وحقوق العباد سواء في الحياة أو بعد الممات بحيث ان كل حكم يعلم منه صراحة أو ضمناً أو بطريق القياس على ما فيه كما نبه فيه على ذلك وهذا الاخير استحسنته بعض الباحثين

وعلاوه بأن أمانة التصديق يحسن أن تكون عامة يعترف بها كل واحد من أمة الدعوة عربياً كان أو غير عربي وسواء كانت لديه ملكة اللغة العربية حتى يعرف أنه معجز من حيث بلاغته أو لم تكن لديه تلك الملكة وأيضاً فإن المناسب لتصديق دعوى المدعى فيما يدعيه أن يأتي ببرهان من جنس دعواه فإذا ادعى شخص أنه طبيب يفعل من العلاج الطبي أو يذكر من مسائل ذلك الفن ما يدل على صدقه في هذه الدعوى ولا يأتي في انبائها بما يدل على أنه ماهر في الهندسة أو البلاغة فكذلك ما هنا . ومعلوم أن أوجه الإعجاز الأول في هذا المقام تدل على صدق دعوى الرسول عليه السلام فيما ادعاه لأنه اتيان بأمر خارق العادة لم يستطع معارضوه الاتيان بمثله كما نص على ذلك أبو الوليد بن رشد بخلاف ما ذكر في مسألة الطبيب ولا مانع من أن يكون كل مما ذكرناه سبباً للإعجاز فتعداد أسبابه لا يدل على خفائه

لا يتسنى لمنصف ألا يقر لسيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام بالرسالة إذا قرأ سيرة نشأته وسنته وما جاء به من القرآن الكريم وعرف معنى النبوة والغرض المقصود منها

وقد يكتفي بعض الناظرين في تصديق دعوى النبوة بأمارات أخرى ليست من طرق الإعجاز . منها أن يكون ذو الدعوى مطبوعاً على حب الخير وفعله وعلى بغض الشر ومجانبته آمراً بالصلاة والزكاة وسائر أنواع العبادات وحاتماً على فاضل الأخلاق ناهياً عن رذائلها مفطوراً على حب العباداة وكراهية اللهو وأنواع الرجس ذات نسب وحسب في قومه كي يكون ذا شوكة وسطوة تمكنه من تبليغ ما أمر بتبليغه ومن هنا يتبين لك

كيف استدل أبو بكر وخديجة رضى الله عنهما من أحواله وأطواره على نبوته ولم يحتاجا في ذلك الى ظهور أمر معجز وكذلك هرقل فانه لما جاءه كتاب رسول الله عليه السلام يدعوه فيه الى الايمان وقد سأل عن شاهدته فاحضروا له أباسفيان ومعه أناس من قومه وسأله عما أمرهم به فقال بالصلاة والزكاة والعماف الى آخر الاسئلة والاجوبة كما هو المذكور في حديث الصحيحين . قال ان كان ما تقول حقاً فهو نبيّ وسيملك ما تحت قدمي هاتين

الكلام على المعاد

قالت الفلاسفة ان للارواح بعد مفارقتها الابدان بقاءً وثبوتاً وقد تقرر لدى افلاطون ومن تبعه أن النفس قديمة بالزمان حادثة بالذات وأنها من عالم الملائكة فهي جوهر بسيط مجرد ولما خلق الله العالم أبدعه على أتم نظام ولا يكون كذلك الا اذا هبطت النفوس الى ذلك العالم وتماقت بأبدان نوع من الحيوان فكان انساناً ودبرت شئونه على أحسن حال فاستخرج ما خلق في هذا العالم الذي وجد على حال موافقة لنجاحه وفلاحه ومناسبة لكل نوع منها نفسها كما نهينا عليه سالفاً من الخواص والفوائد المفضية الى سعادته وانتفع بها غير أن تنزلها وارتباطها بالابدان الضالمة ذات الشهوات عاقبها عن كمالها المسمى الذي هو حضور المعلومات لديها وعن غيره من ذلك الكمال فاستعاضت عنه باستعمالها القوى المدركة الجسمية الظاهرة والباطنة في الحصول على المعلومات والصفات الفاضلة فان ظهر لها شيء طفيف من ذلك وعاقبها

العواثق البدنية عن الاستكمال منه كانت بعد مفارقتها البدن في غصة
وعذاب الى أن تتخلى من تلك الارجاس التي عرتها من جراء تعلقها بالبدن
وعكوفها على لذاته حتى يتجلى لها بعد ذلك ما هو كمالها ومعشوقها وكانت
في ألم من عدمه وان ظهر لها كل ذلك بمظهر غير حق بأن كانت كل
معارفها من قبيل الجهل المركب كان تألمها بعد مفارقتها البدن أدياً
لشعورها بعد معشوقها وغلبت الارجاس البدنية عليها غلبة أيستها عن
الطمع في خلوها منها ووصولها الى ما هو كمالها فهي في هذه الحالة بمنزلة
الكافر المخد في النار عندنا كما أنها في الحال الأولى لدينا بمنزلة المسلم
العاصي الذي لا يخلد في النار وأما اذا كانت عالمة تقية من الارجاس
البهيمية فإنها تكون بعد مفارقتها البدن منعمة بكاملاتها ومعشوقها الذي
حصلت عليه فهي في هذه الحال لدينا بمنزلة المؤمن المتقى الذي يكون له
في الآخرة النعيم المقيم وانما شعرت بذلك بعد مفارقتها البدن لان نمو
القوتين المختصتين بالجسم لديها حال الحياة (وهما القوة الغضبية والشهوية)
ستر عنها ذلك وجعل للذات الجسمية المقام الاول وأغفل اللذات
الروحية وذلك بخلاف حال التجرد عن البدن فأنها تدرك اللذة الحقيقية
ادراكاً واضحاً لا لبس فيه لعدم مزاحمة القوتين المذكورتين لها

كل هذا اذا لم تكن النفس نازلة الى أفق الحيوان بعيدة الادراك
والأ كانت بعد مفارقتها البدن لا تشعر بألم هذا النقص والبعد عن كمالها
وقد تقدمت الاشارة لذلك في الكلام على النفس وهؤلاء بمنزلة غير
المكلفين عندنا اذ من المعلوم أن كمال كل شئ إنما يكون بتمام خواص
جنسه فيه واحراز بعض خواص ما فوقه فالنبات الذي استكمل الخواص

النباتية وأحرز شيئاً من خواص الحيوان كالنخل أكل في جنس النبات من الحشائش التي لا بذر لها يحفظ نوعها فان في الاول زيادة عن الخواص المشتركة بين أنواع النبات الذكر والانثى كالحيوان وكذلك التلقيح والاثمار في مواعيد مخصوصة والفناء بقطع الرأس . وكذلك القردة أكل في الحيوانية من غيرها لما فيها من بعض خصائص الانسان كاتنظام الجزء الأعلى والمشابهة في المنح والتقاء الابهام مع كل اصبع . وكذلك الانبياء والحكماء أفضل وأكل في الانسانية من غيرهم لاجرازم بعض خصائص عالم المجردات من حيث جنوحهم الى اللذات الروحية واتصافهم بالفاضل من الصفات ونفوذ مداركهم الى المعلومات الكلية بخلاف السافل من الطبقة الانسانية فان أغلب صفاته حيوانية كالبهائم والبلداء فان أولئك يكونون أحط طبقات الانسان فاذا تجردت نفوسهم عن أبدانهم بالموت بقيت منحطة عن أفق الملائكة ومعلوم أن وصولها الى ألقها لا يكون إلا بالتخلي عما لحقها من تلك الادران والتجلى بالصفات المملكية هذا ولم يبينوا لنا مقدما العلم الذي اذا حصل للنفس كانت سعيدة بعد مفارقتها البدن وقد نقل عن الشيخ الرئيس أنه قال أما قدر العلم الذي تحصل به السعادة الاخروية فليس يمكنني أن أنص عليه إلا بالتقريب وأظن أن ذلك يكون بتصوير الانسان المبادئ المفارقة (عالم المجردات وهو الله جل شأنه والعقول والنفوس) تصوراً حقيقياً ويسدق بها تصديقاً برهانياً ويعرف علل الحركات السكلية (يعنى بها الحركات الفلكية وأسبابها)

ويتقرر عنده هيئة كل ونسبة أجزاء بعضها الى بعض والنظام الآخذ

من المبدأ الاول الى أقصى الموجودات الواقعة في ترتيبه (يعنى بذلك ترتيب الموجودات الذى قالته الفلاسفة فى العقول والنفوس الى العقل العاشر الذى يقولون انه هو الوساطة فى افاضة أنواع الوجود على المادة بواسطة الحركات الفلكية وما يحدث فيها من طبائع الحرارة والبرودة وغيرها والى فلك القمر الذى هو آخر الافلاك التسعة كما هو معروف) وأن يتصور العناية (التي قدمنا الكلام عليها فى برهان الوحدانية) ويعلم أى الوجود وجود الفاعل الاول (تبارك وتعالى) وحقيقة أحديته وأنه لا تكثر فيها وكلما زادت علومه عن ذلك ونما استبصاره زادت سعادته كما هو شأن المؤمنين المتقين لدينا فان بعضهم أعظم منزلة فى النعيم المقيم من غيره لأن ذلك النعيم على نسبة الايمان والتقوى

الميعاد الجثمانى

اتفقت كلمة عامة الشرائع السماوية على أنه جائز حاصل ما عدا الفلاسفة - دليلنا عليه ما نقل عن الشارع فى غير ما آية وحديث واذ كان هذا المطلب غير عقلى بمعنى أن العقل ليس له طريق الى اثباته أو نفيه فلا يكون اثباته الا بالدليل النقلى وقد علمت مما تقدم أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن الخطأ فى كل ما يتعلق بالتشريع فقولهم فى هذا دليل واضح على ما هو الحق فيه ولا ريب فى أن أمر البعث من أخص الامور وأعلقها بالشرع الشريف لأن ما جاء من الترغيب فى الاعمال والترهيب منها بما ذكر من النعيم والعقاب فى دار الجزاء التي نصير اليها بعد الحياة الثانية يكون غير حق اذا لم تكن حياة

وجزاء بعد هذه الحياة ومعلوم أن إعادة الحياة بعد ذهابها وقيام الاجسام التي تفرقت أجزاؤها أو عدت أمر ممكن وأن إيجاد الانسان أول مرة أصعب في اعتبارنا من اعادته قال تعالى (وهو الذي بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) فان أجزاء النطفة من أغذية مختلفة مكونة من أشياء كذلك متباعدة بل قد يكون أحدها من بقعة والآخر من أخرى ربما كانت بعيدة عنها بعداً شاسعاً ومعلوم أن الانسان حين ولادته هو بعينه حين شبيبته وحين شيخوخته وهرمه ومرضه وصحته ونموه وذبوله واخلاف لونه فعلى هذا يكون المعاد هو الاجزاء الاصلية التي يتغير الشخص بتغيرها وهي الباقية معه من حين ولادته الى موته دون التي يعتريها الفقد ودون الاعراض . ويقرب من ذلك ما قاله الامام محي الدين ابن العربي في بيان مقام الخلود في الدار الآخرة وهو أن هذا الجسم لا يتحمل البقاء الابدى لأنه مبنى على الفقد والتعويض فالذي يبعث ويخلد هو الجسم الجوهري الباقي مع الانسان منذ بداية خلقته وهو الذي لا يعتريه التغيير لاهذا الجسم المبنى على الزوال والاستعاضة

واعلم أن الأقوال في الميعاد مختلفة فقوم قالوا بالميعاد الجثامى لا غير وهم أكثر المتكلمين النافين للنفس الناطقة وآخرون قالوا بالروحي فقط وهم الفلاسفة الالهييين وقوم قالوا بهما معاً وهم كثير من المحققين كالفرازي والراغب وأبي زيد الدبوسى من قدماء المعتزلة وجمهور من متأخري الامامية وكثير من الصوفية فانهم قالوا ان الانسان في الحقيقة هو النفس الناطقة وهي مناط التكليف فهي المطيعة والعاصية والمثابة والمعاقبة والبدن يجرى منها مجرى الآلة وهي باقية بعد فسادها فاذا أراد الله حشر الخلائق

جعل لكل بدن نفساً تدبره وتتصرف فيه كما هو الشأن في الحياة الدنيا ومنهم من نفاهما وهذا قول الفلاسفة الطبيعيين ومنهم من توقف وهذا منقول عن جالينوس فانه قال لم يتبين لى أن النفس مزاج يعدم عند الموت فتستحيل اعادةها أو جوهر باق بعد فساد البنية فتمكن اعادةه

نعيم الجنة وعذاب النار

يعلم مما قدمناه أن نعيم الجنة وعذاب النار وما يتعلق بهما من ذكر الأنواع وكيفيةها أمر لا يصل البرهان العقلى الى اثباته أو نفيه ولذلك لم تكن طريقة اثباتهما الا ما جاء من الدلائل النقلية عن صاحب الشريعة المطهرة فيجب علينا ما دمننا متهربين لرسولنا عليه السلام بالنبوة المستزرم تصديقنا اياه في كل ما جاء به من التشريع وما يتعلق به أن نصدق بحصول ذلك النعيم والعذاب والجنة والنار الى آخر ما جاءت به الشريعة من هذه الاشياء الأخروية ونعتقدها كما جاءت بدون تأويل ما دام ذلك أمراً جائزاً لا يحيله العقل وقال قوم من الذين في قلوبهم دخل من التصديق بالميعاد الجثمانى ان ما ذكر من النعيم في الماء كل والمشب والسكنى والخور العين رمز الى لذات^(١) أخروية نفسية كمالية ليست كاللذات البدنية وعبر عن

(١) فعبّر بلذة الروية مثلاً عن لذة انكشاف الحقائق للنفس ألا ترى أن الذين ينكرون الميعاد الجثمانى كالفلاسفة يقولون ان العلم الكامل الواضح بالعادة يوجب العلم بالعلول لأنه من أطوارها وكل ما في الوجود معلول له جل شأنه وعبر بقصور الجنة وملابسها وما كلفها عن الوقاية من الادران الشهوية التي كانت تلحقها حال تعلقها بالبدن وبلاستمتاع الذى من شأنه حفظ النوع وبقاؤه عن لذة البقاء الكامل وهكذا

كل جهة من تلك اللذات الروحية بما يشابهها من اللذات البدنية وأن سبب ذلك التغير اختلاف مظاهر الوحي فيظهر في بعضه بأنها لذات روحية كما ورد في غير شريعتنا ويظهر في مظهر آخر لا بساً لباس المدركات الحسية كما ورد في شريعتنا لقوة المظهر فيها وهؤلاء هم القائلون بالميعاد الروحي وقد علمت من غير موضع من المواضع التي ذكرناها أنه لا يؤول في الشريعة ما جاء موافقاً لفطر أبناء الأمة وأفهامها فانها عامة للبرهاني وغيره فلا نذهب بظواهرها مذاهب الغموض وما يعسر فهمه على الجمهور على أن بقاءها على ظواهرها يجعل لها تأثيراً خاصاً في النفوس يحملها على الرغبة أو الرهبة وهذا هو الذي قصده الشارع بآيات الترغيب والترهيب وأحاديثهما

الرؤية

قبل أن نخوض في هذا المقام نقول انه لا يسع مسلم انكارها لورودها في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة فجأدها مكذب لها ولا ايمان مع عدم تصديق الله ورسوله قال الشيخ أبو الحسن الأشعري وأتباعه انها جائزة وحاصلة في الآخرة المؤمنين لقوله تعالى (وجود يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة)

وروى جرير بن عبد الله البجلي قال كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته . واستدلوا على امكانها أيضاً بدليل نقل وهو قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (رب أرني أنظر اليك قال ان تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه

للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً) ووجه الاستدلال أن موسى صلوات
الله عليه عالم بجميع ما يمتنع ويجوز ويجب لله تعالى كيف وهذا لا يحمله
أقل المؤمنين علماً فكيف بنى الله وكليمه ولا يداجي قومه في شئ من
ذلك ألا يرى ما ورد في الكتاب الكريم وهو قوله تعالى (وقالوا يا موسى
اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون) وأنه علق الرؤيا على
استقرار الجبل وهو أمر ممكن في ذاته والمعلق على الممكن ممكن وقد
ردّ منكرو الرؤية من المعتزلة هذا الدليل بأن المراد بأرني أعلمني علماً
واضحاً وعلى هذا يكون معنى انظر في الآية الاعلام الواضح ومعلوم أنه
لا يتعدى بالى فردهم ما قاله الأشاعرة بعيد وردود ثانياً بأن هذا
السؤال حصل منه عليه السلام لآخام قومه والاضرار بهم فانهم طلبوا منه
أن يريهم الله جهرة فاما ألحوا عليه في ذلك قصد اعنائه كان منه ما كان
وتذكرك الجبل وصعق سبعون من - غليتهم ودفعت ذلك الأشاعرة بأنه
لا يوافقهم في الممتنع ألا يرى انه ردّ عليهم ولم يجبههم اذ قالوا له اجعل لنا
الهاً الخ وبأن الاستقرار المعلق عليه ممكن كما تقدم وقد أطال مثبتوها من
الأشاعرة وناقوها من المعتزلة القول في ذلك وقد اكتفينا بذكر طرف منه
استدلوا عليها أيضاً بالدليل العقلي وحاصله أنا نرى الأعراض من
الالوان والابعاد والجواهر كالجسوم ذات الابعاد متى كانت موجودة ولا
نراها اذا كانت مدمومة فلا بد أن يكون لتلك الرؤية سبب وهذا السبب
لابد أن يكون مشتركاً بين المرئيات وهي الجواهر والأعراض على ما قدمنا
وهي مشتركة في الوجود والحدوث ولا يصح ان يكون الثاني علة لأنه وجود
بعد عدم والعدم لا يصلح أن يكون هو أو جزؤه سبباً لأمر وجودي

فتعين أن يكون السبب الوجود وهو مشترك بين الاله والعالم فرؤيته جل شأنه ممكنة وهو المطلوب

وقد رد المانعون هذا الدليل بردود كثيرة أولها أن المرئى أصالة هو الاعراض وثانيها بعدم لزوم اتحاد العلة فيهما وثالثها يجوز أن تكون العلة فيهما هي الامكان وهي منتفية بالنسبة لله تعالى ورابعها أنه يجوز على هذا أن نبصر الطعوم والروائح والالفاظ وغيرها من الاعراض التي لا نبصرها كالحرارة والبرودة مثلا وقد التزم الاشعري وأصحابه ذلك وقالوا لا مانع منه غير أن الله تعالى لم يجز العادة بابصارها ولو أجزاها لا بصرناها وقد شدد المعتزلة النكير على ذلك وقالوا ان مثل ذلك خارج عن دائرة التعقل والبحث وقالت المجسمة والكرامية بجواز رؤيته تعالى لكونه جسماً وله جهة لديهم فوافقا الأشاعرة في الرؤية وخالفوها في كيفيتها فهما يقولان برؤية بصرية كالرؤية التي لنا في هذه الحياة الدنيا بشروطها بخلافها عند الأشاعرة فانها تكون بخلق الله تعالى ذلك بدون مواجهة ولا مقابلة وبلا ضوء وتحيز المرئى الى غير ذلك من الشروط (والكرامية طائفة اتبعت محمد بن كرام الذي أظهر مذهبه زمان ولاية محمد بن عبد الله بن ظاهر وتبعه من أهل سواد نيسابور شذمة من القرويين) قال ان المعبود جسم له حد ونهاية من تحته ومن الجهة التي يلاقى بها عرشه وزعم أن ما ليس بجسم ولا له جهة معدوم وزعم أنه مماس لعرشه وأنه مكان له وقالوا انه محل للحوادث وان أقواله وارادته وادراكاته المرئيات وللمسموعات أعراض حادثة فيه وهو محل لتلك الحوادث وقد مال الوليد بن رشد في كلامه على هذا المبحث الى ابقاء الرؤية على حقيقتها

وقال لا ضرر في اثبات الجسمية والجهة لله تعالى فانه أطلق على نفسه ما يقتضى ذلك اذ قال (يد الله فوق أيديهم) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام - وفي الحديث ما معناه قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن - وقال ايضاً (الله نور السموات والارض - كل شيء هالك الا وجهه)

قالت المعتزلة الرؤية غير واقعة ولا جائزة واستدلوا على دعواهم بالمنقول والمعقول أما الاول فقولہ تعالی (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) فقد تمدح بأن الابصار لا تدركه والصفات التي عدمها مدح يكون وجودها نقصاً يجب تنزيه الله عنه ومعلوم أن الادراك المضاف للبصر انما هو الابصار المعروف ودحض الاشاعة ذلك بأن معنى الادراك البصرى الرؤية المحيطة بجوانب المرئى لان معنى الادراك النيل والوصول يقال أدركت الثمرة اذا وصلت الى حده النضج وأدرك الغلام بلغ ثم نقل الى الرؤية على الوجه الذى قلناه ولا يلزم من نفي الرؤية على هذا الوجه نفي الرؤية المطلقة فان رفع الخاص لا يستلزم رفع العام على أنا نقول في دحض هذا الاستدلال ايضاً ان لا سلب دخل على الموجبة الكلية فتكون سالبة جزئية ونحن قائلون بذلك فان الكفار لا يرونه جل شأنه يوم القيامة وايضاً فان الآية تدل على أن الابصار لا تراه وهذا لا يستفاد منه أن المبصرين لا يرونه لجواز أن يكون ما في الآية نفيًا للرؤية بالجارحة على شروطها الآتية - ولأنه تعالى ما ذكر سؤال الرؤية في كتابه الا استعظمه قال تعالى (واذا قلتم يا موسى ان تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأتم تنظرون) ولو كانت ممكنة لما

عاقبهم عليها في الحال لانهم طلبوا معجزة ثانية قال تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) ولو كانت جائزة لما كان طالبها عاتياً - وقال ايضاً (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جبرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) فعد هذا ضاماً وآخذهم عليه في الحال ولو كان ممكناً لكان طلباً للزيادة من المعجزات وهذا لا يقتضى وصفهم بالظلم واهلاكهم

وأجاب الأشاعرة عن هذين بأن ذلك لتعنتهم ومكابرتهم ولذا استعظم انزال الملائكة في الآية الأولى واستكبر انزال الكتاب من السماء في الثانية مع امكانهما

وأما الثاني فهو أنه لو جازت رؤيته تعالى لرأيناه الآن والتالى باطل فالمقدم مثله بيان الملازمة انها لو كانت جائزة لكان ذلك الجواز ثابتاً لها في كل حال لأن جوازها اما لذاته أو لصفة لازمة لها فلا يتصور انفكاكها عنه ما دامت شروط الرؤية متوفرة فلو جازت في الآخرة جازت الآن كذلك أما بطلان التالى فظاهر والالجاز أن يكون بحضرتنا جبال وآكام ولا نشاهدها وذلك باطل بداهة واذا بطل التالى بطل المقدم وهو جواز الرؤية فثبتت استحالتها . وشروط الرؤية سلامة الحاسة والتفتاتها (بالأ تكون في حال النوم أو الغفلة) والتوجه الى المرئى ومقابلته وعدم غاية الصغر وعدم غاية اللطافة بأن يكون كشيئاً ذا لون في الجملة وعدم غاية البعد (وهذا يختلف بالنسبة لقوة الباصرة وضعفها) وعدم غاية القرب فان المبصر اذا التصق بسطح البصر بطل ابصاره بالكلية وعدم الحجاب

الحائل وهو الجسم الملون المتوسط بينهما وأن يكون المبصر مضيئاً بذاته أو غيرد ولا يعقل في رؤية الله تعالى من هذه الشرائط سوى سلامة الحاسة والتفتتها ومعلوم أن غالب هذه الشروط واجبة الانتفاء بالنسبة له تعالى وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط وهو رؤيته جلّ شأنه

وقد دحض الأشاعرة ذلك بأن الأمور العادية جائزة مع عدم وقوعها فالقول بعدم الرؤية مع توفر الشروط التي قلموها وأن ذلك يقتضي أن لدينا جبالات ولا نراها أمر مخالف للعادة لم يقع وان كان جائزاً وبأن الشروط التي ذكرتموها إنما هي شروط في الرؤية بالحدقة ونحن نقول ان المراد من الرؤية التي قلنا انها جائزة وواقعة انكشاف نسبتة الى ذاته تعالى كنسبة الانكشاف المسمى بالابصار الى سائر المبصرات على وفق المكشوف من كل وجه

قد أطلنا الكلام في الرؤية وحملنا الناظر في كتابنا هذا على اطالة البحث بما قلناه وولجنا به المسالك الوعرة على خلاف ما عودناه وقلناه من وضوح الأدلة الشرعية مراعاة للجمهور وقلنا بتفضيل هذا المسلك على سواه ولكن ملنا عن ذلك في مقالنا هذا بعض الميل كي يكون المطلع على بصيرة من أدلة كل فريق وغاية ما ترمى اليه فاذا توخينا من خلال ذلك منهجاً واضحاً يناسب الجمهور سلوكة كنا سالكين المسلك الذي عولنا عليه ومنبهين القارئ الى أن ذلك هو الحق الذي ترمى اليه الانظار غاية ما في الباب أنه خفي في ثنايا أدلة القوم وشكوكها واليك الحق الواضح في هذا المقام

تطلق الرؤية على معنيين أحدهما البصرية ولا شبهة في أنها لا تكون

الأبشروطها التي قدمناها وثانيتها العلم الواضح والانكشاف الجلي وهذا مخالف للأول في اللوازم وان كان مماثلاً له في الانكشاف والوضوح ولا يشترط فيه شيء من الشروط السالفة في الرؤية البصرية ولا يخالف الأول في الوضوح وان خالفه بتأثر الحدقة فيه دون الثاني فان من يبصر الشمس ثم يغمض عينيه يكون عالمها ومن تأثر حدقته برؤيتها يتخيل أنها لديه بخلاف من عالمها بعد رؤيتها عالماً واضحاً. وكذلك اذا تقصى نظر شخص شيئاً أخضر ثم نظر ذا لون آخر فانه يتخيل فيه لون الخضرة وكذا اذا أمعن شخص نظره في البياض الشاهق أو الضوء ثم نظر الى ما سواهما فانه لا يبصره باديء بدء حق الابصار لما يبدوله من الظلام

ويؤخذ من أدلة القوم والشكوك الواردة عليها أنهم متفقون على استحالة الرؤية بمعنى الابصار بالحدقة على الحال المعروفة لنا بالنسبة لله تعالى كما أنهم متفقون على جوازها بالنسبة للمعنى الثاني فلم يبق مبحث الرؤية الا مبحثاً لفظياً وهو (أطلق على العلم الواضح أو لا) والصحيح الاطلاق قال تعالى (وتوكل على الحى الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) فان الرؤية المنسوبة اليه تعالى لا تكون الا عالماً واضحاً وقال تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى . وقال أيضاً وكذلك نورى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين وهذا فى مقام الامتنان على ابراهيم عليه الصلاة والسلام فيكون المراد منه الاعلام لا الرؤية البصرية فانها لغيره وضدها يسمى عمى أيضاً كما قال تعالى فيها (فانها لا تعمى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً)

قال صاحب الأسفار في معنى قوله عليه الصلاة والسلام - رب
أرني الأشياء كما هي - ان المراد بالرؤية العلم الشهودى ونقل أيضاً أن
جبراً من اليهود سأل علياً كرم الله وجهه (هل رأيت ربك حين عبدته)
فقال له ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره فقال فكيف رأيته أو كيف
الرؤية فقال ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأيته
القلوب بحقائق الايمان . واعلم أن النفوس الانسانية لا تصل الى ادراك
الحقائق التي لا تحس ادراكاً جلياً ما دامت متعلقة بالأبدان فانها لا تصفو
الصفاء المَلَكِي الكامل ولذا لا بد من تنقيتها مما فيها من الأدران البشرية
حتى تتمحص وتخلص منها والى هذا الاشارة بقوله تعالى وان منكم الا
واردها كان على ربك حتماً مقضياً غير أن مدة ذلك تختلف باختلاف تلك
الأدران قلة وكثرة وبعد اخلو منها تكون ذا صفاء مَلَكِي تام فتجلى لها
معرفة ربها السابقة تجلياً واضحاً لا خفاء فيه كما هي متجلية لعالم الملائكة
وهذا ما يقصد بالرؤية كما نص عليه الغزالي في كتاب الأحياء
وضح لك من هذا كله الأغرابة ولا عجب في تجويز الأشاعرة
رؤية أعمى الصين بقية الأندلس وأن جميع ما ذكر من الأدلة يمشى على
هذا الذي حققناه أرشدنا الله وإياك الى الصواب

القضاء والقدر والأفعال الانسانية

إذا نظرت أيها المطالع الى الانسان وأفعاله وجدت أنه لا يصدر
عنه فعل من الأفعال الا اذا توفرت الأمور الآتية وهي سلامة أعضائه بأن
تكون على نظام خاص ينشأ عنه الفعل وأن يتصور حصول أمر يبتغيه

من الفعل المذكور وأن تكون الأشياء الموصلة اليه موجودة على النظام الذى يؤدى اليه وأن ترتفع الموانع والعوائق التى تحول دون ذلك الفعل مثلاً اذا أردت زراعة شئ من أنواع المزروعات فلا بد أن يكون فى ذاتك ما يمكنك من الذهاب الى الارض والبذر وتعبده من القوة وسلامة الاعضاء التى يتوقف عليها ذلك حتى ينبت ويمو ولا بد أيضاً أن تتصور حصول الفائدة التى تترتب على هذا الزرع وأن تكون الآلات الموصلة له موجودة (كالحرث أو ما يقوم مقامه) على حالة تؤدى الى الوصول لوضع الحبة الوضع الذى تنموه دون سواه وأن يسقى ذلك النبات بماء البئر أو النهر أو المطر الذى ليس من صنعك ولا فعلك وأن تكون الحالة من الحرارة أو البرودة أو الاعتدال الحاصلات من حركة الشمس مما يساعد على هذا النمو ولا يناقضه والأ يعوقك عائق عن ذلك لا قبل لك بدفعه ومثل ما قيل فى الزرع يقال فى غيره من أنواع الأفعال على ما قدمناه فيما يتوقف عليه أى عمل من الأعمال

إذا تأملت فى كل ذلك وجدت أن عمل الانسان متوقف على هذه الاشياء وهى على نظام خاص خارج عن قدرته واختياره وأن ارادته وشوقه الى العمل انما هى ناشئة عن تصوره حصول غاية ذلك العمل وفائدته وهذا التصور ليس اختيارياً له فى الحقيقة لانه انفعال ناشئ عن الاشياء الخارجية فان ما يعلم من الدلائل الحسية على فوائد الزرع تنفعل منه النفس بتصديقها بترتب ذلك عليه فتميل الى عمله وتبعث الجسم اليه فاذا كان نظام أعضاء الانسان الداخلى موافقاً لمزاوته موافقة تؤدى الى الغرض المقصود وكذلك نظام الاشياء الخارجية التى هى بمنزلة الآلات الموصلة

اليه وارتفعت العوائق والموانع حصل العمل المذكور وهذا النظام السارى في الكائنات من داخل الانسان الى بقية أفراد العالم هو القضاء والقدر على ما قاله بعضهم وأنت اذا دقت البحث وجدت أن وضع الحبة في الارض لا يوجب تأثرها إلا بالحرارة التي وضعها الله في عنصر تلك الارض بواسطة حركة الشمس وكذلك الرطوبة التي لحقتها من الماء وأن افاضة السنبلة انما هي ناشئة من غير ذلك وهو الخالق جلّ وعلا ألا ترى أن ماء الرجل لا يكسب من ماء الطمث إلا حرارة لا غير وأن خلقة الجنين ونفسه قد أفاضهما الله سبحانه وتعالى وقد خفى على كثير ممن زاولوا العلوم المتعلقة بذلك هذا السر الالهى فظنوا أن مفيض الخلقة والحياة هو تلك الحرارة المخصوصة فوضعوا ذلك الكائن في حرارة لا تختلف عن تلك الحرارة وحاطوه بما يمنع عنه الآفات الطارئة فما وصلوا الى وجود انسان كما خلق الله جلت قدرته وعظمت حكمته

لعلك علمت من هذا أن الانسان له دخل في إيجاد أفعاله (ويستحق به الثواب أو العقاب) وأن النظام الداخلى والخارجى وارتفاع العوائق والموانع له دخل أيضاً وأن الكل أبدعه الله على هذا النظام الذى ينشأ عنه الفعل بخلق الله تعالى كما علمت من الكلام على علمه جل شأنه أنه ليس بموجب لذلك بل انه علم « بهذا النظام وما يترتب عليه وهذا هو مفاتيح الغيب اذ العلم بوجود الشيء أو عدم وجوده غيب والعالم بالاسباب ونظامها وما يترتب عليه عالم بالوجود أو عدمه والاسباب التي قلناها هي موجدة لله ولها تلك الخواص باذنه وارادته والقول بتجرد الاسباب عن مسبباتها والملزومات عن لوازمها يؤدي الى الانحراف عن باب اثبات

الصانع فإنا استدللنا على موجد للعالم غير مشاهد بما نشاهده من أن كل مصنوع له صانع لا محالة فإذا قلنا يجوز انفكاك المسبب عن السبب وعطلنا ذلك في المشاهد فكيف نقيس عليه الغائب فلا بد لنا من القول بأن خصائص الشيء لازمة له وأن هذا سنة الله في خليقته وأنه خالق لذلك فهو بإذنه وإرادته ولا ضرر فيه فإذا تم لنا هذا القياس وثبت لنا وجود الصانع جل شأنه ونظرنا في الاعمال والافعال وجدنا أنه هو الموجد للجواهر وأن ذلك النظام الداخلي والخارجي إنما هو وسيلة للوجود الذي يفيضه الحق جل وعلا

لا ريب أن قد وضع لك من هذا كله أن الفعل يصح أن ينسب للعبد وأن اثابته على الحسن منه وعقوبته على القبيح لا تشكيك فيهما - ولما كان هذا المقام دقيقاً وقع فيه الخلف بين العلماء فقالت المعتزلة ان العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بما أعطاه الله من سلامة الاعضاء والقدرة على ايجاده ما دام يدخل تحت قدرته واختياره ولا ضرر في ذلك فانه تعالى خالق للعبد وقدرته وعقله وإنما الممتنع بالاجماع أن يكون خالق مع الله وما قلنا ليس من هذا القبيل فان الفعل مخلوق لله لأنه خالق لمن أوجده وقالت الجبرية ان العبد كالريشة المعلقة في الهواء فتتحرك جبراً عنها فكذلك الأفعال صادرة عن الله جل شأنه ولا دخل للعبد في ايجادها مطلقاً وعلى هذا يشكل أمر الثواب والعقاب وقد توسط الأشاعرة في ذلك فقالوا ان الموجد هو الله لا غير وان للعبد قدرة واختياراً مقارنين للفعل بهما يكون العبد ذا كسب وليس لهما تأثير في الفعل مطلقاً والفرق بين هذه الحالة وحالة الجبرية كالفرق بين من له اختيار في تحريك يده

ومن لا اختيار له كما في حركتها ارتعاشاً . ورد هذا بعض المحققين بأن
الحركتين متساويتين مادامتا حاصلتين من غير الشخص فكيف
يكون كاسباً باحدهما دون الاخرى وما حمل القوم على هذا الخلاف
سوى ما أشكل عليهم من التعارض بين أفراد الأدلة السمعية وكذلك
بين أفراد الأدلة العقلية

أما التعارض بين أفراد الأولى فظاهر مما ورد في القرآن الكريم
والحديث الشريف فمنها ما يفيد أن الأفعال انما هي بقدر الله وقضائه وأن
ليس للعبد دخلاً في إيجادها وذلك كقوله تعالى (انا كل شئ خلقناه
بقدر) وقوله (والله خلقكم وما تعملون - خالق كل شئ - وقوله -
ختم الله على قلوبهم - ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم
الآ في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير - وما أصابكم
يوم التي الجمعان فبأذن الله - ما أصابك من حسنة فمن الله) وقوله عليه
الصلاة والسلام خلقت هؤلاء للجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون وخلقت
هؤلاء للنار وبأعمال أهل النار يعملون - ومنها ما يفيد أن للانسان
كسب فعله وأنه ليس مجبوراً عليه من ذلك قوله تعالى (أو يوبقن بما
كسبوا - ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وابراهيم
الذي وفى - كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم - من جاء
بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثله وهم
لا يظلمون - ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم - ما ترى في
خلق الرحمن من تفاوت (أى وتجد ذلك في خلق غيره فانه مقول في
تنزيه فعله عما يتصف به فعل العبد) - ولو كان من عند غير الله لوجدوا

فيه اختلافاً كثيراً - الذى أحسن كل شئ خلقه - وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون - فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر - اياك نعبد واياك نستعين - واستعينوا بالله . وظاهر أن استعانة العبد بالله إنما تكون فيما يوجد به بنفسه - وقوله تعالى حكاية عن يونس عليه السلام - سبحانك انى كنت من الظالمين - ذلك بما كسبت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد - والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها - تلك الجنة التى اورثتموها بما كنتم تعملون - لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على الهدى - أو لمآء أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم - وما أصابك من سيئة فمن نفسك - وقوله عليه الصلاة والسلام - كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه - الى غير ذلك من آى القرآن الكريم والحديث الشريف ومعلوم انه اذا تعارضت الادلة العقلية يرجع الى الادلة العقلية

وأما التعارض بين الادلة العقلية فظاهر مما يأتي استدلال الفائلون بأن ليس لقدرة الانسان واختياره دخل في ايجاده أفعاله بأنه لو كان موجوداً لأفعاله لكان من المخلوقات ما ليس جارياً على مشيئة الله واختياره فيكون ثم خالق غير الله وقد أجمع المسلمون عموماً على أنه لا خالق سواه على ما نقل عن العلماء

واستدل الفائلون بأن أفعال الانسان مكتسبة له بأنها ان لم تكن كذلك كان مجبوراً عليها واذن فتكليفه بها من باب التكليف بما لا يطاق واذا كلف الانسان بما لا يطيق لم يكن فرق بينه وبين الجماد لأنه

لا يطبق الفعل أيضاً كالانسان المجهور فلا يصح تكليف ذلك المجهور دونه
ومن ثم اشترط الجمهور الاستطاعة في التكليف وأيضاً فإنه اذا لم يكن
للانسان اكتساب فعله لما صح مدحه على بعض الافعال وذمه على
الاخري ولما صح ترتب الثواب على البعض والعقاب على بعض آخر
ولكان الامر بالأهبة لما يتوقع من الشرور لا معنى له وكذلك الأمر
باجتلاب المنافع فتبطل كافة الصنائع التي تجلب بها اخيرات كصناعة
الفلاحة وغيرها من الصنائع التي نصل بها الى أنواع الخير وكذلك تتعطل
جميع الصنائع التي يقصد بها الحفظ ودفع المضار كصناعة الحرب والملاحة
والطب وغير ذلك وهذا كله خارج عن حد ما يعقله الانسان

هذا وقد وضع لك من هنا أننا لما رجعنا من الادلة العقلية لتعارضها
الى الادلة العقلية وجدنا فيها ذلك التعارض أيضاً فلا بد من البحث عن
حال تتوافق فيها الادلة بنوعيتها ولذا قدمنا لك أول المطلب شرح هذا المقام
أخذاً عن أقوال بعض العلماء السالفين الذين عنوا بالبحث فيه وبه يجمع
بين الأدلة المتناقضة سواء كانت عقلية أو عقلية ويزول الاشكال فان الاثابة
والعقوبة لا يشترط فيهما أن يكون المثاب والمعاقب مخترعاً مبدعاً للفعل
لأن ذلك لا يكون الا للخالق جل وعلا بل يكفي فيهما أن يكون له دخل
في تحققه وحصوله كما هو ظاهر وجواز تغيير ارادة العبد عن الفعل أو
تعطيل أعضائه لا يقدح في ذلك لأن كونه جائزاً ومقدوراً له تعالى
لا يترتب عليه عدم العقوبة أو الاثابة فانهما منوطان بحصول الفعل
لا بجواز حصوله فان من الخارج عن دائرة التعقل أن يعاقب شخص
لأنه يجوز أن يفعل قبيحاً وان لم يفعله أو يثاب لأن في قدرته فعل حسن

وان لم يفعله ولو درجنا على ذلك لساغ لنا أن نعتبر أن العالم غير موجود
ونرتب على ذلك الاكاذيب والأباطيل من الاحكام ونعطل أسباب الفلاح
والنجاح أيضاً لجواز حصوله مع التعطيل والله وليّ التوفيق لا رب غيره

النسخ

قبل الشروع في الكلام عليه نقول ان أعدل الشرائع وأحسنها ما
كان مناسباً لحال الأمة من جهة تقدمها أو انحطاطها ملائماً لما عليه
طبائعها ذاهباً بها الى طريق السعادة الدنيوية والاخروية فاذا تغيرت عن
حالتها الاولى ناسب أن يشرع لها شرع آخر أخف أو أشد من الأول
على ما تقتضيه حالها الثانية اذ عدم بقائها على الشريعة التي لا تناسب تلك
الحال الثانية واستبدالها بشرعية أخرى تناسبها أنسب بسعادتها وأعدل
من التشريع الأول ومعلوم أن روح الشرائع في الانبياء راجعة الى
الايمان والمحافظة على العقل والنفس والمال والنسل وما جاء من اختلاف
تشريع الانبياء عليهم السلام انما هو راجع الى طرق الوصول الى تلك
الاشياء ولذلك تعاقبت الرسل في الأمم تبعاً لتعاقب أحوالها ومن ثم نرى
أن النسخ وعدم العمل بما لا يلائم من التشريع الاول لا يكون في
التشريع الاعتقادي كايماننا بالله وبما له من صفات الكمال واعتقادنا بتزيه
عما هو محال عليه والتصديق بوجود ملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر
ولا فيما يخالف روح التشريع العملي العام كإباحة اهدار دم النفوس
المحترمة وتجويز تناول ما يستر العقل كالخمر وإباحة أخذ مال محترم شرعاً
محرز في حرز مثله من مالكة بغير حق الى غير ذلك من الأشياء التي

قدمناها وانما يكون في الاحكام الجزئية العملية الراجعة الى طرق
الاجراء والوصول الى الاحكام الكلية التي هي مقاصد عامة الشرائع
وعليها يترتب نظام هذا المجتمع واطلاق يد أفراده فيما يعود عليها
بالسعادتين من كل ما أباحه لها الشارع أو نذبه اليها أو أوجبه عليها
فلا يتعلق الآ بالأوامر والنواهي لانها ما أخذ الاحكام دون الاخبار ولأنه
يترتب على نسخها اتصاف قائلها بالكذب والشارع منزه عن ذلك ولا
يكون فيما اشتمل على التأييد نحو قوله تعالى (ولا تنكحوا أزواجه من
بعده أبداً) لازوم جهل المشرع على تقدير نسخ ذلك لأنه شرع لنا حكماً
وقال انه أبدى فرجوعه عنه الى حكم آخر دليل الخطأ والجهالة بحال الناسخ أو
المسوخ ولا يكون في الحكم المقيد بقيد مخصوص يوجب عدم استمراره
نحو حرم كذا سنة ونحو (يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأتم حرم)
ونهى الحائض والنفساء عن الصوم والصلاة مدة الحيض والنفساء فانه
متى انقضت السنة في الأول زالت الحرمة بدون أن يأتي حكم ناسخ بعد
اتهاء السنة وكذلك تزول حرمة الصيد متى انتهى الاحرام بدون أن
يأتي حكم ناسخ ولذلك كان الأمر بالاصطياد في قوله تعالى (فاذا حلتم
فاصطادوا) غير ناسخ للحكم الأول بتشريع جديد بل هو ارجاع الى
حكم الصيد الاصل وهو الاباحة كما أن أمر الحائض والنفساء بالصلاة
والصوم ارجاع الى حكمهما الأول وهو الوجوب

اذا قرأت ذلك أرشدك الله نامت أن النسخ عبارة عن بيان مدة
اتهاء العمل بالحكم الأول بأن يكون خالياً عن التوقيت والتأييد شرع
لمناسبته حال الامة فاذا رقت حالتها أو انحطت عن ذلك الحال جاء الحكم

الناسخ مبيناً مدة انتهاء العمل بالحكم الأول فحله الاحكام الشرعية العملية الفرعية وأنه لا ياتي في الاخبار الا اذا كان لفظياً أى ناسخاً للتلاوة دون الحكم بمعنى أن العمل به باق ولا يتعبد بتلاوته فلا يثاب على قراءته ولا يقوم مقام ما يتلى من القرآن في الصلاة ولا نذهب بك الى أقسام النسخ من حيث الحكم والتلاوة أو أحدهما دون الآخر وذكر أمثلة ذلك وحكمته احالة على ما هو واضح في كتب الاصول وانما غرضنا في مقامنا هذا أن تعلم حقيقة النسخ وأنه مما تقتضى به الشرائع الحققة وقد اتفق المحمديون والمسيحيون على جوازه وأنكره الموسويون مستندين على ظاهر عبارة التوراة المفيدة أن العمل بها لا يزول ما دامت السموات والأرض وهذه العبارة ليست قطعية فيما فهموه لجواز أن ذلك بالنسبة للمقاصد العامة في الشرائع كما قلنا أو أن المراد بذلك طول استمرار العمل بها حتى يحىء شرع آخر وقد أنكره أيضاً أبو مسلم الأصفهاني فإنه لم يرتض القول به وأول كل ما يقتضيه إذا تقرر لديك ذلك علمت أن العلم الحق والشرع العادل يقتضيان على ما بيناه - (ازالة شك وايضاح خفاء) ربما عرض لك من بياننا هذا أن الأمم لا تقف عند حال واحدة من حيث الرقى والانحطاط والطباع وهذا يقتضى تعاقب الأنبياء ما دامت الأمم كذلك فكيف تكون شريعتنا خاتمة الشرائع - وازالة هذا الخفاء لا تستدعى أن نذهب بك بعيداً عن أغراض هذه الشريعة الحققة ألت تعلم انها حرمت كثيراً من الأشياء الضارة وأباحها للضرورة وأوجبت كثيراً من الأشياء النافعة وسلبت وجوبها لذلك أيضاً فإنه قد ذكر في الآية الكريمة تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله

به وذكر فيها بعد ذلك فمن اضطر في مخصصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم ومعنى ذلك تأثير جنس الضرورة في جنس الحكم تخفيفاً ولذا لا يحظر شرب الخمر لازالة الغصة اذا تعين طريقاً لذلك وللتداوى اذا أخبر به طبيب عادل وتعين طريقاً له أيضاً ولا يكون المؤخر للصلاة أو الزكاة عن وقتها آثماً اذا أكره على ذلك ولا يقتل القاتل المكره على القتل ولا يدفع المتلف مال الغير المحترم اذا أكره على اتلافه الى غير ذلك من الاحكام الدائرة مع النفع أو الضرر وجوداً وهدماً وهي كثيرة الامثال وما يتجدد من الأعمال في الأزمان المستقبلية ولم يكن موجوداً وقت التشريع ولم يبين له حكم يعلم حكمه من القياس على نظيره الذي نص الشارع على حكمه وقد أمرنا بذلك قال تعالى (فاعتبروا يا أولى الأبصار) والاعتبار معناه ردّ الشيء الى نظيره في الحكم وهذا أمر عام في ذاته وان كانت الآية في العقوبات وفي واقعة خبير

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضى الله عنه حين أرسله الى أهل اليمن بم تقضى قال بكتاب الله قال فان لم تجد قال فبسنة رسوله قال فان لم تجد قال أجتهد برأى فقال الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله فلو لم يكن قوله حقاً لما أقرّه وما حمد الله عليه وكذلك رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعري رضى الله عنه حين ولّاه القضاء فانه قال فيها (وقس الأمور بأشباهاها) وقد ورد في الحديث الشريف ما يفيد أن الله يبعث على رأس المائة لهذه الأمة من يجدد أمر دينها وهذا يقتضى أنه قد يظهر في أمته من يرد أحكام الاشياء المحدثه التي قد تنبسط فيها الآراء الى نظائرها التي نص الشارع على حكمها

ردًا حقاً نشأ عن المعرفة الصحيحة مجاناً لما تقتضيه الاهواء الباطلة وذلك
بواسطة ما يمنحه الله من الوقوف على أغراض الشريعة الغراء واعتصامه
بها وما يتصف به من العدالة والتقوى ونبت الاهواء الفاسدة والأغراض
الباطلة. كأنى بك بعد أن ذكرت لك قليلاً من كثير وقد زال هذا الخفاء
وضحت لك طريق الاذعان بأن تلك الشريعة الشريفة صالحة لكل
أمة في كل الأزمنة والأمكنة ولا نجحيل المكابر في ذلك على شيء سوى
الادمان على مطالعتها وتفهم ما اشتملت عليه من الأحكام والحكم
والآداب مما يقول فيه المطلع المنصف ليس في الامكان أبدع مما كان
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

الباطنية

قبل الشروع في بيان مضار هذه الفرقة الضالة نقول ان الثانوية قوم ظهر
أمرهم قديماً في الفرس وقالوا ان الاله اثنان النور وهو اله الخير والظلمة
وهو اله الشر وان هذين الالهين مع الطبائع الأربعة التي هي الحرارة
والبرودة والرطوبة واليبوسة مدبرات العالم ومنهم فرقة ماني المشهورة
الذي ظهر بعد المسيح عليه السلام وكان قسيساً ثم ادعى ما ادعاه وانتحل
مذهب أولئك الثانوية وقد شاركهم المجوس في القول بصانعين وأن
أحدهما قديم وهو الاله الفاعل للخير والآخر شيطان محدث فاعل للشر
وشاركهم الباطنية في أن المدبر للعالم اثنان أحدهما الاله وثانيهما النفس
وأن ذلك التدبير يكون بواسطة الكواكب السبعة والطبائع الأربعة وهذا
بعينه قول المجوس من جهة تعدد الاله والصائبة من جهة تأثير الكواكب

والسبب في بدء أمر هذه الفرقة أن كثيراً من أبناء الفرس دخلوا في الدولة العربية كرهاً ودان ظاهرهم للإسلام خشية من سيوف المسلمين أو رغبة في الزلفى عندهم ابتغاء الثراء وعظم الجاه وعمدوا عزائمهم باطناً على الدعوة الى دينهم خفية وتدريباً ونقل الملك من الأمة العربية الى أمتهم وكان ذلك على ما يظهر بعد قتل أبي جعفر المنصور أباً مسلم الخراساني لما بدا منه من محاولته الملك مستتراً بالميل الى العلويين كي يتم له ما يريد فبدأ أولئك القوم بأن يظهروا للمسلمين تحسين وضع الجمار في المساجد (وفي هذا عبادتها وتعظيمها كما هو مذهب المجوس) ولما علم جعفر البرمكي مكاتته عند الرشيد وانقياده في الغالب لرأيه أشار عليه بوضع الجمار في الكعبة وغرضه من ذلك التقرب من عبادة النار في أجل بيت من بيوت الله تعظمه وتؤمه أفراد الأمة الاسلامية في جميع البقاع ومعلوم ان آباء جعفر من بيت سدة النار في بلاد الفرس ففطن الرشيد لذلك وعلم أنه يبطن المحبة لدينه ويرغب فيه ويحاول انقياد المسلمين اليه من حيث لا يشعرون فنكبه ونكب أسرته لذلك ولم يفقه هذا كثير من الشعراء ومحبي آل برمك فقصّدوا في رثائهم القصائد وقضوهم ما لا يستحقونه بكاء ونحيباً لما لهم من الأيادي العظيمة والنعم الوفيرة على قاصديهم رجاء استرقاق القلوب حتى يتم لهم ما يحاولونه من ادخال دينهم شيئاً فشيئاً في نظام الدين الاسلامي . وقرب عهد المسلمين بنبيهم وشدة تمسكهم بدينهم الحقيقي كان سداً منيعاً في وجه أولئك الاقوام

ولما قام بالملك المأمون وكان شيعياً مولعاً بالجدل كما قلناه وترجمت في أيامه الفلسفة من اللغة الفارسية واليونانية والسريانية الى العربية وأخذ

الناس في الاكثار من ذلك وأطلق للعقول سراحها وألف ذلك العامة
ووجدوا للقول مجالاً فبدؤوا باظهار دعوتهم وتسترها بأنهم ينتمون الى اسماعيل
ابن جعفر الصادق رضى الله عنهما وقاموا بالدعوة اليه والى ذريته لما يعلمونه
من ميل أغلب المسلمين الى آل البيت وأن قلوبهم أشربت حبهم وندبوا
اليهم كثيراً ممن لهم الحول والطول من أمراء الخلفاء وبطاتهم واستعانوا
بعديد من العلماء الذين أضلهم الله على علم وزحزحهم عن محجة الدين
الواضحة الاذمان على مطالعة الكتب الفلسفية وجعل على أبصارهم غشاوة
زخرف الحياة الدنيا من ثراء وجاه فاخذوا يؤلفون لهم الكتب ويدونون
الرسائل ويبعثون بها الى من يدعوهم اليهم ويعتضدون به من العلماء
والعظماء وكان همهم في تلك الرسائل التشكيك في الدين وعرض المشكلات
منه على المطالع كي يحار عقله ويمدونه بأنه اذا لبي دعوتهم وأجابهم الى ما
يطلبونه من اليهود والموثيق أوقفوه على معاني تلك الغوامض فاذا تم لهم
ذلك وانتظم في عقدهم خرّجوا له القرآن والسنة على ما يوافق مبادئهم التي
وضعوها على حالة تخرّج عليها تاويل نصوص الدين لأنهم يقولون بأن
للقرآن الكريم والحديث الشريف ظاهراً وباطناً وأن التمسك بالأول
كاف في الحياة الدنيا كما أنه لا يجدى في الآخرة الا التمسك بالثاني
وخلطوا بأغراضهم هذه كثيراً من العلوم الفلسفية أماطوا فيها اللثام عن
أغراض قائمها سواء في ذلك الحساب والمهندسة والموسيقى والأفلاك
وبعض الامور العامة والالهيات وشرحوا أدوار الكواكب وقراناتها
وبيان سعورها ونحوها وألغوا الى تأثيرها وذكر كثير من آي القرآن
الكريم والحديث الشريف وحملوا كثيراً منها على غير ظاهره رجاء اقبال

من يطالعها عليها وانتظامه في عقدهم وهذه الرسائل هي المسماة باخوان
الصفاء . ذهب منهم ميمون بن ديسان مولى جعفر بن محمد بن اسماعيل بن
جعفر الصادق الى الغرب وزعم أنه من نسل عقيل بن أبي طالب فتبعه
بعض من غلاة الروافض والحلولية ثم ادعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل
بن جعفر مع ان محمداً مات ولم يعقب وقد اتفقت الاسماعيلية والخرمية
(وهم طائفة على رأى المزدكية الذين نوهنا بمذهبهم فيما تقدم) على انتشار
هذه الدعوة لأن آراء الفريقين وأغراضهما متقاربة وقد اشتد أمرهم على
الاسلام ونكوه أعظم نكاية لأن كثيراً من قواد الخلافة وأمرائها أجاب
دعوتهم وانتقاد رأيهم على غرة منه أو طمعاً في التقرب منهم رجاء الوصول
الى المنافع الدنيوية لأنهم كانوا يزعمون أن القرانات الفلكية تدل على
انتقال الملك من العرب الى الفرس في تلك الأزمان

واستدل بعضهم على ذلك بما يرويه المجوس عن زرادشت من أن
الملك يزول عن الفرس الى الروم واليونان ثم يعود الى الفرس ثم يزول
عن الفرس الى العرب ثم يزول عن العرب الى الفرس وبما قاله جاماسب
المنجم من أن الملك يعود من العرب الى الفرس لتمام ١٥٠٠ سنة من
وقت ظهور زرادشت واذا ضممنا ما بين المدة التي عظم أمرهم فيها وهي
مدة دخول زعيمهم أبي طاهر سليمان بن الحسن مكة واقتلعه الحजर
الاسود وذلك سنة ٣١٧ الى المدة التي بين الهجرة وغلبة الاسكندر
المقدوني دارا وهي ٩٢٤ سنة على ما يؤخذ من الجدول التاريخي الذي
وضعه أبو الفداء الى ما كان من المدة بين غلبة الاسكندر داراً وبين
زرادشت الذي ظهر في مدة ملك الفرس المسمى كيستاشف وهي ٢٠٠

ونيف وخمسون سنة وجدنا المدة نحواً من ١٥٠٠ سنة . وتحقق قول
زرادشت في زوال الملك من الفرس الى اليونان ثم رجوعه اليهم ثم انتقاله
الى العرب أكد لديهم عودته من العرب الى الفرس . وبيان المدة التي يعود
منها اليهم حمل أبناءهم على الإقامة بهذه الدعوة لما اقترب وقتها ووجدوا لها
جوازاً وخالوا أن الانتساب الى العلويين من أكبر دواعي نجاحهم في
ذلك . ولذا أكبروا من شأنهم وأطروهم مدحاً وثناءً وغالوا فيهم مغالاة
لا يرضونها لأنفسهم وما قصدوا بذلك سوى قلب الدين الشريف الى
المجوسية والدولة من العربية الى الفارسية ولذا ورث أبناء الفرس المغالاة
في آل البيت غافلين عن سبب ميل أسلافهم الى تلك البضعة الطاهرة
وقد صحبنا كثيراً من فضلائهم فرأيناهم ينكرون ذلك ويأنفون منه وحسبنا
دليلاً على مروق طائفة الباطنية من الفرق الاسلامية ما بيناه سابقاً
ونعضده بالأدلة التي سنذكرها بعد

من القائمين بدعوتهم أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنباني
كبير القرامطة (سموا بذلك لأن الشخص الذي دعاهم ورأسهم مرض بقرية
من سواد الكوفة فحمله رجل من أهل تلك القرية يقال له كرمية لحمرة
عينه وهو بالنبطية حمرة العين فسمى كبيرهم باسم الرجل الذي حمله)

عاش في الأرض فساداً وتعرض للحجيج وأسرف في قتله ودخل
مكة سنة ٣١٧ هـ وقتل الطائفين بالبيت وقيل أنه قتل فيها ٣٠٠٠ نسمة
وطرح بعض القتلى في بئر زمزم ودفن الباقي في المسجد الحرام وأخرج
منها ٧٠٠ عذراء واقتلع باب البيت وأصعد رجلاً ليقطع الميزاب فسقط
ومات وأخذ كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه واقتلع الحجر الأسود

وحمله الى البحرين ثم الى الكوفة وقد رده الى الكعبة أبو اسحاق ابراهيم
ابن محمد مزي نيسابور سنة ٣٢٩ هـ . ولما ورد هيت رمتها امرأة من
سطحها بلبنة فقتل . قال أبياتاً زعم فيها أنه اذا طلع المريخ وقارته زحل
والمشتري يتم له الملك ويملك سبع قرانات وهي

أغرکم منى رجوعى الى هجر عما قليل سوف يأتیکم الخبر
اذا طلع المريخ فى أرض بابل وقارنه النجمان فالخذر الخذر
أست انا المذكور فى الكتب كلها ألت انا المبعوث فى سورة الزمر
سأملك أهل الأرض شرقاً ومغرباً الى قيروان الروم والترک والخزر
وقد وجد زحل والمشتري مع طلوع المريخ أيام قيامه بالدعوة وما تم له من
الملك سبع سنين فضلاً عن مدة سبعة قرانات (وقد نص متقدمو علماء
التنجيم على أن مدة القران الذى يستدل به على انتقال الملك من شخص
الى آخر وما يحصل من الفتن والحروب من جراء ذلك ٢٠ سنة وقالوا
ان دورة زحل تتم مرة واحدة فى كل ٣٧٨ يوماً وأن دورة المشتري تتم
فى كل ٣٩٩ يوماً) ولعل معنى قران الكواكب اجتماعها فى أول درجة من
برج الحمل وعلى هذا فيكون قران زحل والمشتري الدال على انتقال الملك
من شخص الى آخر ٢٠ سنة تقريباً وذلك يكون باستخراج المضاعف
البسيط بين ما تساويه دورة كل منهما من الأيام وقسمته على ما تساويه
السنة الشمسية منها . ومنهم أبو زكريا الطامى الذى قام بالدعوة بالبحرين
والاحساء سنة ٣١٩ هـ وسنّ لاتباعه اللواط وأوجب قتل الغلام الذى
يتمتع على من يريد به الفجور وأمر بقطع اليد التى تطفى النار ولسان
من يطفئها بنفخة وقد نص المؤرخون على أنهم أباحوا لاتباعهم شرب

الثور ونكاح البنات والاخوات كما هي شريعة المجوس وأطلقوا أيديهم في جميع اللذات الشهوية

أطنا معك القول أيها المطالع وقصصنا عليك نبذاً من التاريخ ليس هذا موضعها لنقف بك على هذه الطائفة المارقة ونسوق بذلك فكرك الى الحكم على الطريقة التي سلكها الامام أبو الحسن الأشعري رجل الامم الذاب عن حوزته في معارضة أولئك القوم الضالين المضلين وقد تطوحننا في المقام وما أقنا دليلاً يقنع المسترشد على أن رسائل اخوان الصفاء هي من وضع دعاة الباطنية وقياماً بذلك نذكر لك نبذاً من بعض رسائلها تتفهم من خلالها التشكيك في الدين وأنهم يأخذون ببواطن آي القرآن الكريم كما هي حالتهم مع الاشارات الى عود الملك اليهم كما قال زرادشت وجوماسب ودلت عليه القرانات الفلكية ولعلك بعد ذلك يقع ما قلته لديك موقع القبول

جاء في الرسالة السابعة من رسالة الدعوة الى الله تعالى ما نصه واعلم يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه بأن شيعتنا واخواننا المتفرقين في البلاد وسائر من ينسب اليانهم في أحوالهم ومراتبهم على منازل ثلاث فطائفة منهم خواص وعقلاء متدينون أخيار فضلاء وطائفة أغبياء أشرار أردياء وطائفة بين ذلك متوسطون ولكل طائفة منهم آراء ومذاهب هم فيها مختلفون وأقويل مفتنة هم بها مشغوفون وأخلاق وسجايانهم بها متغاïرون ولهم مع ذلك أفعال وأعمال هم لها معتادون فتريد أن نذكر كل طائفة منهم باوصافهم ونذكر عليهم بعلاماتهم حتى اذا دخلت مدينة أو بلدان من البلدان ولقيت منهم أحداً تبينتهم بعلاماتهم وعرفتهم بسماهم فليتهم

بالتحية والسلام وداخلت كل طائفة منهم باللفظ قدر ما تقتدر عليه من الرفق والمداراة وذكرتهم من علمنا بحسب ما تقبله قلوبهم وأقيمت اليهم من أسرارنا حسب ما تحتمله عقولهم وتتسع له نفوسهم وتبلغ اليه همهم وتتصوره أفهامهم وتكون في ذلك كمثل الطبيب الحكيم الرفيق الذي قد ذكرت قصته في أول الرسالة لاخوان الصفاء (فصل)

ان من خواص اخواننا الفضلاء أنهم العلماء بأمر الدبانات العارفون بأسرار النبوات المتأدبون بالرياضيات الفلسفية واذا لقيت أحداً منهم وآنت منه رشداً فبشره بما يسره وذكره بما تشاف دور الكشف والاتباه وأنجلاء الغمة عن العباد بانتقال القران من برج مثلثات النيران الى برج مثلثات النبات والحيوان في الدور العاشر الموافق لبيت السلطان وظهور الاعلام (واعلم بأن) من اخواننا وأهل شيعتنا طائفة أخرى لا يعترفون بوجودنا شاكون في بقائنا متحIRON فيما يعتقدون من هوالاتنا وطائفة أخرى موقنون ببقائنا لكنهم غافلون عن أمرنا غير عارفين بأسرارنا وكلام منتظرون لظهور أمرنا مستعجبون لمجيء أيامنا مشتهون نصره أمرنا فاذا لقيت منهم أحداً فبشره بما يسره وأقر عينه بما يظنه بعيداً مما يؤمله وعرفه أن ما يرجوه غير بعيد وذكر من وثقت بهم من اخواننا بما ألقينا اليك من علمنا وأطلعته على ما أطلعناك عليه من أسرارنا كيما تطمئن نفوسهم فيما يعتقدون فينا وتبين لهم صدق ما هم مقرون به من أمرنا وأخرج اليهم من رسائلنا ما ترغب نفوسهم فيه وترتاح اليه وليكن ذلك على النظام والترتيب كما بيننا لك فلهم اذا استمعوا لقراءتها وفهموا معانيها انتبهت نفوسهم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وحييت بروح المعارف كما

ذكر الله جلّ ذكره (ألمن كلّ ميثاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى في
الناس كمن مثل في الظلمات ليس بخارج منها) (واعلم) يا أخى أن في
الناس طائفة من أهل ملتنا مقرون بفضلنا وفضل أهل بيتنا ولكنهم
جاهلون بعلومنا فإفلون عن أسرارنا وحكمتنا فمن ذلك أنهم يجحدون
وجودنا وينكرون بقائنا ومع هذا فإنهم يروون بشيعتنا المقرين بوجودنا
المنتظرين ظهور أمرنا ومعاندون لهم متعصبون عليهم مبعضون لهم
وجاء قبيل آخر هذه الرسالة واعلم أن الملك والدولة ينتقلان في كل
زهر وزمان ودور وقران من أمة الى أمة ومن أهل بيت الى أهل بيت
ومن بلد الى بلد واعلموا أن دولة أهل الخير يبدو أولها من أقوام خيار
فضلاء يجتمعون في بلد ويتفقون على رأى واحد ودين واحد ومذهب
واحد ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون
ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصره بعضهم بعضاً ويكونون كرجل واحد
في جميع أمورهم وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم وفيما يقصدون من
نصرة الدين وطلب الآخرة لا يعتقدون سوى رحمة الله ورضوانه عوضاً
فأبشروا أيها الاخوان بما أخبرناكم وثقوا بالله في نصرته لكم اذا بذلتم
مجهودكم كما وعد الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ولننصرنَّ
الله من ينصره وان حزب الله هم الغالبون)

وجاء في الرسالة السادسة من ماهية الناموس الالهى ما نصه واعلم أنه
ليس من جماعة على المعاونة في أمر من أمور الدين والدنيا أشد نصيحة
بعضهم لبعض ولا أحسن معاملة من اخوان الصفاء وذلك أن كل واحد
منهم يرى ويعتقد أنه لا يتم له ما يريد من اعلاء الدين الا بمعاونة أخيه

وكل واحد منهم يريد ويحب لأخيه ما يريد ويحب لنفسه وكذلك يكره له ما يكره لنفسه وقد بينا في رسالة لنا قبل هذه كيف يكون صفوة الأخوة وما شرائطها فتأملها أيها الأخ وأعرضها على اخوانك وأصدقائك ممن ترجو منه الصلاح والنصيحة والمودة توفق ان شاء الله (فصل)

واعلم أن هذا الأمر الذي قد ندبنا اليه اخواننا وحثنا عليه أصدقاءنا ليس هو برأى مستحدث ولا مذهب محدث بل هو رأى قديم قد سبق اليه الحكماء والفلاسفة الفضلاء وهو طريق سلكه الانبياء عليهم السلام ومذهب مضى عليه خلفاء الانبياء والأئمة المهديون وبه كان يحكم النبيون الذين أساموا للذين هادوا والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وهي ملة أبينا ابراهيم وبه سمانا المسلمين من قبل وفي هذا القران وهو الاجتماع على رأى واحد بترك الاختلاف وموافقة النفوس وتأليف القلوب والخطاب بصدق الأقويل والتصديق فى الضمائر وأن لا يكذب بعضها بعضاً ولا يخدع ولا ينخدع وينصح ولا يخون ويشق ولا يتهم ويتودد ولا يتحاسد ويتحاب ولا يتباغض ويوافق ولا يخالف ويتفق ولا يختلف ويتعاضد ولا يتخاذل ويتناصر ولا يتقاعد ويتعاون على صلاح الدين ويكونوا كرجل واحد ونفس واحدة اقتداء بسنة الشريعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . المؤمنون كرجل واحد ونفس واحدة تتكافأ دماؤهم وأموالهم وهم يد على من سواهم وكما أوصانا الله تعالى وقال وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وقال وأصبحتم بنعمته اخواناً (فصل)

واعلم أنه ما من جماعة تجتمع على أمر من أمور الدين والدنيا وتريد

أن يجرى أمرها على السداد وتكون سيرتها على الرشاد ألا ولا بدلها من رئيس برأسها ليجمع شملها ويحفظ نظام أمرها ويراعى تصرف أحوالها ويجمع على الانتشار جماعتها ويمنع من الفساد صلاحها وذلك الرئيس أيضاً لا بدله من أصل يبنى عليه أمره ويحكم به بينهم وعلى ذلك الأمر يحفظ نظامهم ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة اخواننا والحكم بيننا العقل الذى جعله الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه الذين هم تحت الأمر والنهى ورضينا بموجبات قضاياه على الشرائط التى ذكرناها فى رسائلنا وأوصينا بها اخواننا فمن لم يرض بشرائط العقل وموجبات قضاياه ولم يقبل تلك الشرائط التى أوصينا بها اخواننا أو خرج عنها بعد الدخول فيها فعقوبته فى ذلك أن نخرج من صداقته وتبرأ من ولايته ولا نستعين به فى أمورنا ولا نعاشره فى معاملتنا ولا نكلمه فى علومنا ونطوى دونه أسرارنا ونوصى بمجانبته اخواننا اقتداءً بسنة الشريعة كما ندبنا اليه ربنا جلّ وعزّ فقال لقد كان لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومه انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله وقال عزّ وجل يا ايها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله - الآية

وورد فيها أيضاً ما يأتى (فصل) واعلم أن للكتب الالهية تنزيلات ظاهرة وهى الالفاظ المقروءة المسموعة ولها تأويلات خفية باطنة وهى المعانى المفهومة المعقولة وهكذا لواضعى الشريعة موضوعات عليها وضعوا الشريعة ولها أحكام ظاهرة جلية وأسرار باطنة خفية وفى استعمال أحكامها الظاهرة صلاح للمستعملين فى دنياهم وفى معرفتهم أسرارها الخفية صلاح لهم فى أمر معادهم وآخرتهم فمن وفق لفهم معانى الكتب الالهية وأرشد

الى معرفة أسرار موضوعات الشريعة واجتهد في العمل بالسنة الحسنة
والسير بالسيرة العادلة فان تلك النفوس هي التي اذا فارقت الجسم ارتفعت
الى رتبة الملائكة التي هي جنات لها وهي ثمان مراتب وفاضت ونجت من
الهيولى ذى الثلاث الشعب التي هي الطول والعرض والعمق وارتفعت
في درجات الجنان والمراتب الثمان التي سعة كل واحد منها كعرض السماء
والأرض ومن لم يُرشد لفهم تلك المعاني ولا لمعرفة تلك الاسرار ولكن
وفق للعمل بسنته العادلة وأحكامه الظاهرة فان تلك النفوس عند مفارقتها
الجسد تبقى محفوظة على الصورة الانسانية التي هي الصراط المستقيم الى
أن يتفق لها الجواز على الصراط المستقيم والى هذا أشار بقوله تعالى فقال
ان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه — الآية

وهذا هو الغرض الأقصى في وضع الشريعة الالهية ومن لم يرشد
لفهم تلك المعاني ولا اجتهد في العمل بسنة الشريعة ولا في الدخول تحت
أحكامها ولا الاتقياد لحدودها فان تلك النفوس اذا فارقت الجسد انحطت
الى الرتبة البهيمية التي هي دركات لها وهاوية تهوى فيها كما قال الله تعالى
لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم والى هذا أشار بقوله فأما
ان كان من المقربين فروح وريحان الى قوله وتصلية جسيم وفي معرفة
أسرار هذه النكت الالهية قلت هذه القصيدة والى أسرار موضوعاتها
أشير بها وهي هذه

اقتربت الساعة وانشق القمر وانكشفت عنه أفانين العبر
وان يروا آية حق يعرضوا عنها وقالوا هذا سحر مستمر
وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل شيء فعلوه في الزبر

وجاء فيها

دونكموها يا بني الحق ولا
فكم لها من سامع منتفع
وغافل عن الرموز جاهل
فمن يكن يعلم ما يقوله
بما يبين صدقه بشاهد
بما يكون قربه مشتركاً
فليات بالحكمة في أخباره
مثل مقادير الفروض كلها
وكم أولو العزم وأصحاب الرضا
وكيف أسماء الآله ربنا
وكيف في تفرقه أمته
وكيف أجزاء النبي ستة
لم جعل الرؤيا الصحيح واحداً
وحاملو العرش وفي عدتهم
واختصت النيران في أبوابها
منطلق فيها الى ظلاله
وقال في الذكر عليها تسعة
كأنها قد جعلت عدتهم
وكل من يسلك فيها وله
هذا وما طه وما حم أو

يَسْغَلِكُمْ عَنْهَا أَبَاطِيلُ الْفِكْرِ
يَعْلَمُ مَا يَأْتِي لَهَا وَمَا يَذَرُ
يَقُولُ مَنْ يَقُولُ ذَا فَقَدْ كَفَرَ
وَكَانَ يَجْرِي رَأْيُهُ عَلَى النَّظَرِ
مَنْ الْعُقُولَ لَا يَرْجُمُ مِنْ حَذَرٍ
وَتَسْتَوِي فِيهِ دَعَاوِي مَنْ يُقَرُّ
بِالْعَدَدِ الْمَخْصُوصِ فِي آيِ السُّورِ
مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالطَّهْرِ
طَالُوتُ ذِي الْبَسْطِ وَحَيْدُ الْمُنْتَظَرِ
تَسْعُ وَتَسْعُونَ هِيَ الْحَسَنَى الْكَبِيرَى
عَلَى ثَلَاثٍ بَعْدَ سَبْعِينَ اخْتَصَرَ
وَأَرْبَعُونَ وَهُوَ أَمْرٌ ذُو خَطَرٍ
مِنْ جَمَلَةِ الْأَجْزَاءِ فِيهَا فَافْتَكِرْ
عِدَّةَ أَبْوَابِ الْجَنَانِ فِي الْقَدْرِ
بِسَبْعَةٍ مِمَّا أَتَاهَا وَابْتَدَرَ
فِيهَا ثَلَاثَ شُعَبٍ تَرْمِي الشَّرَّ
يَمْلِكُ مَا فِيهَا جَمِيعاً وَعَشْرَ
لِفِتْنَةِ الْكُفَّارِ أَوْ ذَكَرَ الْخَبَرَ
سِلْسَلَةَ مَقْدَارِ سَبْعِينَ قَدَرَ
طَسُّ أَوْ أَشْبَاهُ هَذَا مِنْ سُورِ

وما أمور أخفيت أنباؤها
 من قصة الجان الذين أفسدوا
 وما هي الحية والطاوس اذ
 وما هي الخنطة اذ حذرهما
 وكيف لما ذاتها بدت له
 وكيف تعليم الغراب أولاً
 وما هي النار التي كانت على
 وما هي الطير التي أنشرها
 وما هو الطوفان اذ عم وما
 وما قيص يوسف وذئبه
 والجب اذ ألقى في غيبته
 وكيف باعوه على مبتاعه
 وما هو البرهان اذ أبصر قاصداً
 وشاهد منه قد استشهده
 وكيف كان بعد ذاقيصه
 وما هو العجل الذي خار وما
 وما دم فاض فصار شرقاً
 وكيف تاهت أمة عظيمة
 والجبيل المرفوع فيهم ضله
 وخرذو الملك سليمان وما
 وما هو الطير وما منطقتها

عن ظاهر بين رعاك كالحر
 واستحوذوا منها بما قد غمر
 كانا معينين لابليس الخسر
 آدم من بين النبات والخضر
 سواته وكان قبل مستر
 قاييل دفنا لأخيه اذ حضر
 خليل ابراهيم برداً اذ شكر
 له الاله بعد موت اذ صبر
 سفينة الألواح فيها والدر
 والدم اذ جرى بأفك مشتمر
 والحبس اذ خص بما منه بر
 بالثمن البخس وبالشيء النزر
 ل عندها السجن مرادى فصبر
 على قيص كان قد من دبر
 فيه شفاء لأبيه مدخر
 صفراء اذ جيأت قتيلاً في البقر
 لمن عليه لا على الماء اقتصر
 دهرأ وأرض التيه كالدار صغر
 يشهده من غاب منهم وحضر
 خاتمه وما العصا ساعة خر
 والريح اذ تجري به ثم تحر

وما هو الكرسي في القائه له عليه جسدا لما اختبر
والعرش اذ أحضره عالمه قبل ارتداد طرفه كما ذكر
ويونس اذ بلعته حوته فشهد الأنجم فيها واعتبر
وما المسيح الروح والمهدى الذي كلم فيه الناس في وقت صغر
وصلب هاروت وماروت وما يعلمان الناس ممن قد سحر
ونوم أهل الكهف والبعث لهم وكلبهم سابعهم حسب الخبر
وسد ياجوج وماجوج ومن يلحسه من زمر بعد زمر
وكيف سواد حجاباً موثقاً نفخ الميعنين وإفراغ القطر
وكيف اذ يقترب الوعد لهم يشخص أبصارهم اذا اتقعر
وما طلوع الشمس من مغربها ما بين قرن وارد لا ينزجر

الى آخر ما جاء في هذه القصيدة وقال بعد ذلك واعلم يا أخي أن
هذه الآيات وما فيها من المسائل انما هو ارشاد للمتأدين باصلاح
الأخلاق وتنبيه للمرتاضين بعلم النفس على الأسرار النبويات وما في
موضوعات الشرائع من الرمز ولا ينبغي لأحد من اخواننا أن يجيب
أحداً اذا سئل عن هذه المسائل الا من قد هذب نفسه وأصلح أخلاقه
لأن صدأ النفس ورداءة أخلاقها مانع من فهم معاني هذه وقد بينا في
الرسالة السابعة التي تتلو هذه كيفية ذلك فافهم ان شاء الله وحده

وجاء في رسالة البعث ما نصه ثم اعلم يا أخي أن معنى القيامة مشتق
من قام يقوم قياماً والهاء فيه للمبالغة وهي من قيامة النفس من وقوعها في
بلائها والبعث هو انبعاثها وانتباهاها من نوم غفلتها ورقدة جهالتها وهي
بالفارسية راست خيز أى قياماً مستويماً واذا قرأت الى آخر هذه الرسالة

علمت أن القوم لا يقولون بالميعاد الجسماني

وجاء فيها أيضاً بعد الكلام على كيفية تعلق النفوس بالابدان وتجردها عنها والافساح للمقول في أحوال الحساب والجنة والنار مما لا يهتدى الى معرفة كنهه البحث العقلي ما نصه واعلم يا أخى أيدك الله وايانا بروح منه بأنك اذا أردت النظر في هذا العلم الشريف والبحث عن هذا السر اللطيف تحتاج أن تقصد أهله وتسأهم عنه كما يقصد في سائر العلوم والصنائع الى أهلها كما قيل استعينوا على كل صناعة بأهلها واعلم يا أخى بأن أهل هذه الصناعة وعلماء هذه الأسرار هم اخواننا الكرام الفضلاء فانظر يا أخى فيما قالوا وتأمل ما صنعوه من حقائق الأشياء التي أنت مقر بها بلسانك وتؤمن بقلبك ثم تفكر فيما تسمع وتأمل ما يوصف لك وميزه بسريرتك واعرضه على قلبك الذي هو حجة الله عليك والقاضي بينك وبين أبناء جنسك فان اتضحت لك حقيقة ما تسمع وتصورت ما يصفون وتيقنت ما يخبرون فبتوفيق من الله وهداية منه وان تكن الأخرى فقد بذلت المجهود وأقت المذراخ

وقد ذكرنا قليلاً من كثير وانما أثبتنا هذا في مجموعتنا هذه لنزيل ما علق بعقول كثير ممن يشتغلون بالمباحث الفلسفية من أن كتاب اخوان الصفاء من وضع علماء الفلسفة الاسلاميين وأنه من نفائس كتبهم معولين في ذلك على عدم التقليد والثقة بمن يدعي ذلك أو يدعي أنه من وضع الباطنية ولك أيها المطالع الحكم على هذا الكتاب بعد ما تلوناه عليك

اذا علمت هداك الله الى مذهب أهل السنة والجماعة مذهب

الباطنية ونكايتهم الاسلام والتفاف كثير حولهم فاعلم أن المتقدمين من
الحنابلة المتمسكين بما يفيد ظاهر الشرع وان ناقضه العقل لا يغنون
شيئاً في الجدل مع أولئك الأقوام ولذا وفق الله الامام أبا موسى
الأشعري للقيام بدحض آرائهم على وجه لا يمكنهم التخلص منه أمام
جمهور المسلمين فإنه تمسك بالأدلة الشرعية في كل ما لا يحيله العقل فإذا
استدل على مطلب من المطالب الدينية تفهم منه المطلع على حاله القارئ
لأغلب آرائه أنه لا يحاول بذلك إلا كون المطلب ممكناً جازاً في ذاته
وما دام الأمر كذلك فيستدل عليه بالدليل النقلى ولا يطمئن قلب مسلم أياً
كانت حاله الى عدم الأخذ بالدليل النقلى في الممكن فكانت آراؤه
وأقواله من أشد ما يدحض أقوال أولئك الأقوام الذين عم ضررهم وقد
آتاه الله من القوة والساد في ذلك ما لا ينكره إلا جاهل أو مكابر وكان
قد اشتغل بتعلم مذهب المعتزلة حتى برع ثم تركهم عقيب مجادلتهم لبعض
أئمتهم أبى على الجبائى زوج أمه في مسألة الأخوة الثلاثة المشهورة ومولده
بيغداد سنة ٢٦٠ هـ وموته رضى الله عنه سنة ٣٣٠ هـ ومن هنا تعلم أنه
كان قائماً بدحض آراء الباطنية أيام شدة بأسهم وقوة دعوتهم وتاريخ
الحنابلة معه معروف

ثم اعلم أن قيام الفرق في ذلك العهد ومعارضتهم واشتغال علماء كل
بتأييد رأيه كان من أكبر العوائق عن الاشتغال بالفيد من الفلسفة في
الحياة الدنيا الذى تترتب عليه أنواع المخترعات التى سادت بها الأمم وقد
تفطن الغربيون لذلك فبعد أن نقلت اليهم وبجشوا فيها على الطريقة القديمة
التي كانت عليها أيام اليونان والفرس والعرب أفاقوا من رقدتهم في القرن

السابع عشر وبحوثها على الطريقة التي تفيدهم في اجتماعهم البشرى
وعمرانهم المدنى فكان ما هو مشاهد من الفوائد التي لا يختلف فيها اثنان
وذلك سر ما تجده لدينا من بقاءها على حالها السابقة بخلافها عند الغريين
في كل ما مضى

هذا وتقف بك هنا أيها القارىء راجينك اللهم الاثابة والغفران عما
عساه أن يكون فرط من الزلل فالخير أردت وما توفيقى إلا بك يا من
لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء لا توفيق الى
اصابة الحق إلا بك ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر
لنا وارحمنا يا من لك الحول والطول خذ بأيدينا الى ما فيه الصواب
والفلاح في بداية أعمالنا وخواتمها انك على كل شىء قدير وبالاجابة جدير
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



فهرست الخطأ والصواب

خطأ	صفحة	سطر	صواب
اعلم ايها الناظر	٦	١	أيها الناظر
وعظائمهم	٣٩	٦	وعظاؤهم
ورتب على فعل	٤١	١١	وقد رتب الشارع على فعل
آلهاً	٩١	٢٠	الها
الآله	٩٣	٢	الاله
لما هو	٩٥	٨	ولما هو
الآلهيين	١٠٧	١٧	الالهيين
ان يكون هو أو جزءه سبباً	١١٠	٢١	ان يكون هو سبباً أو جزءه سبب
القران	١٣٦	١١	القرآن
ويكونوا	١٣٦	١٦	ويكونون
والمهدي	١٤١	٤	والمهد





الجامعة المصرية

الفلسفة العربية والاخلاق

ملخص الدروس التي ألقاها بالجامعة المصرية

سلطان بك محمد

استاذ الفلسفة العربية والاخلاق بالجامعة المصرية

والمدرس بمدرسة دارالعلوم

الجزء الثاني

في الأخلاق



« جميع الحقوق محفوظة للجامعة المصرية »

مطبعة المعارف بشانق الجيزة

﴿ فهرست كتاب الأخلاق الإسلامية ﴾

	صفحة
الكلام على بيان المقصود من الوجود الانساني	٢
رجوع جميع الأخلاق الى ثلاث قوى وتعريف كل واحدة منها	٣
الحكمة وما تشمله من الصفات وتعريف كل واحدة منها	٥
الشجاعة وما تشمله من الصفات وتعريف كل واحدة منها	٧
العفة وما تشمله من الصفات وتعريف كل واحدة منها	٨
العدالة وما تنشأ عنه	٩
تعريف علم تهذيب الأخلاق	١٠
تعريف الخلق وبيان انه جيلى أو غير جيلى	١١
الكلام على فوائد الحكمة	١٣
الكلام على فوائد الشجاعة ومضار عدمها	١٦
الكلام على فوائد العفة ومضار عدمها	٢٣
الكلام على الصفات المندرجة تحت امهات الفضائل وعلى اضدادها ومثل ذلك الشجاعة والعفة	٢٤
الكلام على الغضب ومضاره	٢٥
اسباب الغضب وعلاجه	٢٧
الكلام على الحلم وطرق الوصول اليه	٣١
الكلام على الحسد . أسبابه . علاجه	٣٣
الكلام على فوائد اعتدال القوة الشهوية . خالق الحياء . خلق الدعة	٣٩
الكلام على الصبر	٤٠

٤٤	علاج ضعف هذا الخلق وغيره من الأخلاق
٤٥	الكلام على السخاء
٤٧	الكلام على الورع
٤٨	الكلام على خلق الغيبة . علاجها
٥٢	الكلام على التهمة - أسبابها
٥٥	الكلام على الصدق
٦١	النظام
٦٤	بيان الأخلاق التي تحسن في بعض الأشخاص دون بعض
٦٩	طريق معرفة الانسان عيوب نفسه
٧١	تأثير البيئة والمجتمعات والدين في الأخلاق
٧٦	التربية
٨٢	الكلام على السعادة وبيان منشأ الخلاف فيها
٨٦	رجوع الشريعة الاسلامية الى مكارم الأخلاق

الاخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا^(١) وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً^(٢) والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً^(٣) انها ساءت مستقراً ومقاماً والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً^(٤) والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلقِ اثمًا ما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخذل فيه مهاناً الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيمًا . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متاباً^(٥) والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراماً والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخزوا عليها صماً وعمياناً والذين

-
- (١) بسكينة وتواضع لا يضربون الأرض بأقدامهم أشراً وبطراً
(٢) سداداً يسلمون فيه من الايذاء والاثم (٣) هلاكاً وخسرانا
(٤) حداً وسطاً والاثام بوزن الوبال والنكال الجزاء والاثم ومعنى مضاعفة العذاب أن يكون على الكفر والذنوب ومعنى تبديل السيئات حسنات محوها واثابهم على الايمان والأعمال وقيل المراد بالسيئات الكفر والقتل والزنا وبالحسنات الايمان وعدم القتل والعفة (٥) أى مرضياً له مكفراً للخطايا جالباً للتواب

يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قوة أعين وجعلنا للمتقين إماما أولئك يجزون الغرفة^(١) بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرًا ومقاما

اعلم أيها الناظر في كتابنا هذا أن لكل موجود خواص يحصل بها كماله إذا تمت له على وفق الغرض المقصود منه ألا ترى أن أكل أنواع الغذاء ما كان أشد تغذية من غيره وأبعد عن الأضرار بالمغذّي وأن أجود أنواع السقيا ما كان أسرع في اذهاب العطش وأعذب مذاقًا نافعًا لصحة الشارب وأجود الخيل ما كان أشد عدوًّا وانقيادًا لراكبه وأن أجل العلوم وأفيدها ما كان أعظم نفعًا في الدنيا والآخرة وهكذا وأنت خير بأن أشرف تلك الموجودات الانسان الذي فضله الله على كثير من خلقه . قال تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) وقد امتنّ عليه بأن سخر لنفعه ما في العالم كما قال خلق لكم ما في الأرض جميعاً

وظاهر أنه لا يتأتى له الانتفاع بذلك إلا إذا كان ذا فكر ثابت سديد وعنيت أفراده به كي يتسنى لكل واحد منهم الوقوف على خواص تلك المخلوقات وفوائدها في الاجتماع البشري والعمران المدني فان توزيع الأعمال على الأفراد أدعى لانجازها والحصول على كثير منها كي يرتفقوا به ويساعدكم على المنافع الدنيوية والأخروية والباحث منهم عن ذلك مظير لآلاء الله جلّ شأنه على أفراد هذا النوع فهو أعظم نفعاً وأكثر فضلاً ممن عطله بخمود فكره وتقيصة كسله وأنت أرشدك الله

تعلم أن حاجة الانسان في غذائه وملبسه وغير ذلك مما تتوقف عليه حياته لا يستطيع أن يقوم بها منفرداً فلا بد من اجتماعه مع بنى نوعه وتوزيع تلك الأشياء عليهم فكيف به في كلالته حتى يعيش عيشة طيبة وانك لتدعن أنه كلما عظمت الألفة ووشجت الرابطة بين أفراد هذا المجتمع واتحدت الوجهة زاد متانة وقوة فيقل تطرق الخلل اليه وتسهل أمامه سبل السعادة . ألسنت ترى بعد هذا البيان الوجيز أن المقصود من وجود الانسان هو الوقوف على حقائق الموجودات وما لها من الخواص والعمل الذى ينهض به وبأتمته الى أوج السعادة وأنه بمقتضى ما قلناه من القانون العام أنه لا تتفاضل أفراده الا بذلك فكل من توفرت لديه القوى النظرية الحقة والقوى العملية المفيدة كان قائماً بما قصد من الوجود الانسانى فكان فيه أفضل ممن كان أخط منه في ذلك . واذا أمعنت النظر وجدت عامة خلال الانسان شريفها وخسيسها ترجع الى ثلاث قوى . الأولى القوة الناطقة وتسمى بالقوة الماكية أيضاً وهى القوة التى يكون بها الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأشياء وخواصها . الثانية القوة الغضبية وتسمى السبعية وهى القوة التى يكون بها الغضب والنجدة والاقدام على عظام الأمور والشوق الى التسلط والترفع وأنواع الكرامات . الثالثة القوة الشهوية وهى التى تكون بها الشهوة الى طلب الغذاء وما لا ياكل والمشارب وغيرها من ضروب اللذات البدنية واذا اعتدلت هذه القوى وكانت على حدها الأوسط واتقاد الأخرى منها الى الأولى فيما يكون عنهما من التصرفات قامت كلها بالأغراض الشريفة التى خلق لها الانسان ولو غلبت واحدة منهن على الأخرى وكان التصرف على خلاف ما تقتضيه

النفس الملكية نشأ عن ذلك شرور على قدر ذلك الخلاف والغلب
ومعلوم أن هذه القوى ضرورية لعيش الانسان وفلاحه ووصوله
الى الغرض المقصود منه فاذا كانت بين طرفي الافراط والتفريط وتصرفت
على مقتضى معلومات النفس الناطقة جلبت الخيرات ودرأت الشرور
وكان صاحبها فاضلاً كاملاً وان تكن الأخرى عمت الشرور وساءت
الأحوال وكان المتصف بها شريراً مردولاً

أنظر الى شخص بليد الطبع لا يعقل له خيراً فيجلبه أو شراً فيدفعه
ولا يشاطر بنى نوعه في شئٍ منهما تراه أحط حالاً من البهائم فانها أجدى
منه بتسخيرها في جلب المنفعة ودرء المضرة والى شخص آخر زادت
فطنته عن حد الاعتدال فأصبح ذا جريرة لا يدرك حقيقة ولا يصدق
بثبوت أمرٍ لآخر لما يعتريه من الشكوك والأوهام التي لا تقف به عند
حد لعدم اعتدال ذكائه فكلماً أدرك أمراً تقضه وكلما تقض شيئاً أثبتته ثم
تقض ما أثبتته وهلم جراً فان ادراكاً مثل هذا لا يعرف به حسن من
قبيح ولا يترتب عليه نهوض الى ابرام أمرٍ أو ايجاد عمل فصاحبه لا يمتاز
عن بليد الطبع فاقد الفهم فلا يكون عنه ما قصد من الانسان وخلق
لأجله . ومثل ذلك يقال في القوة السبعية والشهوية

واعلم أن اعتدال القوة الأولى واستعمالها في المعارف الحقّة دون
الباطلة ينشأ عنه الحكمة واعتدال الثانية وانقيادها للأولى فيما ترسمه لها
فلا تهيج في غير موضع الهياج ولا تحمي أكثر ما ينبغي لها ولا تخمد في
موضع هياجها فتترك حماية ما تدبغى حمايته ينشأ عنه الشجاعة واعتدال
القوة الثالثة وانقيادها للأولى فيما تسنه لها فلا تنهمك في الملاذ الشهوية

على وفق هواها ولا ترد منها ما به قوام البدن تحصل به العفة والسخاء
ويحصل عن اعتدال هذه الأشياء الثلاثة قوة رابعة تسمى بالعدالة
هذه هي القوى الأربع التي أطبق علماء الاخلاق على أنها أمهات
الفضائل وأصولها . ولنبحث الآن فيما يندرج تحت كل واحدة من هذه
الامهات

الحكمة وما تشمله من الصفات

هذا الخلق من خواص الانسان دون سائر الحيوان وهو أن تعلم
النفس حقائق الموجودات وما لها من الخصائص بقدر الطاقة البشرية
وما يجب أن يفعل من الأشياء وما يجب أن يترك بالقياس الى السعادتين
في الحياتين والشقاء فيهما والعلم بالشئ من حيث حسن فعله أو تركه هو
الغرض الذي نتوخاه في علمنا هذا . وعلى ذلك فهي واسطة بين الجرزة التي
هي استعمال القوة المفكرة فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي بمعنى عدم الوقوف في
الفكر عند حد كما قلناه والبلادة وهي تعطيل هذه القوة واطراحها
بالارادة . وتشمل هذه القوة سبعة اشياء لا تتحقق بدونها

أولها (الذكاء) وهو وسط بين الخبث والبلادة . فالأول هو الافراط
فيه حتى يخرج عن حد الاعتدال بأن يستعمل الدهاء والحيل الرديئة فيما
ينبغي فيه الذكاء . والثاني هو التفريط فيه بأن يكون أبه عاجزاً عن ادراك
ما يحسن فيه الذكاء المذكور وكما يكون في العلم يكون في الحصول
على الاشياء

ثانيها (الذكْر) وهو وسط بين اهمال ما ينبغي أن يحفظ والعناية

بما لا ينبغي أن يحفظ فإن الأول تفريط يترتب عليه ضياع ما يجب أن تتذكره القوة النفسية حتى تعمل على اجتلاب ما فيه الخير ودرء ما فيه الشر . والثاني افراط يحصل منه اشتغال تلك القوة بحفظ ما لا يفيدها حفظه وفي ذلك بعض تعطيل لها عن الاشتغال بالأشياء النافعة

ثالثها (التعقل) أي حسن التصور وهو وسط بين الذهاب في تصور الشيء الى أكثر مما هو عليه وقصور النظر فيه عما هو عليه . فإن الأول افراط مؤد الى اشتغال الفكر بما لا يعود بالفائدة بل قد يؤدي الى الخطأ كالبحث عن كون الكهرباء تبصر أو لا . والثاني تفريط قد يوجب عدم ادراك الحقائق والافعال التي ينبغي أن تكون أو لا تكون ادراكاً حقاً وهذا يقتضى أنا قد نعمل ما لا ينبغي وتترك ما ينبغي

رابعها (سرعة الفهم) وهي وسط بين اختطاف خيال الشيء من غير احكام لفهمه وبين الابطاء عن فهم حقيقته . والأول افراط في السرعة المذكورة ينشأ عنه الجهل المركب وهو يستتبع ايجاد ما الكمال في تركه وترك ما يكون الكمال في ايجاده . والثاني تفريط يسوق الى استمرار البقاء على الجهالة واستتباع ذلك جلب الاضرار وعدم تحقق الاغراض المقصودة من الوجود الانساني او لا يخفى

خامسها (صفاء الذهن) وهو وسط بين الالتهاب الذي يعرض له فيمنعه من استخراج المطلوب وبين ضامته التي تعوقه عنه

سادسها (قوة الذهن وجودته) وهي وسط بين افراط التأمل فيما يلزم الشيء حتى يخرج منه الى غيره وبين التفريط فيه حتى يقصر عنه وضرر كل من الطرفين ظاهر

وسابعها (سهولة التعلم) وهى وسط بين الافراط فيها الذى هو المبادرة اليه بسلاسة لا يثبت معها العلم و بين التفريط الذى هو ارتكاب الصعوبة والتعسر فى الحصول عليه

علمت من هذا أن فضيلة الحكمة لا تحصل إلا من توفر اعتدال هذه الاشياء السبعة ولو تأملت لوجدت بعضاً منها لازماً للآخر بل تجد الفرق بينها دقيقاً جداً. واعلم أنه ما دام الحد الوسط فى هذه الاشياء فضيلة يكون كل من الافراط والتفريط رذيلة

الشجاعة - هى كما علمت اعتدال القوة الغضبية التى تكون فى الانسان وغيره من الحيوان . وهى وسط بين رذيلة الافراط الذى هو التهور أى الاقدام على ما لا ينبغى أن يقدم عليه والتفريط وهو الجبن أى الخوف فيما لا ينبغى أن يخاف منه . وقد علمت مما أبناه آناً أنها اعتدال القوة السبعة ولا تحصل هذه القوة الا اذا توفر اعتدال القوى السبعة المحصلة لها وهى (كبر النفس) وهو الاستهانة باليسير والاعتدال على احتمال ما يحتمل من الشدة والهوان وذلك وسط بين الافراط فيه وهو الاستهانة بالكثير واحتمال ما لا يحتمل من الهوان و بين التفريط الذى هو الاعتدال ببعض الاشياء اليسيرة وعدم احتمال بعض ما يحتمل من الذلة و (النجدة) وهى ثقة الانسان بنفسه عند المخاوف حتى لا يخالطه جزع و (عظم الهمة) وهى فضيلة فى النفس تحتمل بها السعادة والشقاء حتى الشدائد التى تكون عند الموت و (الثبات) وهى فضيلة فى النفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها فى الاهوال خاصة ولا يرحزحها ذلك عما تحاوله و (الحلم) وهو خلق فى

النفس يكسبها الطمأنينة فلا تكون شعبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة و (الشهامة) وهي الحرص على عظيم الاعمال توقفاً للأحدوثة الجميلة و (احتمال الكد) وهو قوة للنفس تستعمل بها آلات البدن في الامور الحسنة بالتمرين وحسن العادة و (السكون) أى عدم الطيش عند الخسومات أو الحروب المشروعة وهو قوة للنفس تُقسَم بها حركتها في ذلك تقسيماً مراعى فيه الظروف والاحوال . وهذه القوى التى تحصل عن اجتماعها الشجاعة التى هى اعتدال القوة السبعية لها طرفان افراط وتفريط وكل منهما رذيلة كما قدمناه

العفة - هى صرف الشهوات على وفق رأى الصحيح فيكون صاحبها خيراً غير خاضع لها وهى ناشئة عن اعتدال القوة الشهوية المشتركة بين الانسان وغيره من أنواع الحيوان . وهذه القوة تحصل من اعتدال اثنتى عشرة قوة أولها (الحياء) وهو انحصار النفس خوف اتيان القبيح والحذر من الذم الصادق . وثانيها (الدعة) وهى سكون النفس عند حركة الشهوات . وثالثها (الصبر) وهو مقاومتها الهوى لئلا تنقاد لما لا يحسن كقبائح اللذات والهللح في الملمات . ورابعها (السخاء) وهو التوسط في الاعطاء بأن ينفق الأموال فيما ينبغى على مقدار ما ينبغى وعلى ما ينبغى . وخامسها (الحرية) وهى الصفة التى بها يكتسب الانسان المال من وجهه ويعطيه فى وجهه ويمتنع من اكتساب المال من غير وجهه ومن اعطائه كذلك . وسادسها (القناعة) وهى التساهل فى المآكل والمشارب والزينة المتوفرة . وسابعها (الدماثة) وهى حسن اقياد النفس لما يجمل ما عدا الزينة وتسرعها اليه . وثامنها (الانتظام) وهو حالة فى النفس

تقودها الى حسن تقدير الامور وترتيبها على الوجه الحسن . وتاسعها (حسن الهدى) وهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة على الحد الوسط وعاشرها (المسألة) وهى موادة تحصل للنفس بدون اضطرار اليها بالأ يكون شديد الطاب والمخاصمة فى الامور الشهوية وحادى عشرها (الوقار) وهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التى تكون فى المطالب وثانى عشرها (الورع) وهو ملازمة الأعمال الجميلة التى للنفس فيها كمال من حيث ترك الشهوات وملازمة التقوى

العدالة — هى وسط بين أن يكون الانسان ظالماً لغيره وبين كونه مظلوماً له . والأول يتوصل به الى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغى وكما لا ينبغى ولذلك يكون للجائر أموال كثيرة لأنه يتوصل اليها من حيث لا ينبغى وكما لا ينبغى . وأما الثانى فيؤدى الى قلة المقتنيات والأموال لأنه يتركها من حيث لا يحسن وعلى هذا فالعدالة التى هى الوسط بين الأول والثانى عبارة عن أن يقتنى الانسان مقتنياته من حيث يجب ويتركها من حيث لا يجب فهى فضيلة ينصف بها الانسان من نفسه ومن غيره دون أن يمنح نفسه من المنافع أكثر وغيره أقل وفي المضار لا يجعل نفسه أقل وغيره أكثر بل يستعمل المساواة . والجور ضد ذلك والعدالة كما قدمنا تكون عن أمهات الفضائل الثلاثة السابقة التى هى الحكمة والشجاعة والعفة . وتحصل هذه الصفة بتوفر اعتدال القوى الثمانية الآتية . (الصداقة) وهى المحبة الصادقة التى يهتم معها بجميع أحوال الصديق وإيثار فعل الخيرات التى يمكن فعلها له وهى آتية من الشهامة والقناعة وحسن التعقل الذى هو من القوة الحكمية و (الألفة)

وهي اتفاق الآراء والاعتقادات وتكون عن التواصل والتظاهر على تدبير
أمور الحياة وهي آتية من القوة الحكيمة واعتدال القوة الغضبية وثالثها
(صلة الرحم) وهي اشراكها في الخيرات الدنيوية . ورابعها (المكافأة)
وهي مقابلة الاحسان بمثله أو بما يزيد عليه وهي ناشئة من السخاء وحسن
التعقل . وخامسها (حسن الشركة) وهي الأخذ والاعطاء في المعاملات
على حد الاعتدال الموافق للجميع وهي كائنة عن حسن التعقل واعتدال
العفة . وسادسها (حسن القضاء) وهو مجازاة بغير من ولا ندم . وسابعها
(التودد) وهو طلب مودة الاكفاء وذوى الفضل بحسن اللقاء
والأعمال التي تجلب محبتهم وهي ناشئة عن التعقل والشهامة واعتدال
القوة الغضبية . وثامنها (العبادة) وهي تعظيم الله تعالى وطاعته واکرام
أوليائه من الأنبياء والصالحين والعلماء العاملين والعمل بما تطلبه الشريعة
وتقوى الله تعالى أعظم مكمّل لهذه الأشياء ومتمم لها وهي كائنة
عما تقدم

اعلم أنه اذا توفرت الفضائل السالفة في بنى الانسان فقد عرفوا
الحقائق وخواص الاشياء التي يتمتعون بها ويرتعون باستخراجها في بحبوحة
السعادة واتسموا بفضائل الاخلاق التي توجب لهم ميل الأفتدة وصفاء
القلوب فتقل بينهم المشاحنات وتذهب الضغائن وتعلمم الصلوات فتتحد
الوجهة وتجتمع الأيدي على الأعمال النافعة ودرء المضار فترقى الامة في
درج سعادتها الدنيوية والأخروية

والعلم الباحث عن الصفات الانسانية من حيث استتباعها الكمال
أو النقص من جهة تأثيرها في الاجتماع الانساني قوةً أو ضعفاً وذاكر

طريق الوصول الى فضائلها والتوق من رذائلها هو ما نسميه بعلم تهذيب الاخلاق

الخلق

هو ملكة في النفس يطرد عنها صدور الافعال فلا تكون الشجاعة خلقاً الا اذا كانت راسخة في نفس من اتصف بها فلا يتأخر في موضع الاقدام ولا يقدم في موضع الاحجام وكذلك صفة الحلم وغيرها من الأخلاق الفاضلة ومعلوم أن هذه الصفات لا تخرج عن كونها أحوالاً الى كونها ملكات الا بكثرة تمرين النفس عليها وأخذها بها في مواقعها حتى تعتادها وتصير كأنها غريزة فيها

ومن تأمل في أحوال كثير من الناس يرى أن من بينهم من تكون فيه بعض الأخلاق جبلية فانا نرى بعضاً منهم يغم ويحزن لأقل حادث واذا أبت له أن هذا الحادث عادى لا يقتضى أسفاً ولا حزنًا أعجزتاك تسليته ومن يضحك لأقل شيء واذا حاولت رجوعه عن ذلك استعصى عليك أمره بل انه يصعب عنه التخلي عن ذلك وأن منهم أيضاً من يجبن ويفزع من أى نبوة ويمتلئ قلبه خوفاً ويكاد يذوب رعباً من أى طارئ ولذا ذهب بعض من علماء الأخلاق الى أنها جبلية وذهب آخرون الى أنه لا جبلى منها للانسان وانما ينمو فيه خلق الفضيلة باتباع وسائله من التربية والتهذيب ومصاحبة الأختيار واستعمال الروية والفكر وخلق النقيصة باتباع سبله من مصاحبة الاشرار واهمال التربية والتهذيب والالتقياد للنفس الشهوية أو الغضبية

قال الرواقيون ^(١) ان الخلق الفطرى فى الانسان هو الخير وانما اهمال تربيته وتركه مع وسائل الشر يذهب به الى النقيصة وقال جالينوس ان من الناس من فيه خلق الخير واذا ذهبت به الى خلق الشر استعصى عليك أمره أو خفضت من خلقه الخيرى بعض التخفيض ومنهم من فيه خلق الشر واذا حاولت تغيير خلقه هذا بضده أعيك أمره وربما أنقصت منه بعض النقص ومنهم من خلقه وسط بين هذين الأمرين ويحصل له أحدهما بمراعاة وسائله وطرقه وأبطل قول من قال ان أصل الخلق فى كافة الناس الخير ورأى الآخر القائل بأن أصله الشر بأننا قد وجدنا فى كثير من الناس خلق الشر فان كان من نفسه فقد بطل قول من قال ان أصله الخير وان كان مكتسباً من غيره أو جاء بالفكر والنظر فقد بطل أيضاً قول القائل المذكور لأن ما بالطبع لا يتخلف وأبطل القول الثانى بمثل ما أبطل به الأول

وانا نقول انه ليس شئ من الأخلاق الخاصة طبيعياً للانسان . بل انه قابل لأن يتغير من خلق الى آخر باستعمال وسائل ذلك الخلق الذى ينتقل اليه سواء كان هذا التغير سريعاً أو بطيئاً فانا نرى الانسان فى حالة طفوليته قد يكون له ميل الى خلق الكرم مثلاً ونتحقق ذلك منه تحقّقاً لا لبس فيه فان الاطفال لم يصلوا بعد الى ادراك أن هذا الخلق ممدوح أو مذموم حتى يتظاهروا بالأول دون الثانى كما هو شأن الكبار الذين عقلوا ذلك (ومثل هذا تكون تنمية الخلق الذى فيه مبدأ الميل اليه

(١) هم أصحاب كروسيفس كان يعلم فى رواق بهيكل أثينا وهو من الفلاسفة المتقدمين الذين دثرت فلسفتهم

سريعة جداً) وأن الخلق الذى ليس فيه ميل اليه اذا ترك وشأنه حتى كبر
رسخ وتأصل وأصبحت زحزحته عنه بطيئة تحتاج الى كثير من العلاج
والقول بأن الأخلاق طبيعية لا تتغير مخالف للمشاهد ومعطل لما أمرنا
به من التربية والتهديب ومناقض لما درج عليه البشر من الحث على
الأخذ بوسائل السعادة والرقى

الكلام على فوائد الحكمة

اعلم وفقك الله أن النفس مستعدة بأصل فطرتها الى ادراك الحقائق
وما يعرض لها من الأحكام وهذه اما أن تكون عقلية محضة وتنقسم الى
بديية ونظرية فالبديية ما تحصل للنفس بدون نظر واستدلال ولا يظهر
لنا سبب ذلك وهذا مثل ادراكنا المحسوسات ومثل تصديقنا بأن الواحد
لا يكون في مكانين في وقت واحد والنظرية ما ليست كذلك كتصورنا
ماهية الجن والملك والكهرباء مثلاً وحكمننا بأن الوجود عين الماهية وأن
الابعاد متناهية وأن التسلسل محال وبأن في بعض الأجسام جذباً وأن
من خواصه أنه يحرك الأجسام الثقيلة من موضع الى آخر وأن كل جسم
خفيف يطفو فوق ما هو أثقل منه وأن من خواصه تحقق السباحة
والطيران في الهواء وحكمننا على جذب المغناطيس بأن المختلف منه يتباعد
ويتنافر وأن من خواص ذلك الاهتداء الى طريق السير برّاً وبحراً الى
غير ذلك واما أن تكون شرعية وهي أحكام نظرية يتوقف عليها الايمان
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وثبوت أحكام الأفعال الانسانية
لها من الوجوب والندب والكراهة والجواز والصحة والفساد الخ . ومعرفة

أحوال كل خلق من الأخلاق الانسانية من حيث ما يترتب عليه من
الفوائد الخصوصية والاجتماعية أو المضار كذلك ويلحق بذلك معرفة
طريق التخلي عن رذائلها والتجلى بفضائلها واقبال الناس على استنباط
تلك المعارف النظرية حتى تحصل لديها الحقائق وخواصها وما يترتب عليها
من الأحكام سواء الشرعية أو العقلية التي لم يحظرها الشارع عليه السلام
لكونها لا تعود على موضوعه بالنقض كما أسلفناه كل ذلك أمر تدعو
اليه الشريعة المطهرة كيف والعالم بخواص الاشياء المفيدة في هذا المجتمع اذا
أبرزها أظهر لنا فوائد ما امتن الله علينا به من خلقه لنا جميع ما في الأرض
وسهل لنا مرافق هذه الحياة واذا كان الله جعل لمن عمل صدقة جارية
ثواباً في الحياة وبعد المات لبقاء تلك الصدقة بعد الموت (قال عليه الصلاة
والسلام اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم
ينفع به أو ولد صالح يدعو له) — كان المظهر لخواص الاشياء لبنى نوعه
كي تعينهم على سهولة قضاء حاجهم ويرتفقوا بها ارتفاقاً دائماً أدوم ثواباً
وأعظم أجراً عند الله تعالى متى توفرت وسائل ذلك وقد حث الله عباده
المؤمنين على اكتساب العلوم النظرية وجعلها من أعظم القرب اليه تعالى
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه اذا
تقرب الناس الى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك فانه لا يكون
التقرب بالمعارف الغريزية الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالعلوم الكسبية
ومعلوم أنه يندرج فيها العلوم الكسبية الشرعية كالعقائد المتعلقة
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة حسن الأعمال وقبيحها
وما يترتب على ذلك من الاحكام الشرعية ومعرفة فاضل الأخلاق التي

مدحها الشارع وحض على الالتصاق بها وسافلها التي نهى عن التحلق بها الى غير ذلك من علوم الشريعة الغراء وقد قدمنا أن العلوم النظرية المتعلقة بمعرفة خصائص الأشياء وما يكون عنها من المنافع في هذه الحياة وبراؤها في عالم الخارج من أجل الأشياء التي توجب حسن الذكر عند الناس كافة

انظر أيدك الله الى دليل السير المسمى (بالبوصلة) وما تقرب عليه من قطع المساوف والوقوف على عجائب المخلوقات من البحار والجبال وأشكال أنواع الطيور والحيوان وغير ذلك من الآثار الخالدة والمصنوعات البديعة وما كان من ارتباط الأمم وانتفاع كل بما عند الآخر من الأشياء المادية والأدبية ولا يذهب بك عدوان بعض على بعض الى القدح في نتائج ذلك الدليل لأنه ليس منشأ ما ذكرت بل هو كائن عما جبلت عليه الطباع البشرية من حب الغلب والاستئثار بالمنافع سنة الله في خلقه انظر الى ما سرت به الركبان من اطراء جيم وط الانكليزي مخترع الآلة البخاريه ومقدار ما جاء به من المنفعة في بني النوع الانساني في حياتهم الدنيا فانها أزلت عنا متاعب كثيرة تقضى فيها أزماناً طويلة للحصول على شيء قليل بالنسبة لما نحصل عليه من تلك الآلة من طحن الحبوب وحرث الأراضي واصلاحها وريها وتسيير السفن والقاطرات البرية وطبع الكتب وسك النقود وطرق المعادن الصلبة ورفع الأثقال وما ينشأ عنها من صناعة المنسوجات وغير ذلك من الأعمال التي يحتاج فيها الى القوة أليس ذلك نتيجة البحث والتنقيب عن معرفة خواص الأشياء الكونية وما يترتب عليها من المنافع لبني النوع الانساني وعدم اجتهاد الحيوان

الذى أمرنا الشرع الشريف بأن نرفق به

فوائد الشجاعة — هى احدى أمهات الأخلاق ولا يزيد بها هنا
اقتحام الحروب وركوب أخطارها عند الاقتضاء مع الروية والفكر بل
يزيد بها ما هو أعم من ذلك فتشمل هذا وتشمل الاقدام الأدبي والثبات
على المبادئ الشريفة التى تعود بالفائدة على المجتمع الانساني وهو خلق
فى النفس نمو بالتربية والتمرين كما أن ضدها كذلك فانا شاهدنا أخوين
تربيا تربية واحدة ورأينا أحدهما شجاعا والآخر جباناً وهى بقسميها اذا
روعى فيها الحكمة جلبت الخير ودفعت الضير والقسم الأول منها ألزم لغير
أهل الحضرة فان كثيراً من القبائل أهل البادية الذين نيظت بهم حماية
أهلهم وأموالهم اذا نما لديهم هذا الخلق هموا ذمارهم وكفوا عنهم يد
العدوان وهابهم الظالمون لان النفوس جبلت على حب عدم الغلب وصيانة
الأعراض والأموال فلا يمدون يداً لأولئك القوم الذين علم أمرهم فى
الدود عن حياضهم لانهم يظنون أنهم اذا راموا ذلك منهم ردوا على أعقابهم
وخسروا رجالاً وأموالاً والانسان لا يقدم على عمل الآ اذا تخيل منه نفعاً
فالشجاعة حصن لذويها وصياصى تقصر عنها يد أولئك الطامعين قال زهير
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وقال غيره

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتنى صولة المستأسد الحامى
وهى سياج الأمم وحدى وسائل رقيها وعظم سلطانها فالأمة التى
اتحدت وجهة أبنائها وأصبحت الشجاعة لهم خلقاً تخطو فى ميادين العظمة
واتساع الملك وتتطأ أمامها رؤوس الطامعين واذ قد تبينت القسم الأول

منها علمت ما يترتب عليه من المنافع فان شجاعة قبيلة أو حكومة أو فرد أمام نظيره يستعقب قبض يد ذلك النظير عنه فاذا كانا متصفين بتلك الصفة الفاضلة متكافئين فيها عم السلم وشمل الأمن فعاش كل آمنًا على نفسه وماله وعرضه فتنبسط الأيدي للعمل والكسب

البحث عن خواص الأشياء التي توصل الى الحياة الطيبة هو الغرض المقصود من الوجود الانساني كما تقضى به عامة الديانات السماوية نقل ما معناه أن بعض الصحابة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لدى الكعبة وطلب منه الدعاء على المعارضين الباغين . فقال له الى متى والذى نفس محمد بيده ليطمن هذا الأمر (أى الاسلام) حتى ان الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى الا الله على نفسه والذئب على غنمه الشجاعة درع يقي به الانسان نفسه من أنواع الحيوان المفترس اذا عدا عليه فاذا كان جبانًا امتلاً قلبه رعباً ولو كان ذا سلاح لا يحتاج في استعماله لرد ذلك العادى الى كبير عمل لأن ما لديه من الرعب ينسيه ذلك السلاح أو يعوقه عن استعماله على وجهه فتذهب حياته (وهى أنفس شئ يدافع عنه) بشدة خوفه وجزعه . انظر الى المهلب بن أبى صفرة وموسى بن نصير وما ترتب على شجاعتهما من حفظ كيان المساميين وعظيم فتوحاتهم الشجاعة الأدبية ألزم للكمال الانساني بالنسبة لأهل المدن الذين قامت دولهم بكف يد العدوان عنهم ورددت باغيهم بما لديها من القوانين ووسائل معاقبة ذوى الدعارة والعيث وأمنتهم عدوان المفترس من أنواع الحيوان بما اتخذوه من المنازل والاسوار

وهذا النوع من الشجاعة يساوق الثبات والمثابرة فانه لولا ثبات

ذوى المبادئ الشريفة على مبادئهم والاستدامة عليها لا يثنيهم عن عزمهم
كثرة المثالب والمطاعن لما تمت تلك المبادئ واستقرت بعد أجيال
ذلك أمر معلوم مسطور في تاريخ عظماء الرجال انظر الى الوليد بن
رشد والى سقراط الحكيم وغيرهم من فطاحل العلماء تجد أنهم لو لم يثبتوا
على آرائهم بل نكصوا على أعقابهم أمام قوة معارضيتهم لما انتفع بآرائهم
ومؤلفاتهم . كم من شرور نشأت عن التردد في العمل والخور في العزيمة
كثيراً ما يعرف الرجل وجه العمل ويعجز عن سلوكه . كم من آمال كلها
تحمس لا نتيجة لها الا الأقاويل . انما ينفع لسان صامت وفعل ناطق
العمل خير ما تقام به الحجة على الحساد والجهلاء والظامة القادرين .
العمل تحت سياج السكوت أنفذ للوصول الى القاصد وأمنع معقلاً يمنع
من الجبوت . انا في حاجة الى قدر وفيرة تقاوم بها شرور الجهلة ونعتصم
بها من سلطة ذوى الأيدي القاهرة فما أحوجننا في أعمالنا الممدوحة الى
همم عالية وقدر طائلة مع الاناء والحكمة التي تقاوم بها تلك الآراء المضادة
والقدر الغالبة . لا نسعى في هذا العصر الى استمالة كريم الأخلاق حسن
التربية كما أن الرجل لا يرقى بظهر صلب بل بظهر ذى غضروف لين
كذلك لا ترقى الرجال بقومها الا اذا لانت أقوالها وعظمت أعمالها . لا خير
في قول لم يصحبه فعل . اذا أراد الله بأمة شراً رزقها القول وحرمها العمل
ليس الثبات والمثابرة على جليل الأعمال خاص بالرجال . عليك تاريخ قره
العين وجاندرك تر الثبات والمثابرة في أجلى معانيها . اقرأ تاريخ المخترعين
وما لهم من المنافع تعلم أن الشجاعة اذا روعى فيها القوة الحكمية جلبت
المنافع الجمة ودرأت المضار الكثيرة . لولا العالمون ذوو الشجاعة والثبات لما

تحولت الأمم من بؤس الى نعيم ومن انحطاط الى رقيّ ومن ظلم واستبداد الى عدل وشورى

هذه تواريخ الأمم الحاضرة يرشدنا قديمها وحديثها الى أنها لم تصل الى ما هي عليه الآن الا بأفلام السكاتين واختراع المخترعين واتحاد عقلائها وثبات أبنائها في جلب الخير ودفع الضرّ وهذا مما لا يحتاج الى ايضاح . انظر القدوة العظمى لى النوع الانساني وهو سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما لاقوه من الشدائد في تبليغ دعوتهم ترّ العجب العجاب فقد قام عليه السلام بالدعوة منفرداً بين قوم عرفوا باللجاج والتمسك بباطلهم وتظاهروا عليه صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله وقالوا بعدم مصاهرة أسرته وبالجملة فقد لاقى في سبيله الأهوال والمصائب وهاجر من موطنه واحتمل ما لا يحتمله غيره كل هذا لم يرجعه عن دعوته وانذاره وتبشيريه فلقد كان يمتليء قلبه فرحاً اذا هدى الله به قلب رجل أو امرأة الى الدين الحنيف واذا تولوا وأعرضوا اشتدّ أسفه وحزنه قال تعالى (فلعنك باخع نفسك على آثارك ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) وقد كان عليه السلام أشجع الشجعان فقد ثبت في غزوة حنين دون الكثير من أصحابه

قال على كرم الله وجهه لقد رأيتى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً . وقال أيضاً كنا اذا احمرّ البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه وقال عمران بن حصين رضى الله عنه ما لقي رسول الله كتيبة الا كان أول من يضرب ولما غشيه

المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
فارؤى يومئذ أحد كان أشجع منه

وهذا شيء يسير من كثير اشتملت عليه سيرته الشريفة فلو لم تكن
الشجاعة بمعنيها أمراً ممدوحاً ترتب عليه المنافع والفوائد لما كان عليه
الصلاة والسلام أرقى الناس فيها . انظر الى أبي بكر الصديق رضي الله
عنه فان شجاعته القلبية قام عليها بقاء الدين الاسلامي واتساع نطاقه

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتجت المدينة وأصبح الأمر
فوضى . وقال عمر رضي الله عنه ما مات ولكنه رفع الى ربه وسيعود كما

ذهب موسى وعاد الى قومه . ولزم على كرم الله وجهه داره آسفاً حزيناً
وسار عثمان رضي الله عنه هائماً في طرقات المدينة . وجاء أبو بكر ودخل

على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الغطاء عن وجهه وقبله وقال بأبي
يا رسول الله لقد طبت حياً وميتاً ثم خرج وقال أيها الناس من كان يعبد

محمدًا فان محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . وما
محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على

أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله
الشاكرين . قال عمر فكأنني لم أسمعها إلا من أبي بكر وكذلك قال غيره

من الصحابة لما استولى عليهم من الدهشة لهذا المصاب الجلل . ولما كان
رفيع المنزلة لديهم ورأوا عظيم ثباته وجميل صبره عولوا على الاستمسك

بقوله في هذا الحادث الخطير فسألوه عن مكان الدفن وعن الصلاة عليه
صلى الله عليه وسلم فأجاب عن ذلك كله بما فيه الفائدة ودفع الاضرار

ارتدت العرب ما عدا أهل المدينة ومكة والطائف ومنعت الزكاة

وهاب عطاء الصحابة رضوان الله عليهم قتلها لكثرتها وخشوا انتقاص الأمر ولكن ثبت أبي بكر وقوته في دينه حملاه على ارجاعها الى ما كانت عليه قبل وفاة النبي عليه السلام . فقد قال والله لو منعوني عقاب بعير كانوا يؤدونه في زمن رسول الله لقاتلتهم عليه . وقام بقتال المارقين وادحاض دعاويهم الكاذبة كمسيمة الكذاب فما هو الآن تم له بثباته وثقته بنصر دينه ما أراد وعلا أمر الاسلام وأخذ في الازدياد ولولا ذلك لعراه ما عراه بوفاة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا نظرنا الى ثبات أرباب المبادئ الحقة على ما أبدوه لأمتهم من الآراء السديدة والمنافع العظيمة التي بها يحسن حالهم وتتم مرافقهم والى شجاعتهم تلقاء ما اعترضهم من الالهوال والمصائب وقيام كثير في وجوههم ولم ينههم ذلك عن عزيمتهم حتى يتم لهم ما أرادوا أو يخلفهم عليه من يتمه ظهر لنا ان هذا الخلق من أعظم دعائم الرقى

اذا صارت الشجاعة خلقاً في كثير من أبناء الأمة أصبح غالباً في مجتمعاتها فان الخلق اذا خلا عنه الشخص منفرداً قد يتصف به اذا كان مع جماعة تضاموا على جلب المنافع ودرء المضار كما عقلاوا فان منشأ الجبن خوف الضرر ولكن للاجتماع ما ليس للانفراد فان الجبان اذا كان في جماعة يتوزع الخوف فيها على الافراد . وربما رجا أن يكون منشأ الخوف الذي هو الاضرار واقعاً على غيره دونه على أن ارادة تشبهه الاشخاص ببعضهم فيما يدعونه كمالاً سريع الوقوع فهذا الخلق ينمو في المجتمع المتكاتف أكثر منه في الفرد فكيف به اذا كان نامياً في الافراد بان لنا أن اعتدال النفس الغضبية ينشأ عنه الشجاعة وأنها من

أجل الصفات الكمالية لما لها من الفوائد في الغرض المقصود من الوجود
الانسانى وهو الحياة السعيدة وأن هذه القوة اذا لم تكن على حد الاعتدال
أخلت بالغرض المقصود من ذلك الوجود فانها اذا تجاوزت هذا الحد
صاعدة ملكت صاحبها فيكثر غضبه وينمو خرقة ويعدم حامه ووقاره
وتقوى جراته فيسرع عند الغضب الى الانتقام ممن غضب عليه فيقابله
الآخر بمثل ذلك وربما كان أقرب الناس اليه . وممن يعتضد بهم ويتبع
ذلك البذاء وأنواع السب وربما كان المغضوب عليه أكثر بذاءة من
الغضبان أو أشد ساعداً فيعود عليه الضرر والمنقصة ويرجع على نفسه
باللائمة . وقد يستعمل للوصول الى أغراضه متى وجد الموانع والعقبات
الخبث والدهاء والمكر والملق (ولذا تجد من أكثر من مصاحبة الظامة
من الملوك قليل الغضب كثير المداهنة والملق) . واذا وصل الى ما يحاول
مرات لا يحتمل السير مما لا يناسبه فيصخب ويغضب ويكثر ميله الى
العسف والجور وذلك مما يوجب تنافر القلوب وازدياد الشحنة والبغضاء
المؤدية الى بتر الصلة الاجتماعية ويئول الأمر الى الاكثار من القتل
والسلب والنهب وان لم يصل الى غرض عظم لديه الحقد والحسد وذات
نفسه وأصبح ممتهاً متى تكرر ذلك . وفي هذا من الفساد ما لا يخفى .
ولذا جاءت الشرائع وقامت الحكومات برده الظالمين والمحافظة على
حقوق الضعفاء حتى الولد من أبيه ووصيه والقاضى ومن يوليه أمره كي
يأمن هذا المجتمع من تطرق الخلل اليه

فوائد العفة ومضار عدمها

فوائد العفة — علمت مما سبق أنها من أمهات الفضائل وأنها ناشئة عن اعتدال القوة الشهوية وأنت ترى أن هذا الخلق إذا نزل عن الحد الوسط أضر بالجسم وأوجد فيه ضعفاً ربما أدى الى سرعة فئائه لأن الانسان اذا أهمل أمر غذائه ضعف بدنه وضاعت فائدة القوة التناسلية فلا تكثر البنين وهذا يستدعى قلة نبي النوع الانساني وتمادى ذلك شيئاً فشيئاً حتى يؤدي الى الانقراض وكذلك اذا أهمل الشراب واللباس وغيرهما من الملاذ البدنية التي يتوقف عليها نماء الجسم وحياته وزينته (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين) . ومثل ذلك بعض المحسوسات التي تزيد في نشاطه من المسموعات والمشمومات والمأموسات السائغة واذا تجاوزت ذلك الوسط صاعدة الى طرف النهاية نشأ عنها الشره في كل المشتبهات وذلك يستدعى الاكثار منها اكثرأ يشغله عن استعمال قوته العاقلة ويجب اليه الاستئثار بها فيتعدى للوصول اليها حده ويتجاوز حقه وتمتد يده الى ما هو من حق غيره وهناك يحصل الجور والظلم واذا ذلك يقابله المظلوم بالمدافعة عن حقه فيتولد الخصام والشجار والحقد والحسد والبغض وقد يعود اذا ضعف أمام خصمه الى الخبث والحيل وأنواع الدهاء وربما ارتد خائباً مذعوراً فيورث تكرار ذلك في نفسه ذلاً وصغاراً (كما أسلفناه) يؤديان الى خمود النفس وكسلها. على أن ذلك اذا فشا بين الافراد انقبضت أيدي الضعفاء

عن العمل لعدم أمنهم على ثمرات أعمالهم من أيدى أولئك الأقوياء
الشريين الجاهلين كما أن أولئك يعتادون البطالة والكسل لاعتمادهم على
أن ما بين أيدي الضعفاء تحت أيديهم الظالمة وكثيراً ما سمعت أن الشراة
في ذلك تبعت على اقتناء الأموال من غير وجهها وهذا طريق ايباق
وهلاك . ولو كان المتصف به أعظم قدرة وأوفر مالاً وأكثر جاهاً . انظر
الى الملوك والعظماء وما جلبته عليه شراهم والحوادث التاريخية حافلة بذلك

الكلام على الصفات المدرجة في أمهات الفضائل وعلى أصدادها

أبناك في الكلام على الحكمة فوائد اعتدال القوى التي تتوقف
عليها القوة الحكيمة بياناً تتضح به فوائد ذلك الاعتدال ومضار عدمه
وقد اكتفينا به مع وجازته عن شرحه هنا لوضوح هذا المقام وضوحاً
لا يحتاج معه الى زيادة بسط ولذا نقتصر على بيان فوائد اعتدال القوى
التي ينشأ عنها كل من الشجاعة والعفة والعدالة فنقول بينا فيما سبق أن
كبر النفوس على الحد الوسط من مقومات فضيلة الشجاعة . وكذلك
النجدة وعظم المهمة والثبات والشهامة واحتمال الكد والسكون وهي أشياء
متقاربة في المعنى لا تختلف الا باختلاف الاضافات وتخصيص كل منها
بشيء مخصوص والا فكلها ترجع الى احتمال ما ينبغي أن يحتتمل في طريق
الوصول الى الخير وعدم احتمال غيره في ذلك الطريق وعلى هذا فبيان
فوائد بعضها على وجه عام بيان لفوائد البعض الآخر وهو يستتبع
بالضرورة بيان مضار تقائضها ولنذهب بك هنا الى بيان مختصر واضح
أنت تعلم أن أي عمل من الأعمال النافعة للانسان لا يخلو من

متاعب غالباً فإذا لم يتدرع فيه صاحبه بدرع من الثبات ويقتمم المصاعب
رجاء الثواب في الآخرة والرجح وحسن الاحدوثة في الدنيا ويصبر على ما
يلاقه من المصاعب والكد بثبات جأش وقوة عزيمة حتى ينظم عمله تنظيمًا
يستعقب النتيجة لا يتم له ما أرادوه وكثيراً ما رأينا من رجال الأعمال
صدق العزيمة والمثابرة على ما أرادوه حتى جنوا ثمرته أو خلفهم عليه غيرهم
حتى جناها وانتفع بها بعد أفراد الانسان فاستحقوا من الناس ومن الله
الذكر الحسن والأجر الجميل وأسماء أولئك الرجال أشهر من أن تذكر
ألا ترى الى ما حصل من الأنبياء والحكماء وأرباب الاختراعات والقواد
أنظر الى موسى بن نصير والمهلب بن أبي صفرة وكثير من العظماء ولولا
ذلك كله ما تم لمصلح اصلاح ولا لمخترع اختراع كما سبق القول

بان لك أن اعتدال الصفات المذكورة الذي تحصل عنه الشجاعة
هو طريق الخير وأن عدم اعتدالها طريق الشر غير أنا نذكر أن من
الصفات المقومة لها خلق الحلم وبيان أنه مؤد للخير وأن نقيضه طريق
الشر قد ينكره بادئ بدء كثير من الشرسين ولذا آثرنا أن نتكلم على
نقيضه وهو الغضب وما يجلبه من المضار ثم عليه وعلى ما يستعقبه من
الفوائد لأن التحلية بعد التخلية

الغضب

عامت مما أبناه في الكلام على النفس أنها ارتبطت به لتدبر أحواله
فإذا تصورت أمراً منافراً ظهر أثره عليه واستعقب دفع ذلك المكروه
فيظهر تقطيب الوجه واللحم والضرب والشتم وعلى هذا فالغضب إنما

يكون لدفع ما تتصوره النفس مؤذياً قبل أن يقع أو للتشفي بعد وقوعه
وغايته الانتقام فاذا تصورت النفس ذلك ظهر أثره على القلب فحى وغلا
دمه وانتشر على الاعضاء الجسمية اذ أثره وهو الانتقام انما يكون على
نسبة درجة تلك الحياة ووفرة الدم وحرارته مؤدية الى قوة الحياة المذكورة
ولذا رأينا الغضبان اذا اعتقد أنه قادر على الانتقام من المغضوب عليه
احمر وجهه وعيناه وغلبت قوته الغضبية قوته الحكمية فلا يدرك صواباً
ولا يعرف حقاً بل ربما غلبت حواسه الظاهرة فلا يبصر ما بين يديه ولا
يسمع قول من بجانبه فهو في هذه الحال لا يعقل ولا يعي فتخرج أفعاله
وأقواله عن الترتيب والنظام وتراه متغير اللون شديد رعدة الاطراف
يتدفق الزبد من فيه على أشدائه اذا طلب منه اللين والرفق ازداد هياجاً
فيمزق ثيابه ويكسر ما جاوره من الأمتعة ويضرب ويسب من ينصحه
بل ربما سب الجماد والحيوان لا يرضى الا بالانتقام واذا لم يحصل عليه
يتأوه ويتحسر وقد يشتد الغضب فتقوى معه حرارة الدم وانتشاره فيستتبع
ذلك الموت أو المرض. واذا اعتقد أنه لا يقدر عليه لا يغلى دمه ولا ينتشر
على بدنه وأطرافه لأنه لا يحاول ذلك الانتقام المقتضى للقوة التي تكون
بوفرته وحرارته لأن النفس لا تبغيه لما يترتب عليه من الاضرار ببدها
فينكمش الدم الى داخل فيصفر اللون كما يصفر لون الخائف واذا كان
متردداً في القدرة على الانتقام تعاقب اللونان المذكوران وغيرهما من
الأعراض المتعلقة بالحالين

قد علمت أن اعتدال القوة الغضبية فضيلة وأن طرفيها رذيلتان
مذمومتان فان الذي خمدت فيه هذه القوة المذكورة بحيث لا يغضب

غضباً يحركه الى الدفاع عن عرض أو مال أو عن أى تقيصة لا يحترم له جانب ولا يسان له عرض ولا مال وان الذى تجاوزت فيه هذه القوة حدها أشبه شئ بالحيوان المقترس فانه لا يستعملها كما رسمته له النفس الحكيمية والشريعة الحققة فلا يبقى للمرء معها بصيرة ولا فكر ولا اختيار وسبب غلبة هذه القوة أشياء غريزية كاستعداد مزاجه لذلك وأشياء اعتبارية كان يخالط قوماً يتمدحون بالغضب والانتقام ويعدون فضيلة وشجاعة على غير هدى ويثنون على من اتصف به ويحمدونه على ما كان منه فتمى كثر سماعه ذلك أثر فيه خصوصاً ممن يعتقد فيهم الفضل والكمال ويرى أنهم مستحقون للمحامد

أسبابه

يحصل الغضب عن الكبر والفخر والحمية ويهيجه العجب والمزاح والهزء والتعيير والمارة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهى أخلاق مردولة مذمومة فينبغى (امانة الكبر) بالتواضع والعجب بمعرفتك بنفسك والفخر بانك من جنس عبدك وخادمك فاتما سواء فى النسبة الجسمية والعقل والانسانية فانه لا فضل برفعة النسب ولا الجاه ولا الثراء لأن هذه أشياء متغيرة تتورهى ونقائضها الأشخاص قرب خادم صار مخدوماً ورب وضع نسب صار رفيعه وغنى أصبح فقيراً وأن التفاضل انما هو بالتقوى والأعمال قال تعالى يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم وقال عليه الصلاة والسلام ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى وقال

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه (وامامة المزاح) بالجد في طلب الفضائل
والعلوم النافعة والافعال المرضية (والهزء) بالترفع عن ايداء الناس وصيانة
نفسك عن ان يستهزأ بك (والتعمير) باجتنا ب القول القبيح و صون اللسان
عما لا يحسن من المقال (وشددة الحرص على مزايا العيش الناشئة عن
فضول الأموال) بالقناعة (والمهارة) بالامساك عن الجدل والخلاف الا
بحق ويكون على الطريق الموصلة للحق ولا تغضب الغير

هذا وقد علمت مما سلف أن من أسبابه أيضاً مخالطة الأشرار
الذين يمدحونه ويعظمون من اتصف به فأعرض عن صحبة أولئك واصحب
الأخيار ورُضْ نفسك بالحكمة والموعظة الحسنة وثابر على ذلك كله. يمكن
الاعتدال في الغضب لك خلقاً. ومن هنا تستنتج علاج النفس التي ضعف
أو محي فيها هذا الخلق فأنحط عن حد الاعتدال لأن مضار التفريط فيه
لا تنقص عن مضار الافراط هذا علاج الافراط والتفريط فيه قبل أن
يظهر أثره وهو الغضب بالفعل وأما علاجه بعد ظهوره فيكون بتذكر
فضائل كظم الغيظ وذلك بأن ينظر في أمر المغضوب عليه ويعلم أن هذا
الغضب يولد العداوة والأحقاد وذلك أمر يوجب كدر العيش فانه دائماً
يحاول التحرز منه والاستعداد للدفاع عن نفسه ومقابلته بالمثل أو أعظم
وربما كان المغضوب عليه أنفذ رأياً وأقوى ساعداً فيعود حب الانتقام منه
على يد مریده بالضرر ولانه مجلبة للحقد والحسد وتكرر الانتقام وذلك
مذموم شرعاً ويكون أيضاً بتذكر الآيات والأحاديث والحكم والنصائح
الواردة في فضل كظم الغيظ. قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم
وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء

والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين
وقال عليه الصلاة والسلام من كف غضبه كف الله عنه عذابه
ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته وقال
عليه السلام أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند
القدرة وقال أيضاً من كظم غيظاً ولو شاء لأَمْضاه ملاً الله قلبه يوم
القيامة رضا وقال عمر رضى الله عنه من اتق الله لم يشف غيظه ومن
خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال
لقمان لابنه يا بني لا تذهب ماء وجهك لمسألة ولا تشف غيظك
بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك وقد قيل حلم ساعة يدفع شراً
كثيراً وقد أجمع بعض من العلماء العارفين على أن أفضل الأعمال الحلم
عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضى الله عنه والله ما
تقضي بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه
فقال له بعض الحاضرين يا أمير المؤمنين ألا تسمع ان الله تعالى يقول
خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فهذا من الجاهلين فقال
عمر صدقت فكأنما كانت ناراً فأطفئت وقال محمد بن كعب ثلاث من
كنَّ فيه استكمل الأيمان بالله اذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل واذا
غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا قدر لم يتناول ما ليس له وقال رجل
لحكيم أوصنى فقال له لا تغضب قال لا أقدر قال ان غضبت فامسك
لسانك ويدك

اذا عامت أن قوة الغضب لها وسط وطرفان وأن الوسط فضيلة
والطرفين رذيلة فالعلم ان ما ورد فى ذمه فهو وارد على طرفى الافراط

والتفريط وان ما ورد في مدحه فهو بالنسبة للحد الوسط الذي هو فضيلة
الآتري أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أشداء على
أعدائهم رحماء بينهم . قال الامام الشافعي رضى الله عنه . من استغضب
ولم يغضب فهو حمار . وقد منا القول في بيان ما ينشأ عن ذهاب هذا الخلق
من فقدان الغيرة وغيرها من الاضرار وذلك لأن التفريط المذكور ينتج
عن قلة الأنفة مما يؤنف منه كترك تعرض الغير لما يحق على الشخص
المدافعة عنه واحتمال الذل من الأخصاء وصغر النفس وينشأ عنه عدم
الغيرة على الحرم وذلك خنوثة قال عليه السلام ان سعداً لغيرور وأنا غير
من سعد وان الله أغير منى وانما مدحت الغيرة لما يترتب عليها من حفظ
الانساب فانه لو تسومح فيها لاختلطت

ولذا قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها . وضعت الصيانة في
نسائها . وينشأ عنه أيضاً الخور والسكوت عن المنكرات ولذا قال عليه
السلام خير أمتي احداؤها يعنى في الدين . وقال تعالى . الزانى والزانية
فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله . ولو
مدح اضمحلال هذه القوة وأهملت بحيث لم تستعمل في موضعها لتعطلت
العقوبات والحدود فعات أرباب الدعارة في الأرض فساداً لعدم ما يردعهم
عن ارتكابها . قال تعالى ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب . فعلى
هذا تكون هذه القوة من الأخلاق الفاضلة الضرورية لحصول الخير على
شريطة ان تستعمل في موضعها كما تسنه لها القوة الحكمية

الحلم

هذا الخلق من مقومات الشجاعة ان كان على الحد الوسط كما تقدم
وذلك بان يحلم في الحال التي يحمد فيها على ذلك دون سواها وضابط
هذا ان يكون الخير والاصلاح فيه دون ما يستتبع فيه الحلم الشر والفساد
فيحلم اذا كان حمله رادعاً لذوى الأفساد عن افسادهم داعياً الى عودهم
باللأمة على أنفسهم فانه في هذه الحال مجلبة لحب صاحبه ويمن له ووسيلة
للخير. قال عليه الصلاة والسلام الرفق يمن والخرق شؤم وقال أيضاً .
من يجرم الرفق يجرم الخير كله . وقال ان الرفق لا يكون في شيء الاّ زانه
ولا ينزع عن شيء الاّ شانه ويفضب اذا كان الحال بخلاف ذلك فالحلم
عن كرائم الأشخاص الذين ينجلهم الاعراض عن هفواتهم ممدوح
(لاسيما اذا كان من ذوى القدرة والبطش) دون الأشرار الذين يطمعهم
في ارتكاب ما لا يليق ويحسبونه خواراً وضعفاً وقد يكون هذا الخلق
سهلاً لبعض الأشخاص الذين في طباعهم الميل الى عدم الغضب دون
سواهم وهؤلاء لا يحصلون عليه الاّ بأخذ النفس ومجاهدتها في كظم
الغيظ والتعلم وتمادون على ذلك مع الروية والفكر وتعقل أنه الأحسن
والأجمل في صيانة النفس من سب السائين ومكافحة الخصوم وأن فيه
حسن الأحدوثة وجزيل الثواب حتى يعتادوه ويصير خلقاً وهو من
وسائل جلب الخير ودفع الضرر وداعى الطمأنينة وعدم الاشتغال
بالخصومات وجلب الثواب في الآخرة ولذا جاءت الشريعة المطهرة بمدح
من اتصف به واعظام الأجر له . قال عليه الصلاة والسلام اطلبوا العلم

واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعاملون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حاكمكم . وقال أيضاً ان الله تعالى يحب الحيي الحليم المتعفف ويبغض البذي الفاحش السائل الملحف وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هي يا رسول الله قال تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عمّن جهل عليك . ومن دعائه عليه السلام اللهم اغني بالعلم وزيّني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجمّلني بالعافية قال علي كرم الله وجهه ان أول ما عوّض الحليم من حمله أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل وقال معاوية رحمه الله لا يبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حمله جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم وقال لعمر بن الأهمم أى الرجال أشجع قال من ردّ جهله بحلمه قال أى الرجال أسخى قال من بذل دنياء لصلاح دينه وقال أيضاً لعرابة ابن أوس الذى قال فيه الشاعر

رأيت عرابة الأوسى يسمو الى اخيرات منقطع القرين

اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمن

بم سدت قومك يا عرابة قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم فمن فعل فعلى فهو مثلى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عنى فأنا خير منه وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما فاما فرغ قال ابن عباس لغلامه يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضها فنكس الرجل رأسه واستحيا وقال الخليل بن أحمد من أساء فأحسن اليه فقد جعل له حاجز من قبله يردعه عن مثل اساءته وقال وهب بن منبه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يجهل يغلب ومن

يعجل يُخطيء ومن يحرص على الشر لا يسلم ومن لا يدع المرء يشتم ومن لا يكره الشر يأثم ومن يكره الشر يُصم ومن يتبع وصية الله يُحفظ ومن يحذر الله يأمن ومن يتولى الله يُمنع ومر المسيح بن مريم عليه السلام يقوم من اليهود فقالوا له شراً فقال لهم خيراً فقيل له انهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً فقال كل ينفق مما عنده وقال لقمان عليه السلام ثلاثة لا يعرفون الآ عند ثلاثة لا يعرف الحليم الآ عند الغضب ولا الشجاع الآ عند الحرب ولا الأخ الآ عند الحاجة

الحسد

اعلم أن الغضب قد يكظم لعجز عن التشفى في الحال فيكمن في القلب وينقلب حقداً على من عجز عن الانتقام منه بمعنى ان يلازم قلب الحاقد دوام استئصال و بغض من حقد عليه والنفار عنه ويتولد عن ذلك أمور منها الحسد وهو تمنى زوال النعمة عنه فيعتم ان أصابته نعمة ويشتم ويفرح ان أمت به مصيبة ومنها هجرانه ومصارمته وان وصلك ولاينك أو الاعرض عنه استصغاراً له أو التكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر أو تحاكيه استهزاء به وسخرية منه أو تؤذيه بما يؤله من ضرب وغيره أو تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظامة وكل هذه أخلاق ذميمة لما يترتب عليها من تنافر القلوب واقامة الشرور مقام الخيرات قال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضاً . وقال في معرض الذم واذا مروا بهم يتغامزون . وقال انا نسخر منكم كما تسخرون . وقال ومن شر حاسد اذا حسد . وقال عليه السلام في حق الرحم انها تقول

اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني . وقال أيضاً اتقوا دعوة المظلوم
فليس بينها وبين الله حجاب وقال المؤمن ليس بحقود

أسباب الحسد

قد وضع لك مما سبق حقيقة الحسد ونذكر لك أسباب الاتصاف
بهذا الخلق الذميم . الاول (الحقد) كما قدمنا لأن من آذاه شخص أو حال
بينه وبين غرضه وعجز عن الانتقام منه أبغضه ورسخ في قلبه الحقد عليه
وتمنى أن تذهب عنه النعم وتولاه النقم وهذا هو الحسد وربما أحال ذلك
على الزمان لما له عند الله من عظم المنزلة فاذا حصل المرغوب فيه عدَّ
ذلك كرامة لنفسه عند ربه وأنه انتصف له منه لاستحقاقه التكريم
واستحقاق الحسود الاهانة والذلة فكلما أصابت محسوده بلية فرح بها
واستبشر ووثق بمكانته عند خالقه . الثاني (التعزز) أي عده نفسه عزيزاً
لا يترفع أحد عليه فاذا زاد جاهه أو ثراؤه خشى أن يكون داعياً للاستعظام
والاستكبار عليه وهو عزيز النفس لا يرضيه ذلك . الثالث (الكبر) فاذا
رأى غيره داناؤه أو فاقه في شيء من وسائل العظمة خشى ألا يقبل
استكباره واستعظامه عليه لأنه لا يفضل في أسبابه . الرابع (التعجب)
بأن لا يرى سبباً قوياً اقتضى هذه النعمة للمحسود فيتمنى زوالها لما تخيله
له نفسه بأنه أحق بتلك النعمة من المحسود لما لديه من وسائلها دونه .
الخامس (الخوف من فوات المقاصد) وذلك بأن يرى أن المحسود لما لديه
من النعم ربما يزاحمه في أغراضه الشهوية من الثراء والجاه والرئاسة والتمتع
بالذات . السادس (خبث النفس وشحها بالخير للناس) فقد تجد من

لا يتطلع الى ثراء ولا جاه ولا يخشى مزاحمة في غرض من أغراضه اذا وصف لديه حسن حال شخص فيهما أو في غيرهما مما يرغب فيه يشق عليه ذلك ويبدو الحزن على وجهه مع خلوده من الأسباب السالفة واذا ذكر عنده بوئس شخص وسوء حاله فرح وهش مع عدم توفر شيء لديه من تلك الأسباب واعلم أن الحسد من قبيل المشكك فقوته بوفرة كثير من الأسباب السابقة وقوتها وضعفه بقلتها وضعفها ومن هنا نعلم سبب كثرة الحسد وقوته بين المشتركين في مهنة واحدة والجيران والأقارب وذوى الطبقة الواحدة فالحسد بين الطبيعيين المتجاورين أكثر منه بين المتباعدين لاشتداد المزاحمة بينهما في الكسب بخلاف ما اذا كان أحدهما في بلد أو اقليم والآخر في بلد أو اقليم آخر وكذلك لا تجد حسداً بين الطبيب والمهندس فاذا وجد كان قليلاً ضعيفاً وتجده بين الأقرباء فان التعجب الذي هو من أسباب الحسد متوفر لديهم فان أصلهم واحد والترية واحدة فلا يرى الحاسد سبباً اقتضى اختصاص المحسود بما لديه من النعم وترى العلماء يحسد أحدهم الآخر اذا كانوا ولعين بحسن الأحداث والممدح فان أحدهم يجب أن يختص بالثناء عليه لعلمه وتفرد في ادراك غوامضه أو لما يصل اليه من الكسب بسبب ذلك التفرد وعلى هذا اذا كانت كثرة حصول الأمر الذي فيه المزاحمة لأحدهم تقلل من حصوله للآخر جاء الحسد ويكون على قدر قوة المزاحمة وتعدد الوسائل واذا كانت لا تقلل من حصوله للآخر لا ينشأ عنها الحسد وذلك كالعالم من حيث هو بصرف النظر عن حب الاستئثار بشهرة التفرد فيه واكتساب المال والجاه بواسطته فان الوقوف على حقائق المسائل تتناولها كافة القوى المدركة

ولا يمنع تناول قوة لها تناول أخرى اياها بخلاف الأموال والمقتنيات والتفرد بالصيت والجاه . واعلم ان العبطة (وتسمى بالمنافسة أيضاً) شئ آخر خلاف الحسد وان أطلق كل منهما على الآخر اذ هي تسمى مثل ما للغير من النعم وهي ممدوحة في الخيرات والأخلاق الفاضلة فانها تولد في الانسان الجد والنشاط فيعمل لأن يكون كغيره فتمت اتصف بها أبناء الأمة الواحدة نهضوا من رقدهم وأجادوا الفكر والعمل فيما يذهب بهم الى مجبوحة النعم وتسبقوا في ميادين الأفكار والأعمال حتى يصلوا الى ما وصلت اليه تلك الأمم الراقية فهي من الأخلاق الحسنة فان فضيلة الخلق ورذيلته انما هي بالنسبة لما يترتب عليه من النفع أو الضر قال تعالى ان الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يُسْقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقال أيضاً وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين وليس معنى المسارعة الا المسابقة وهي المنافسة . وأما الحسد فرذيلة لما يلزمه من العداوة والبغضاء المؤديين الى التشاجر والتخاصم وهو داعي الشرور وتنافر القلوب واختلاف الوجهة وذلك يستتبع الابتعاد عن الأعمال الخيرية القومية واشتغال كل باضرار الآخر فيكثر الفساد وتعم الاحن وتفسد ذات البين ويفقد التضامن بين أفراد الأمة فلا يتم لها النهوض والرقى على أنه مجلبة الهم والحزن لصاحبه فكلمة رأى محسوده في نعيم ذاب حسرة وامتلاً قلبه حزناً وهذا بين لا يحتاج الى ايضاح ولذا جاءت الشريعة مملوءة بدمه والحض على تركه قال تعالى في معرض الذم أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال أيضاً

ومن شر حاسد اذا حسد وقال عليه الصلاة والسلام لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً وقال أيضاً لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا وقال اياكم والحسد فانه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب

علاج الحسد

اعلم أنك اذا تحققت من أن التخلق بالحسد مجلبة للضرر في الدين والدنيا ولنفع المحسود فيهما سهل عليك مجاهدة نفسك في الابتعاد عنه بالرؤية والفكر وردعها شيئاً فشيئاً حتى تسهل عليك مجانبته (هذا علاج ذلك الخلق المردول) أما كونه ضرراً في الدين فلأن الحاسد ساخط على توزيع حسنات الله على عبده غير راضٍ عن انعامه جلَّ شأنه على المحسود بما أوجب ذلك الحسد فنسب ربه الى عدم العدل وهو أمر منهي عنه في الشريعة ولأن الأتقياء الكملة يفرحون باحسان الله على خلقه ويتمنون لهم الفلاح والنجاح وهذا في الأنبياء عليهم السلام أكمل منه في غيرهم فالتصف به خارج عن دائرة الأتقياء الكملة داخل في دائرة الأشرار الفجرة وأما كونه ضرراً في الدنيا فلأن صاحبه يكثر همه ويزداد حزنه كلما رأى دوام النعم على المحسود فكيف به اذا رآها في ازدياد ولا قبل له بمنع تتابع احسان الله على خلقه أو اذهاب ما هو حاصل منه لما قدمنا من أن الارادات البشرية والأقدار الانسانية لا استقلال لها في ايجاد شيء أو عدمه فاذا دام الانسان على هذا الخلق تملكه الأسف واللمع واستمر حزين القلب غير قدير العين وربما استتبع ذلك عدم نظام أعماله

واضطرابه في حركاته وسكناته وظاهر ما في هذا من الأضرار الدنيوية
وأما كونه نافعاً للمحسود فيهما فلأنه تزداد به حسناته ألا ترى أن الحسد
يحمل على الغيبة والنميمة والسب وغير ذلك مما حظره الشارع وفيه زيادة
حسنات المحسود وأما في الدنيا فلأن عدوه الحاسد له مهموم مغموم كلما
رأى لديه نعمة من نعم الله امتلاً فؤاده أسفاً فيعيش عيشة شقاء وبؤس
وهذا شيء يوجب فرح المحسود فإذا تحقق الحاسد أنه يحسده جلب على
نفسه ما جلب من الشر واعدوه ما جلب من الخير علم أنه إذا اتصف
بهذا الخلق كان من أشد الناس اضراراً لنفسه ونفعاً لعدوه فهو به عدو
لنفسه صديق لعدوه وهذا غاية الغباوة والخرق فإذا تصور كل هذا سهل
عليه أن يحمل نفسه على التودد لمن يرى له في قلبه خلق الحسد ويصله
ويتقرب إليه بانواع القرب الممدوحة ويكثر من الثناء عليه ولا يسترسل
مع ما يجده له في نفسه من البغض والأسف من وصول النعمة إليه بل
يظهر له بضد هذا كله فان آنس منه المحسود هذه الخلال الممدوحة قابله
بمثلها فتنكسر سورة حسده فان النفوس جبلت على الميل الى من تلطف
بها ووصلها وإذا تكرر هذا جملة مرات زال الحسد وانقلب التقاطع مواصلة
والحقد مقه فان لتكرار وسائل المحبة في القلوب تأثيراً شديداً في ازالة
ما كمن فيها من الأحقاد واقامة المحبة والألفة مقامها وكذلك وسائل
البغضاء والشحناء اذا تكررت أثرت في القلوب فتزيل منها الألفة والمحبة
وتقيم اضدادها مقامها وقد تغالطك القوة الغضبية فتبرز لك المقه والثناء
عليه في معرض الذلة والخنوع كي تأنف منه وتستمر على الحسد والبغض فلا
تعباً بهذه المغالطة الباطلة لأنها ليست من أخلاق النفوس الطاهرة الملكية

قد انتهى بنا القول في بيان فضائل اعتدال القوى التي يكون عنها
اعتدال القوة الغضبية ومضار طرفي كل واحدة منها وتكلم الآن على
فوائد اعتدال القوة الشهوية وهي المسماة بالعفة فنقول ظهر لك مما سلف
أن هذه القوة تكون من اعتدال قوة الحياء والدعة الى آخر ما ذكرناه

الكلام على الحياء

قد قلنا فيما سبق انه انحصار النفس خوف اتيان القبائح والحذر من
الذم الصادق وظاهر أن هذا الخلق سياج يحول بين النفس وبين اتيانها
قبائح الأشياء فالتصنيف به اذا هم باتيان قبيح يجد من نفسه مانعاً يعوقه
خشية أن يؤثر عنه فتسوء ذكراه بحق فيتركه ولو تآقت اليه فلا يرتكب
أمراً يستوجب العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو يستعقب ذمّاً ولوماً
فالحي قريب من الخير بعيد من الشر قال عليه السلام من لا حياء فيه
لا خير فيه وقال أيضاً ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى اذا لم
تستح فاصنع ما شئت . وما قلناه هو الحد الوسط الممدوح بخلاف طرف
الافراط الذي هو مجاوزة الحد في الحياء حتى لا يحسن قولاً ولا يبدي
رأياً وقد يحصر نفسه عن اتيان ما ليس محمولوراً مما فيه الفوائد فان هذا
مذموم لأنه من ضعف النفس جالب للشر دافع للخير وكذلك التفريط
فيه فانه حقة تستتبع اتيان ما حرمه الشارع وما تنبو عنه النفوس الكريمة
ولا يخفى ما فيه من الضرر . هذا وخلق الدعة التي هي سكون النفس عند
الشهوة (فلا يستفزها ما تشتهي من مأكّل ومشرب واستمتاع) ملاك
الفضيلة لأن النفس اذا سكنت واطمأنت كانت بما من من أن تسترقها

الشهوات فتمتلكها وتخط من أفق الانسانية الى أفق الحيوانية وذلك غاية الضرر والبعد عن الخير كما قدمناه بخلاف ما اذا كانت مطمئنة ساكنة فانها تكون سهلة القيادة الى القوة الحكيمة تتصرف على ما ترسمه لها فلا تتناول من الشهوات الا ما هو ضرورى لبقاء الجسم ودفع الضرر عنه وما يقتضيه التناسل

الصبر

هو مقاومة القوة الغضبية والشهوية في مقتضياتها الخارجة عن حد الاعتدال ولا يكون الا عن علم بمضار الاسترسال معهما في تلك المقتضيات فهو من الأخلاق الانسانية لا البهيمية فان أنواع الحيوان مسخرة لهاتين القوتين وليس لها قوة حكيمة تصل بها الى ادراك الحقائق فتعلم ما يترتب على الانهماك الزائد من المضار حتى تقاومها في ذلك الاسترسال وهو نوعان جسمى ونفسى فالأول تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ويكون لذوى الجسوم الخشنة وهو اما صبر على فعل ككثرة المشى والحمل أو انفعال كالمرض والضرب والجرح والقطع. والثانى نفسى وبه تناط الفضيلة وهو قسمان صبر على عدم تناول مشتته ويسمى عفة وصبر على تحمل مكروهه وتختلف أسماؤه باختلاف الاضافات فان كان فى عراك وصدام سمي شجاعة وضده جبناً وان كان فى امساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حاماً وضده تدمراً وان كان فى مامة محزنة سمي سعة صدر وسمي ضده ضيق الصدر والضجر والتبرم وان كان فى امساك كلام فى الضمير سمي كتمان السر وضده الافشاء وان كان فى الامساك

عن فضول العيش سمي قناعة وزهداً وضده حرصاً وشرهاً وان كان في احتمال الغنى على وجه ممدوح سمي ضبط النفس وضده الدّقع (وهو الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر) والبطر أيضاً ومن هنا تعلم أن هذا الخلق من مقومات فضيلتي الشجاعة والعفة

والناس في صبرهم على مقاومة تينك القوتين ثلاثة أقسام قسم يقاوم جميع ما تنبئ فيه المقاومة من أمر القوتين المذكورتين فلا تبقى لهما قوة المنازعة وهؤلاء هم الكملة الذين قوى يقينهم وآثروا الفضائل النفسية على اللذات الحيوانية فاطمأنوا بالسير على الطريق القويم وهم قليلون جداً وقسم لا يقاوم في شيء من تلك الأشياء وهؤلاء كالأنعام بل هم أضل سبيلاً لأن البهائم لم تخلق لها النفوس المدركة للمنافع والمضار حتى تتسنى لها هذه المقاومة بخلاف أولئك فانهم عطلوا ما منحهم الله من تلك النفوس القادرة على تصور ذلك وعلى المقاومة فيما تركه مجلبة للشرور والاضرار وعلامة هذا الفريق أنك ترى لديهم يأساً وقنوطاً وغروراً بالأمانى فاذا وعظ أحد منهم قال انى مشتاق الى التوبة ولكن أسباباً حالت دونها فلست أطمع فيها أو قال ان الله غفور رحيم فلا حاجة الى التوبة فمثل هذا استرقتة شهوته فلا يعمل فكره الآ فى استنباط الحيل التى توصله اليها

وقسم يقاوم فى البعض دون البعض وهو أرفع من الثانى وأحط من الأول فهم من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فاذا أكثروا من النظر والفكر وحملوا أنفسهم على المقاومة ارتقوا الى الدرجة العالية شيئاً فشيئاً وان أهملوا هووا الى الدرك الأسفل

واعلم أن الانسان الراغب في السعادة لا يستغنى عن هذا الخلق في حال من الأحوال وذلك لأن كل ما يكون للانسان اما أن يكون موافقاً لهواه وورغائه كالصحة والثراء والجاه وموازرة العشيرة الكثيرة ووفرة أسباب الرزق وكثرة الأنصار والأحباب وما أحوجه الى الصبر في هذا كله فيقاوم ما يستتبعه كل ذلك من الأحوال الذميمة مثل الكبر والزهو والانهماك في الملاذ والمبالغة في الانتقام والبذاءة فان توفر هذه الاشياء المرغوب فيها لديه يبعث فيه الميل الى تلك المذمومات فان لم يقاومه بصبره واسترسل في الانهماك عاد على جميع ذلك بالنقص تدريجاً حتى يزول — هذا مع ما يكون عليه من الحسرة والغم الناتج عن ذلك الاسترسال فان الصبر على الشيء مع القدرة عليه أصعب منالاً وأشدّ مراساً لأن ميل القوتين الغضبية والشهوية الى مقتضياتهما يعضده توفر وسائل الوصول اليها فتعظم مقاومتها للقوة الحكيمة بخلاف ما اذا كانت الوسائل المذكورة مفقودة ولذا قيل الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

ولما اتسع الفتوح للصحابة رضی الله عنهم وتوفرت لديهم الأموال قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ومن ثم حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد قال (ياءىها الذين آمنوا لا تلکم أموالکم ولا أولادکم عن ذکر الله — وقال — ان من أزواجکم وأولادکم عدوا لکم فاحذروهم وقال عليه السلام — الولد مبخله مجبنة محزنة — واما أن لا يكون موافقاً لهواه وورغائه وذلك أقسام ثلاثة ما يكون له فيه اختيار كإمامة الطاعات والمعاصي ولولا الصبر على ما فيها من الأعمال وبذل الأموال وحرمان النفس من ملاذها الحيوانية واخضاعها للقيام بأمر

التكليف الشرعى لما استقام فيها أمر الانسان وما لا يكون له فيه اختيار بحال من الأحوال كالمصائب والنوازل التى تنزل بالشخص من فقد قريب أو صديق أو مرض أو ضياع مال الى غير ذلك وهذه من المواطن التى يصعب فيها الصبر فاذا لم يأخذ الانسان نفسه فى هذه الحال بالعبر والمواعظ بأن ذلك لا يسلم منه أحد وأن الجزع والملح قد يستعقب سقم الجسم وضياع العقل بدون جدوى وأن المصائب تبدو كبيرة ثم تصغر شيئاً فشيئاً وأن الحياة لا تخلو من الاكدار ويعتضد على ذلك بما أعد له من الأجر وجميل الذكر استعصى حزنه وقوى هلمه ولما كان مثل تلك النوازل من مزلق أقدام ذوى الاحتمال والثبات أعظم الله لهم الأجر قال تعالى (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال أيضاً (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)

وما لا يكون له فى وجوده اختيار وله اختيار فى دفعه كما اذا أودى بقول أو عمل أو جنى عليه فى نفسه أو ماله فان الصبر عن مقابله بالحلم وكظم الغيظ فى هذه الحال فضيلة تعقبها الخيرات كما أبناه فيما سلف وضح لك من هذا كله أن الصبر لا مندوحة عنه لسعادة الانسان فى عموم الاحوال وأنه كلما تعددت أسباب الميل الى الرذيلة قويت وتغلبت على الانسان فقاداته اليها ومن أسباب ذلك اعتيادها فانها متى اعتيدت أصبحت خلقاً راسخاً واستهان الناس باضرارها ومذامها ولو كانوا على جانب عظيم من بعض الصفات الفاضلة انظر الى خالق الغيبة فان كثيراً من الاتقياء والعمماء الفضلاء لما اعتادوها وجعلوها موضوع المسامرة فى

منتدياتهم وايناس زوارهم وأصدقائهم كيف نمت فيهم ومرنت عليها
السنتهم ولم تنكرها قلوبهم مع ما اشتملت عليه الشريعة من الوعيد
لمرتكبتها فبان من هنا أن للعادة دخلاً في الأخلاق كما ان لمعاشرة الأخيار
والأشرار دخلاً في ذلك أيضاً

علاج ضعف هذا الخلق وما يستعان به عليه حتى يرسخ

قد بان لك مما سبق أن الصبر الممدوح يختلف باختلاف الاضافة
وعلى هذا فكل نوع من أنواعه له علاج خاص به فان اختلاف الأمراض
يوجب اختلاف علاجها وأسبابها ولا معنى للعلاج الاّ اضعاف سببه
وتقوية ضده واذن فالصبر عند الملمات والنوازل يكون بتذكر الاجر
وعدم فائدة الجزع فيما نزل والتأسي بالغير فان عموم المصيبة يخفف وقعها
ويقوى من نزلت به على احتمالها والاشتغال بما تسكن اليه النفس ويطمئن
له القلب في تلك الحال وما شا كل ذلك والصبر عن الغضب المسمى حاماً
انما يكون بالتذكر فيما يستعقبه الغضب من المضار والحلم من المنافع كما
قدمناه والصبر على حفظ الاسرار وعدم افشائها المسمى كتماناً انما يكون
بتذكرك أن افشائها ولو لواحد من الاصدقاء يقتضى اذاعتها وقد يترتب على
ذلك الضرر وعدم حسن الأحدثه وانقطاع صلة المودة بينك وبين من
أفضى اليك بها معتقداً فيك الكتمان وحسن السيرة وجميل الصداقة
على أن عدم افشائها لا يكلفك عناء وأن جنوحك الى عدم صيانتها متعللاً
بزخارف العلل الباطلة ليس الآ من وهن عزيمتك وضعف قوة نفسك
وهذا أمر مذموم فمتى تصورت كل هذا تصور الموقن به حملك على

مقاومة ما توسوس به اليك نفسك مما يبين الفضائل الممدوحة
والصبر على عدم فضول العيش من الثراء والجاه وأنواع اللذات
الجسمية المسمى قناعة انما يكون بالتفكر في أن هذه الأشياء تطراً وتزول
وليس فيها من الفضائل الانسانية ما يوجب العناية بها فليس لك من مالك
الأمّا أكلت فأبقيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وأن الصبر
مع الحاجة لا يقل أجراً عن الغنى مع البذل وبالجملة فان كل شيء انما
يستعان على تقويته بالوسائل التي تقتضيه وتذهب بضده ولا يزيد بمدح
الصبر والاعراض عن ضده إلا الحد الوسط فانه هو الممدوح في كل
الخلال الانسانية بخلاف الافراط والتفريط وعلى ذلك فمن الخلال
الشريفة الجد في الحصول على المال والثراء من وسائلهما الشريفة وطرقهما
المباحة على شريطة أن لا يتجاوز الحد الوسط في ذلك فلا يمتنع عن البذل
من ماله لشخصه أو لغيره ممن يستحقه فيبخل على نفسه بوسائل الغذاء
والدفء والتعليم وعلى من عليه نفقته كذلك ولا يقيم بماله أو جاهه أود
فقير ولا ينصر مظلوماً ولا يساعد أبناء أمتة وفقراء عشيرته بما لديه من
ثراء وجاه فان هذا غاية الانحطاط في الأخلاق الانسانية الفاضلة ومجلبة
سوء الأحداث في الدنيا وعدم الثواب في الآخرة

السخاء

قد يراد بالسخاء الغريزة الانسانية التي بها يسهل على الشخص البذل
سواء بذل او لا غنياً كان أو فقيراً ويقابله الشح وقد يطلق على البذل
بالفعل ويقابله البخل وهذا الخلق من أحسن الأخلاق الفاضلة متى كان

على حد الاعتدال فان النفوس مجبولة على حب من أحسن اليها فتنقاد
الى صاحبه العفاة وتسترق له قلوب الأحرار كما قيل
أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الحر احسان
ولا يزيد به هنا بذل المال لا غير بل يزيد به ما هو أعم من ذلك
كبذل الجاه في انقاذ مظلوم وقول معروف يجبر خاطر كسير (قال تعالى
قوله معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) ومنح ذوى الحاجات
ما يسد عوزهم كأبناء السبيل وضعفاء الامة وفقرائها والمصابين ما يدفع ألمهم
ويخفف نوازهم أو يسهل طرق الكسب الى البائسين كتعليمهم الصنائع
والعلوم التى يستدرون بها أرزاقهم فان المال العظيم واخير الوفير لا يمدح
اقتناؤه الا اذا بذل فى نيل المكرمات ووسع به على الاسرة ومن فى
حكمها من الجيران والاصدقاء وأهل المحلة والبلد ومن تجمعك معهم جامعه
فلا يمدح تشعب الناس فى طرق جمع المال الا لهذه الاغراض لا لأن
يخزن ويحرم من فائدته جامعه ومن يعولهم وذوو الحاجة من جيرانه وأهل
بلده وما ذم جمعه الا اذا كان لا ينفع به نفسه ولا يغيث به لهيفاً ولا يقوم
به أود فقير من أبناء أمته فان مثل ذلك تنفر منه القلوب وتفرح بمصابه
جيرانه وأهل محلته ووطنه ويحیی هذا الخلق عدم اليأس من توافد نعم
الله تعالى فلا يخشى البازل ببذله فقراً ولا يتوقع بخله ثراء فان مال الله
غادٍ ورائح فربّ بذول زاد غناؤه وبخيل أفقره بخله قال الله تعالى
(الشيطان يعدكم بالفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً)
والله واسع عليم) البخيل حارس المال لا مالك ولا فائدة لحارس ملك غيره
فلا يفيد نفسه ولا غيره

وليس بنافع ذا البخل مال ولا مزرٍ بصاحبه السخاء
ولا يعطى الغنى غنى لحرص وقد ينمى على الجود الثراء
ويحسن أن يكون البذل لما ينبغي مما يجوز بذله غير متجاوز فيه
الحد الذى يذهب بثرائه فان ذلك سفه يقتضى الحجر شرعاً ولا لغير
محتاج ذى ثراء عظيم وعلى الوجه الذى ينبغي فلا يبذل لغيره من ماله ما
يوصله الى نقيصة كالقتل والسكر والمقامرة الى غير ذلك من الأشياء
المذمومة المنوعة شرعاً واذا قد علمت ماله من الثمرات الممدوحة لما
يترتب عليها من الفوائد فى المجتمع الانسانى كالتهاب والتواد والامن من
التباغض الناشئ من استئثارك بالمال دون جيرانك الفقراء وأهل وطنك
الذين غلبتهم المسكنة على أمرهم استئثاراً قد يحملهم على السعى فى اتلاف
نفسك أو ممالك عامت قبائح البخل المذمومة لما يترتب عليها من العداوة
والبغضاء المضعفة لرابطة الجامعة الانسانية ومن هنا تعلم حكمة مشروعية
الزكاة فى الشريعة الاسلامية اذا عقلت ذلك كله وضح لك أن البخل
خلق ذميم عليك أن تعالجه بالتفكر فى مضاره ومنافع الجود الممتد
وأن مالك وجاهك عارية لديك وأن ليس لك منهما الاّ الأحدثوة
الحسنة والثواب العظيم وان ما تبدله لمستحقه قرض حسن ربما يردّ عليك
فى حياتك الدنيا ويجازيك الله عليه باعظم منه فى الآخرة

قد أوضحنا ما يهم من القول فى أغلب القوى المندرجة فى قوة
العفة التى هى اعتدال القوة الشهوية وبقى علينا الكلام فى خلق الوزع
وهو على ما قدمناه (ملازمة الأعمال التى للنفس فيها كمال) كالوفاء بالوعد
وترك المرء والجدال والسب والمزاح والسخرية وافشاء السر (وكل هذه

أشياء واضحة سبق الكلام على بعضها ويعلم منه حال البعض الآخر) ومن الورع المذكور الصدق وترك الكذب والغيبة والنميمة وهذه الصفات كما تدرج في خلق العفة يشملها خلق الشجاعة من جهة كون بعضها ينشأ عن الحقد كالغيبة والنميمة والمرء والجدال والسب والسخرية والمزاح المذموم وعدم العناية بالغير كالكذب وخلف الوعد لغير ضرورة كما يعلم من البيان الذي أسلفناه

الكلام على الغيبة والنميمة

اعلم أيها الأخ أرشدك الله الى ما فيه فلاحك ونجاحك أن الغيبة من أكبر الرذائل التي عمت بها البلوى وانك بعد معرفة حقيقتها تجدها لا يخلو منها مجتمع ولو لعبادة أو لمذاكرة علم أو حث على فضيلة أو سعى في رقي طائفة أو أمة ونذكر لك حقيقتها هنا حتى تنجلي لك صحة ما قلناه هي ذكرك أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء كان متصفاً به أو لا ويمائل ذلك اشارتك الى غيرك^(١) غمزا أو لمزا أو التشبه بالمغتتاب ما دام شيء من ذلك كله دالاً على اتصاف الشخص بما يكره أن ينسب اليه ولها أسباب كثيرة منها حقه عليه فيشتفي منه بلسانه أو بغمزه ولمزه مثلاً ومنها الخط من شأنه لما يراه فيه من المزاحمة في أمر من الأمور الممدوحة لدى الناس حباً في التفرد بالكسب والشهرة وبصنة من الصفات الممدوحة ومنها ادحاض ما يتوهم حصوله منه فيصفه بالكذب أو الحسد أو النميمة حتى اذا تكلم في شأنه يعتبر قوله ناشئاً عن واحدة من تلك الاحوال فلا

(١) اللماز واللامزة العياب والهمز كالغمز وزناً ومعنى وهو غمز الشيء باليد أو العين

يستعقب أثراً مذهباً لمن اغتابه أولاً أو حب ارضاء مجالسيه أو أصحابه
إذا اغتابوا أحداً لسبب من تلك الأسباب فيعد مشاركتهم في ذلك من
صلوات المودة ودواعي الوفاق والسمر الى غير ذلك من الأسباب الكثيرة
وأنت تعلم هداك الله الى ما فيه الخير أن هذه الرذيلة تستدعى أن تقابل
بمثلها أو ما هو أشد منها ضرراً على صاحبها . وذلك يقتضى تنافر القلوب
والشجار وعدم الوثام والخير كل الخير في أضداد ذلك فانها دعامة التضامن
في جلب الخير ودفع الضرر ألا ترى أن أبناء البلد الواحد إذا ائتلفوا تعاونوا
على ما فيه سعادتهم واجتماع الأيدي على الأعمال أنفذ للوصول اليها وأنجز
في الحصول عليها ومما يندخل على كثير من العارفين هذا الخلق الذميم
في معرض الأخلاق الكريمة أن يذكره في طريق المرحمة أو الدعاء
لنفسه أو لمن اغتابه أو في طريق الدين كأن يقول انى آسف على ثروة
فلان لأنه يبذلها في الملاهي كالمسكرات وغيرها مثلاً أو يقول ان فلاناً
فعل كذا أسأل الله أن يحسن حاله أو يصرفه عما هو فيه أو اللهم عافنى
مما ابتلى به من كذا وكذا أو يقول انه تارك للصلاة أو الصوم أو يعاقر
الخمر أو يلعب القمار مثلاً وبالجملة فكل ما يتأذى به المغتاب لو بلغه يعد
غيبة ولا أظنك بعد أن عقلت حقيقتها وعرفت شيئاً من أسبابها إلا
قائلاً بانها عامة لا يخلو منها إلا الكلمة وقليل ما هم

واذ قد علمت ضررها وما تجلبه من الفساد فعمسك أن تقول ان
لها بعض فوائد وأنها قد تجوز في تلك الأحوال ولذا نذكر لك شيئاً
لتعرف منه المواضع التي تسوغ فيها وهى بالاجمال ما يستعقب أمراً محموداً
كأن تثبت به حقاً لك اذا لم يكن عن ذلك مندوحة كما اذا ظلمك

شخص فقاضيته وقلت انه سبني أو سرقني أو غضب حتى الى غير ذلك
ومنها الاستفتاء كما ورد ان هند بنت عتبة قالت لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي فأخذ
من غير عامه فقال لها خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف فذكرت شح
أبي سفيان وظالمها وولدها ولم يجرها عليه السلام لأنها مستفتية. والنصيحة
كما اذا قلت لشخص اياك وصحبة فلان أو مشاركته خشية عليه من
الضرر. وكما اذا طاب شخص لتزكية شاهد فان له أن يمسك عن تزكيته
ويقول لا أدري. أو استشارتك في مشاركة شخص أو زواج امرأة فان
لك أن تذكر ما تعرفه من المثالب والأحسن أن تقول لا أحب أن
تشاركه أو أن تزوجها أو ليس لمثلك ذلك ولا تذكر خلال النقص التي
تعرفها فيمن سئلت عنه ألا ترى أن الفقهاء قالوا في ورقة التزكية المسماة
بالمستورة ان القاضي اذا بعثها لشخص يطلب تزكية الشاهد فالأحسن
أن يردّها غير مكتوبة اذا كان يرى أن الشاهد ليس أهلاً لأن يزكّي
وكذلك لا ضرر فيها اذا كان المغتاب متجاهراً بالفسق فانه لا يفضب
من نسبته اليه فالضرر الذي يخشى من الغيبة بالنسبة له غير متحقق فان
اشتهاره به عائق عن غضبه من نسبته اليه وعلى هذا اذا أراد استاذ او
رئيس أن يقوم من اخلاق شخص رأى فيه اعوجاجاً لا يعينه بل يقول
منكم من يفعل كذا أو بعضكم يقول كذا فليقلع من فيه ذلك عنه لأن فيه
من الأضرار ما هو كذا وكذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا
رأى في أحد أصحابه شيئاً من ذلك يقول ما بال قوم يعملون كذا وكذا الخ
وقد جاء الشرع الشريف ذاماً لها ناهياً عن الاتصاف بها قال تعالى

(ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)
وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال - لا تحاسدوا ولا
تباغضوا ولا تناجثوا ^(١) ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد
الله اخواناً - وعن جابر وأبي سعيد قالا قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم - اياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا فإن الرجل قد يزني ويتوب
فيتوب الله سبحانه عليه وان صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يغفر له
صاحبه - وقال ابن عباس اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر
عيوبك وقال مالك بن دينار رضى الله عنه مرّ عيسى عليه السلام ومعه
الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون ما أنتن ريح هذا الكلب فقال
عليه السلام ما أشد بياض أسنانه . نبهم بذلك الى انه لا يذكر شئ من
خلق الله الا ما فيه حسن

علاجها

علمت مما سلف أن العلاج العام لأدواء الأخلاق هو التفكير في
الاضرار الدنوية والاخروية المترتبة عليه فان العاقل اذا علم ما يترتب من
المضار على أمر هو متعطف به وأن الخير في الابتعاد عنه يوشك أن
يقلع عنه فان لم يكن دفعياً كان تدريجياً . وقد أبنا فيما سبق شيئاً من
أضرارها الدنوية والاخروية وهناك علاج خاص بكل خلق ردى وهو
النظر في أسبابه ودواعيه والتخلي عنها . وقد أبنا في الكلام على هذا
الخلق شيئاً من أسبابه ودواعيه فعليك باجتنابها اذ من المعلوم أن العلة

تزول بزوال سببها وفقنا الله واياك الى وسائل الفلاح والنجاح

النميمة

تطلق اطلاقاً شائعاً على من ينقل لآخر قول شخص يسوءه كأن تقول له فلان يقول فيك كذا وكذا فهي على هذا قاطعة ذات البين بين ذينك الشخصين فان المنقول اليه ان لم يكن ممن راض نفسه وكبح جماحها حتى اتصف بفاضل الأخلاق يثور فيه الغضب على المنقول عنه فيتولد لديه الحقد عليه وحب الانتقام منه فيقابله الآخر بما يستتبعه ذلك الخلق الذي جلبته النميمة فان النفوس اذا لم تكن ملكية انقادت فيها القوة الغضبية والشهوية الى القوة الحكمية تسرع الى حب الانتقام والمقابلة بالمثل أو أكثر منه اذا أوذيت متى وجدت لذلك طريقاً وقد تطلق على ما هو أعم وهو كشف ما يكره كشفه سواء كان قولاً أو عملاً وسواء كان الكاره المنقول عنه أو اليه أو غيرهما وهي بهذا المعنى تشمل افشاء السر وقد قدمنا القول فيه . قال علماء الأخلاق انها خلق مردول مذموم بناء على الاصل الذي روعى فيه الفرق بين المرذول والحسن (وهو ان كل ما كان الغالب فيه استتباع الخير والمنفعة في المجتمع البشرى فهو حسن . وكل ما كان الغالب فيه ضد ذلك فهو سئ مردول) فلا تحسن الا اذا كان فيها فائدة أو دفع ضرر كما اذا رأى شخصاً يتناول مال غيره ويقول ذلك أو سمع من شخص أنه يحاول قتل آخر أو سلب ماله أو يتربص به السوء وعلم منه الاصرار والقدرة فعليه أن ينبهه اليه تنبيهاً يستيقظ به للاحتفاظ بما يراد انتهاكه من الحياة أو المال ولا يتجاوز هذا الى كثرة

المطاعن والمثالب وغيرها مما يوغر قلب المنقول عنه
ومن أسباب هذا الخلق ودواعيه ارادة السوء بالحكي عنه أو اظهار
الحب للمحكى اليه أو الاعتضاد به على المنقول عنه أو الاسترواح
بفضول الأحاديث والخوض في الباطل واذا قد علمت ضرر النيمة بالنسبة
للمنقول اليه والمنقول عنه فلا يخفى عليك ضررها بالنسبة للمتصف بها
فان من يكون سبباً في المضارّ والمفاسد يعرض العاقل عن صداقته ومجالسته
وقد لا يريد الخير اليه فلا تستحسن الأبصار طاعته ولا تألف القلوب
عشرته واذا اشتهر بذلك ساءت سمعته وأصبح خالياً من الأوداء
والأصدقاء لا يجد من يعينه على جلب نافع أو دفع ضار وهذا ضرر بين
تجب على العاقل مجانبته

اذا أراد المنقول اليه ألاّ يحيق به ضرر الغيبة فعليه اذا ألقى اليه
ألاّ يصدق لأول وهلة لأن النمام فاسق وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا
ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم
نادمين) وهذا لا يمنعه (اذا كان ما ألقاه النمام اليه مهما يتق) أن يتعرفه
ان كان حقاً أو باطلاً حتى يعد لنفسه خطة يتبعها من جرائه ولا يسلك
في هذا التعرف طريق الأخلاق الذميمة والوسائل المشينة وعليه اذا
وضح له أن هذه الغيبة ليست في المواطن التي تحسن فيها شرعاً أن ينهأ
عن مثل ذلك الخلق ويبين له رذيلته وينصحه بالاقلاع عنه على قدر ما
تقتضيه حاله وحال الناقل اليه وعليه أيضاً ألاّ يظن بأخيه الغائب المنقول
عنه سوءاً بمجرد أقوال الناقل قبل أن يتحقق من صحة ما قيل والا يقول
ما نقل اليه لأنه بذلك يكون نماماً. اللهم الا اذا فشا هذا الداء فيه ورأى

أن الأتبع في علاجه اعلان شأنه

ذمت الشريعة هذا الخلق وقبحت من حال مرتكبه . قال الله تعالى في معرض الذم — هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل^(١) بعد ذلك ذنيم — والذنيم الدعي الذي لا يعلم له أب أي انه مثله في الخسة . وقال أيضاً — ويل لكل همزة لمزة — قيل الهمزة النمام . وقال تعالى في ذم امرأة أبي لهب حمالة الحطب — قيل هو الحديث على وجه النعم لأنه وقود نار الفتنة كما أن الحطب وقود النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا يدخل الجنة نمام — وقال في آخر قنات (وهو النمام) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وان أبغضكم الى الله المشاءون بالميمية المغرقون بين الاخوان الملتمسون للبراء^(٢) (أي العثرات) . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شأنه الله بها في النار يوم القيامة . روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن آخر شيئاً فقال له عمر ان شئت نظرنا في أمرك فان كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وان كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية (هماز مشاء بنميم) وان شئت عفونا عنك . فقال العفويا أمير المؤمنين لا أعود اليها أبداً

قال الحسن من نم اليك نم عليك ذكر أن حكياً من الحكماء زاره بعض اخوانه فأخبره بنخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم قد

أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنائيات بغضت أخى الىّ وشغلت قلبي
الفارغ واتهمت نفسك الأمانة وقال لقمان لابنه يا بني أوصيك بخلال
ان تمسكت بهنّ لم تزل سيداً أبسط خلقك للقريب والبعيد وأمسك
جهلك عن الكريم واللئيم واحفظ اخوانك وصل أقاربك وأمنهم من
قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك وليكن اخوانك
من اذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك وقيل لو صح ما نقله النمام
اليك لكان هو المحترى بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بجملك لأنه لم
يقابلك بشتمك . اذا تلوت كل هذا علمت ان ذا اللسانين الذي يتردد
بين اثنين يكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه قل أن يخلو من خلق النميمة
فهو داخل في كل ما قلناه من تقبيح شأنها بل قد يزيد عليه ملتقاً ونفاقاً
ويندر أن يخلو عنه من يصادق المتعاضدين قال أبو هريرة قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم . تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين
الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث وقال ابن مسعود لا يكون
أحدكم امعة قالوا ما الامعة قال الذي يجري مع كل ريح واتفق الباحثون
في الأخلاق على أن ملاقي الاثنين بوجهين منافق وهذه صفة تأبأها
الرجولية الكاملة والدين الصحيح

الصدق

نتكلم عليه هنا باعتباره مطابقاً للاعتقاد والواقع لأنه اذا أخبر
شخص آخر بما يعتقد لا نعهه رذيلة وان خالف الواقع وكذلك اذا أخبره
بما يخالف ضميره لا نعهه فضيلة وان طابق الواقع وانما اعتبرنا فيه موافقة

الواقع زيادة عن الضمير اشارة الى أن الصفة الكمالية انما تكون على وفق القوة الحكيمية التي قلنا عنها فيما سبق (انها ادراك حقائق الأشياء وخواصها وما يحسن وما يقبح من الأعمال على ما هي عليه في الواقع بقدر الطاقة البشرية) وهذا الخلق من خواص الانسان وأحد الأركان التي عليها مدار نظام المجتمع البشرى في جميع حركاته وسكناته فان التاجر ان لم يعتمد على غلبة صدق المقال لا ينتقل من بلد لآخر لأجل البيع والشراء وكذلك الذي يشتري منه ان لم يصدق التجار فيما يقولونه من الأثمان وما يروى اليه من الأخبار في هذا الصدد لا يقدم على الشراء ومثل ذلك يقال في الزراعة والصناعة بل قد يتجاوز ذلك الى الحاكم والمحكوم فان الحاكم ان لم يغلب لديه صدق المتكلم في دعوى ظلامته لا يهتم بشكواه واذا لم يترجح لديه صدق الشهود والصكوك لا يتسنى له رد الحقوق الى أربابها ولا انصاف المظلوم من الظالم ولا ائابة المحسن ومعاينة المسىء فتثور الأقوياء الظلمة للاعتداء وتطاول أيدي العائنين الى الفساد وكل ذلك يخل بالمقصود من المجتمع الانساني فينصدع بناء الوحدة ويختل نظام العدالة فتصبح الامم أفراداً لا يراعى كل فرد الأائدة نفسه دون غيره فتقصر الامة عن الوصول الى الرقي والسعادة لأنها اذا لم تتعاون أبناءها على ذلك لما بينهم من وسائل التضامن لا تنال بغية ولا تصل الى مقصود فان اجتماع قُدر الأفراد على العمل أدعى للوصول اليه بخلاف ما لو تنافرت القلوب وعمل كل لنفسه فان ذلك يؤدي الى الاتقباض عن الأعمال لأن كل ضعيف لا يأمن على نفسه وماله وما يحق له الدفاع عنه من تسلط يد القوى العاثت بل قد يتعدى ضرره الى

ما فوق ذلك كالشرائع والديانات فاننا اذا لم نصدق ما جاء فيها من عظيم الآداب وصادق التشريع لكننا هملاً لا ندين بدين فظهر من هذا ان الصدق عليه مدار نظام المجتمع الانساني وان الكذب مخل به هادم لاحكامه كيف والمتصف به فاقد مزية النطق الذي من شأنه ان يكون اعراباً عن الحقيقة فهو من هذه الجهة منحط عن درجة الانسانية الى درك الحيوانية بل هو شر من ذلك قال تعالى . ان هم الا كالأنعام بل هم اضل سبيلاً . ومن أسباب الكذب ولوع الانسان بمدح نفسه بما يتخيله جالباً للفائدة أو مدح من له به صلة مودة أو قرابة أو من يرجو منه فائدة جزاء ذلك ومنها أيضاً ادخال السرور على محبته فيلقى اليه ما يعتقد ساراً له وهذا دأب أهل النفاق والملق والغش والمداهنة أو التملص من التقصير خشية أن ينسب اليه الالهال أو الخيانة أو خلف الوعد الى غير هذا من الأسباب واذا استمر الانسان عليه زمناً اعتاده وصار له ملكة راسخة فتراه لا يخلو كلامه غالباً من بعض الاكاذيب ولو حاول أن يحدث صدقاً تخيل انه لا يجد فيه طلاوة تستهوى الاسماع وتسترق القلوب وعلى عكس ذلك من اعتاد الصدق فانه يؤثره على الكذب ولو استعقب ضرراً والانسان ابن عوائده وملازم مألوفه واذا علمت ما يترتب على الصدق من الفوائد في المجتمع الانساني فقد علمت مقدار من الفضيلة وأكبرت من يتصف به . اذا صدق التاجر وفر للمشتري جزءاً من الزمن كانوا يضيعونه في المساومة وجزءاً من أموالهم كان ذاهباً بغير حق لو كذب عليهم فيما يتعلق بقيمة المبيع فيقبلون عليه اقبالاً عظيماً متى عاموا منه ذلك اخلق الفاضل فيتبادلون المنفعة . اذا صدق المعلم فيما يليقه من

المعلومات ووقف عند ما يعامه ولم يقف ما ليس له به علم وعلم المتعاملون صدقه فيما يقول فعرفوا منه معلومات حقة ووثقوا بما يقول ولم يضعوا أزمانهم في الأباطيل فاحسنوا سمعته وأكبروا من شأنه . اذا صدق الحاكم في الحكم على ما تقتضيه القوانين العادلة وأنفذ أحكامها سارع المحسن الى الاكثار من احسانه واراد المسئء عن اساءته . اذا أصبح الصدق خلقاً للانسان جنى ثمرته من الفوائد وحسن السمعة فقلده فيه خلانه ومخالطوه من أسرته وأحبائه لاسيما الأطفال فانهم اذا نشؤوا بين أسرة كريمة الأخلاق صادقة المقال فانهم يشبّون على الصدق في القول متحلين بفاضل الأخلاق فلينظر من ليس بصديق في جنائته على أولاده بما ورثوه عنه من الاكاذيب وسئء الأخلاق وكذلك من يكفلمهم فعلى رب الاسرة أن يباعد بينها وبين الأقسام الباطلة والخرافات المحدثه التي تؤصل في نفوسها المخاوف وتصدق الخرافات واعتبار الاكاذيب والاعتماد على الأوهام الكاذبة ككتاب الف ليلة وليلة وقصص الهلالية وما شاكل ذلك وينزل منزلة الكذب أو الصدق الاقرار على أحدهما بكل ما يفهم من اشارة أو سكوت . ومما يدل على حسن الصدق وقبح الكذب قوله عليه الصلاة والسلام . كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له كاذب . وعن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول في دعائه اللهم طهر قلبي من الشقاق وفرجى من الزنا ولساني من الكذب وقال أيضاً ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم شيخ زان ومملك كذاب وعائل متكبر وقال عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيتنا

وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال حتى أعطيك
فقال عليه السلام وما أردت أن تعطيه قالت تمرًا قال أما انك لو لم تفعل
لكتبت عليك كذبة وقال وكان متكئاً الا أنبئكم بأكبر الكبائر
الاشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال ألا وقول الزور وورد أيضاً أنه
قال تقبلوا الى بست أتعلم اليكم بالجنة قالوا وما هن قال اذا حدث أحدكم
فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا أوتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم
واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم وقال أيضاً أربع اذا كن فيك فلا
يضرك ما فاتك من الدنيا صدق الحديث وحفظ الامانة وحسن خلق
وعفة طعمة وهو من الأشياء الموجبة للامتهان فتعرض عنه النفوس العالية
تجنباً للدناءة والخسة قال ابن السماك ما أراني أوجر على ترك الكذب
لأني انما أدعه أنفة

ومما تقدم تعرف فوائد الصدق وأنه من أدخل الأشياء في مكارم
الأخلاق وعلوهم النفوس والكذب ضد ذلك وقد تبين لك مما سبق
سبب الحكم على بعض الأخلاق بالحسن وعلى بعضها الآخر بالبجح ومنه
تعلم انه قد تسوغ مخالفته بما قررناه في مواطن لما يترتب عليها من دفع
الاضرار العظيمة فان كلاً من حسن الصدق وقبح الكذب ليس لذاتهما
بل لما يترتب على أولهما من المنافع وأقلها اعلام الخاطب بما تعتقده واقعاً
حتى يتحرى فيه من الأعمال التي تناسبه ما يتجرأه وعلى ثانيهما من المضار
وأقلها اعلامه بغير الواقع فيبني معلوماته وحركاته على ذلك مع أن الأمر
ليس كما قيل وعلى هذا فاذا ترتب على الكذب القيام بواجب شرعى
لا يعد تقيصة كما اذا رأيت شخصاً يريد قتل آخر اختفى في دار وسألك

عنه فانك لا تعلمه به صيانة لدم محترم عن السفك وكذلك اذا تعين طريقاً
للصلح بين المتخاصمين أو كان خدعة في حرب وعلى أى الأحوال
لا ينبغي الافساح فيه خشية اعتياده لأنه من الأخلاق التي اذا اعتيدت
عسر التوقى منها ويحمل أن يكون في مواقع اباحتها تعريضاً لا تصريحاً
كما أجاب به النبي عليه السلام (رجلاً سأله ليعلم حال المسلمين في الحرب
حتى يعرف الكفار ذلك فيتمكنوا به من الانتصار) (ممن الرجل) فقال
من ماء (يريد أنه خلق منه) ففهم السائل أنه عراقي وكقولك اذا قيل
عنك شيء ورأيت أن دفع الضرر في الانكار (ان الله ليعلم ما قلت من
ذلك من شيء) فان ظاهر ما قلت أن ما نافية وأنت تريدها موصولة
وكقول ابراهيم عليه السلام لما كسر الأصنام وسئل عن ذلك (بل
فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون) الى غير ذلك من المعارض
ودليلنا على الترخيص فيه لدفع الضرر ما روى عن أم كلثوم قالت ما
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب
الأ في ثلاث الرجل يقول القول يريد به الاصلاح والرجل يقول القول
في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها وقالت أيضاً
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذآب من أصلح بين اثنين
فقال خيراً أو نحي خيراً . وروى عن أبي كاهل قال وقع بين اثنين من
أصحاب رسول الله كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت ما لك
ولفلان فقد سمعته يحسن عليك التناء ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك
حتى اصطلحاً ثم قلت أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت
النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس ولو (أى

بالكذب) وبالجملة فيحسن بالانسان أن يجتنبه جهد استطاعته فإنه قد يخطئ في تقدير الضرر الذي يريد أن يدفعه بالكذب فربما كان تافهاً يحتمل فلا يحسن الكذب ولو بالمعاريض في مثل ذلك خشية أن يصير خلقاً يرتكب لادنى توهم وقوع مامة وكثيراً ما كان الصدق سبيل النجاة فيما يتوهم انه فيه جالب الضرر ذاهب بالخير والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

النظام

هو عام في الأشياء النظرية والعملية وهو مما لا غناء عنه في الوسائل الصحية والأشياء المنزلية وطرق الرزق والأحوال الاجتماعية الداخلية التي تكون بين أفراد الأمة أو الخارجية التي تقصد من أمة أخرى لما لها من الارتباط في معاملتها السليمة وغيرها. قد أبناك القول في أن النظام انما هو حسن ترتيب الأشياء وتقديرها تقديراً يوصل الى الغرض المقصود ألا ترى أن الانسان اذا راعى ذلك في مأكله ومشربه ومسكنه وأعماله الجسدية كان غذاؤه بسيطاً لذيذاً وملبسه على بساطته وعدم مراعاة البذخ أنيقاً ومشربه نظيفاً شهياً ومسكنه مع خلوه من مظاهر العظمة والصلف بهيجاً نقيماً وما فيه من الفرش والرياش حسن الترتيب جميل الوضع يملأ عين الناظر حسناً وقلبه سروراً وارتياحاً هذا على قلة المبدول ومراعاة الاقتصاد. واذا رتب وسائل كسبه من زراعة وتجارة ونحوهما ذلك الترتيب يجد الكسب لديه وفيراً واطمئنان القلب عظيماً واستجمام الفكر متوفراً وعاش عيشة سعيدة هنيئة أنظر الى أهل الكد

سواء في المسائل العقلية أو العملية تجد أن من راعى منهم حسن النظام برز على غيره فيما تسارعوا إليه . ان الذين خصوا بالمحافظة على حقوق أمتهم وعنوا بالدفاع عن حوزتها لا يتفاضلون بكثرة عددهم أو عظم ثروة أمتهم بل في حسن نظام الدفاع ووسائله من الأساحة وترتيب الحركات فكيم من أمة قليلة غلبت أمة كثيرة وأزلتها من مكان العزة الى حضيض الذلة وأصبحت محكومة بعد أن كانت حاكمة . ليس ذلك إلا بحسن نظامها وتنسيق أعمالها . ان احكام النظام في حركات القوى العقلية والعملية طريق الى تسنم المجد والاعتداد بالقول . اذا رزقت الأمة رجالاً ذوى أقدار عالية وأفكار ثاقبة ونظموا شئونها تنظيمًا قويمًا علا قدرها وسمع قولها اذا اتبعته أبناء الأمة في واجبها بالنسبة لأطفالها وحياتها المنزلية والكسبية والاجتماعية الداخلة والخارجة عظم شأنها واتسعت أرجاؤها - ولا تحسبته ما يريده العامة من الملابس الفخم والمآكل المتنوعة والبسط والمقاعد الوثيرة والمباني الشاهقة ذوات القيم العظيمة وسكون المتعالمين واصغاثهم الظاهري مع اشتغال قلوبهم وانحصار عقولهم عن الاستفهام عما يليق اليهم حال التدريس فان ذلك من أكبر العوائق عن وسائل الاقتصاد وعن الرقي والتمرين على الشجاعة الأدبية واتساع المعارف

الشخص العامل في هذا الوجود يشغل الوقت فلا بد ان يُكفى مؤنة غير عمله خشية شتات الفكر وتفكيك الأعمال فيجد من نظام منزله وحسن رونقه ونظافته واحكام ترتيب ما فيه وتنسيق أوضاعه ونظافة مأكله ومشربه تنشيطاً على أعماله ووقتاً للراحة الحسنة التي تعينه على القيام بالعمل . ان هذه النفوس البشرية تملّ اذا استدامت في أعمالها

فلا بد لها من وقت تستجمع فيه قواها ذلك الوقت هو وقت الراحة في المنازل ومراتب الاسترواح فاذا كانت تلك المواضع على أتم تنسيق وأجل ترتيب بعثت فيها ارتياحاً يولد في الجسم نشاطاً فيعود الى عمله مستجمع القوى ثاقب الفكر

الأمم في حاجة الى هذا النظام أيضاً في سائر أعمالها فان العمل اذا كان على الترتيب المحكم الذي يؤدي الى السهولة وقرب الوصول الى الغرض المقصود قلّ فيه العناء وكثر الكسب . اذا رتبت أعمال الحكومات ترتيباً جيداً روعى فيه السهولة والنظام يقوم العامل الواحد مقام الكثير فتقل المرتبات ويسهل الاقتصاد . اذا كانت الجيوش على ما قدمنا من النظام الحسن من جهة الوصول بها الى الغرض المقصود منها قامت بما نيط بها خير قيام وان قلّ عددها . اذا دخل ذلك النظام دور التعليم مراعاة فيه ما يناسب القاءه وما يحسن لطبقات المعلمين والمتعلمين بالنسبة للغرض المقصود من ذلك التعليم جاء بما يراد منه مع قلة في الزمن واقتصاد في الانفاق وبالجمله فالنظام من دعائم الاصلاح الخاصة والعامة . سمعنا عن كثير من الناس أنهم لا يعبتون به لكونه من المستحدثات أو أنه من أخلاق الجهلاء الذين لم يذوقوا لذة العرفان . ان هذه النعمة ليست بالحديثة فكثيراً ما رأينا وسمعنا في التاريخ من استقباح الحديث ما يعد مكابرة ولكن ماذا عسى ان يقال وتلك سنة الأمم تكثر المصارعة فيها بين الجاهل والعالم والحاسد والمحسود والقديم والحديث . ان الذين لا يعنون بالنظام ليسوا من ذوى الأعمال وأرباب الجد والنشاط الذين يحافظون على عدم ضياع الأوقات بدون جدوى . ان دأب أولئك القوم

قضاء الوقت على أى حالة فبغيتهم أن ينتهى اليوم والشهر والسنة وهكذا فهم هؤلاء ذهاب الأزمان وتقضيها لا يحزنهم أنهم فى حاجة لانجاز ما هم معنون بانجازه

ان خلق النظام يوشك أن يكون جبلياً لأهل البلاد التى لا تستدر فيها الخيرات إلا بالكد اذ هى ميادين سباق فى الأعمال والآراء أما غيرهم فلا يكون لديه هذا الخلق إلا بالتربية والتمرين . النظام شجرة ثمر النجاح فى كل ما تقدم من الأعمال وعدم العناية بالشجر يودى الى فقدان الثمر . الاستهانة بالوسائل تضيع للمقاصد يجب على العاقل ألا يستهين بالنظام فان عدم العناية به اعراض عن الوصول الى ثمرات الحياة الانسانية والخصائص البشرية وذلك انحطاط الى أفق الحيوان يامعاشر المعارضين لأس التقدم وعماد النجاح ما أحوجكم لمرشد الى أخص ميزة الانسان لا نسبة لكم أشنع من سبتكم أنفسكم بما تقولون كبرت كلمة تخرج من أفواهكم ان تقولوا ما لا تعلمون انا نشاطركم القول فى ذم ما يسميه الجاهلون نظاماً وهو داء عقام يجب على قادة الأمم وقائتها من أضراره

يجب على الدعاة المرشدين أن يفهموا العامة حقيقة النظام قبل الدعوة اليه حتى اذا دعوا أُجيبت دعوتهم ولبي القوم طلبتهم

ذكر بعض الأخلاق التى تحسن فى بعض الأشخاص دون بعض

علمنا من كثير مما سبق سبب حكمنا على الخلق بالقيح أو الحسن فاذا اتخذنا ذلك مرشداً لنا فى أحكامنا ظهر لنا أن بعض الأخلاق يكون

حسناً في بعض الاشخاص وقبيحاً في الآخر بالنسبة لما يقصد من ذلك الشخص ولذا كرمودجاً لهذا فنقول علمنا مما تقدم في خلق الحياء أن الحد الوسط منه فضيلة وأن الانحطاط فيه رذيلة ولكننا نرى أن ذلك خاص بالرجال فان الأعمال الخارجية منوطة بهم والافراط في هذا الخلق معطل لهم عن الفضائل قاعد بهم عن الوصول الى عظيم المنافع التي تنبغى المجاهرة فيها بالقول والعمل وهذا بخلاف النساء فانهن لو أفرطنَ فيه كان أصون للأعراض وأبعد عن الابتذال ولا يعوقهن عن ترتيب المعيشة المنزلية وحسن القيام بما يجب لأطفالهن من النظافة والعناية بما لهم من المأكل والمشرب وغيرهما بل ربما كان داعية ائلاف رجالهم اياهم لما يرونه من محاسن هذا الخلق وكذلك الزينة فان افراط الرجال فيها مجلبة للرفاهية ونعومة الأظفار وهو لا يحسن في الذكرا من المنوط بهم الكد والتعب واحتمال المكاره حياً في الفضيلة واستجلاباً للمنافع ودفع الاضرار بخلاف النساء فان التأنق فيها يظهرهن لدى الأزواج بمظهر الجمال ومن ثم أباحت الشريعة لهن لبس الحرير والتجلى بالذهب وغيره من نفائس الأشياء .

نعومة البدن وعدم احتمال المشاق وحسن المنظر وزائد اللين كل هذه من أنواع المحاسن في الزوجات مرغبة للأزواج فيهن قال عنتره

تُسمى وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سرة أدم ملجم

قد رأينا خلق حب الكرامة يستتبع الفضيلة في الأطفال فاذا فرح الطفل من مريه بما يبيده له من الاعجاب والسرور والاكرام لكونه فعل أمراً ممدوحاً أسرع الى الاكثار من ذلك كي ينال منه ما يحبه من كرامة نفسه فيتدرج الى فعله ويمرن عليه حتى يصير له خلقاً وسجية

ولكننا نجد في غيرهم على خلاف ذلك فان العاقل لا يجدر به أن يتصف بالفضيلة لاجل أن ينال ما يجب من التجارة والاعظام بل يحسن به أن يتصف بها لكونها كمالاً فانه اذا كان الباعث عليها حب الكرامة أعرض عنها اذا اتقى ذلك وليس هذا من أخلاق الكلمة العاملين نعم ان الشئ على صاحب الفضيلة يبعث فيه الهمة والنشاط الى تكرارها والاتصاف بأمثالها ولكن فعله ذلك لا يكون ناشئاً عن حبه اعظام الناس واكباره لأجله وهذا لا يكون إلا للمهذبين ونحن الآن بين قوم نريد أن يكونوا على ما يحسن بعض الحسن فنعد ذلك فضيلة في الصغير والكبير حتى يمرن عليه كل منهما فاذا رقينا بتلك المعارج الى ذروة أرباب الأخلاق الفاضلة درجنا في مثل هذا المبحث على ما درج عليه علماء الأخلاق وقلنا ان حب الكرامة خلق حسن في الصغير دون الكبير على ضرب من التأويل من الأخلاق التي تحسن في الرجال دون النساء (خلق الكرم في غير المواطن الخيرية العامة) كقراء الضيف والبذل للمحتاج فان هذا لا يحسن فيهن فقد يكون وسيلة لطمع ذوى الفسق والدعارة فان المرأة اذا اوت الضيف وأكرمته وبذلت للرجل المحتاج حاجته طرقت له سبيل الاقبال عليها والطمع في محبتها وقد يتخيل أن ذلك لرغبة فيه فيتدرج لاقبالها عليه والفاسقون يتخيلون أضييق الطرق وأخرجها في الوصول الى مشتهياتهم لاجباً مطروفاً لا يتكلف فيه سالكة شيئاً من العناء (ومنها خلق الزهد) فانه يحسن بالعلماء والعباد القائمين بالوعظ والحث على عدم الاعتماد بادخار الأموال وكثرة المقتنيات وازينة رجاء أن يخففوا من شدة وطأة الظالمين والأغنياء المقترين على أنفسهم

والبخلاء على غيرهم ممن ينبغي لهم مواساتهم فان الواعظ اذا كان مصداقاً لما يقول نفذ الى صميم القلوب قوله ولا يحسن ذلك بالنسبة للامراء والعطاء من الملوك فان ذلك الخلق يذهب بمهابة الملك وشارات الامارة ومعلوم أن الملوك اذا لم تكن خزائهم مفعمة بالأموال مكثرين من المقتنيات ولديهم مقدار عظيم من الأسلحة والعدد لا تيسر لهم مناخزة أعدائهم من الحكومات الأخرى فتصبح الحكومات الخالية من المال والعدد طعمة لغيرها ولكن هذا لا يكون إلا في الملوك المطلقين — المال من أعظم القوات التي تساعد على استقلال الأمم واتساع أرجائها وتعميم طرق الإصلاح والتوصيل بين بلدانها فتزداد بذلك قوة وعظماً اذ هي قادرة على سهولة حشد جيوشها بتلك الطرق في زمن يسير وعلى تنظيم جبايتها والقوة كل القوة في الرجال والأموال مادام على حد النظام والاحكام

(ومنها مجازاة المداح) — هذا الخلق كاد يعفوا أثره الآن في الممالك الغربية فان الأموال أموال الأمة ولا شأن للملوك فيها وأموالهم الخاصة بهم لا يغدقون بها على المداحين فقد رسخ في أذهان أبناء تلك الامم وضعها وعظيمها عدم العناية بقول المداحين لعدم ذلك فضولاً وملقاً وان الاجدر بأولئك المداح أن يسلكوا في الكسب طريقاً مشروعاً . وهذا الخلق حسن بالنسبة للعظماء والامراء الذين لهم غناء في الأمة فان انابتهم مادحهم المدح الحق واهترأزم لذلك يولد فيهم حب الاستقامة والاستكثار من الأعمال الجليلة توفعاً لحسن الأحدثه . وتتابع المجازاة عليها يودى الى الاكثار منها فتكون بعده أثراً خالداً يحفظ له لسان صدق على ما أداه

من المنافع لقومه ويعرى من خلفه باتباع سنته والتفوق عليه فيها على شريطة أن يكون الجزاء معتدلاً والثناء حقاً . (هذا غاية ما يمكن ان يلتمس لحسنه) واذا لم يكن كذلك كان من الأقوال الضارة فان الظالمين الباطشين من العظماء أشد ميلاً الى الثناء وحسن الأحداث ليستروا بذلك ما قبح من ظلمهم وما أفسد الامم من استبدادهم فإثابة أمثال هؤلاء مادحيهم ترويجاً للزور وادحاضاً للحق بالباطل واغراء لمن بعدهم على اتيان القبيح من الأعمال على أن الكامل في الفضيلة ربما آثر الخفاء على الظهور والاستكانة على العظمة ورأى انه لم يُجد حكماً ولم يجب نفعاً استصغاراً لما حصل منه وطمعاً في أن يكون على أرقى من ذلك فلا يرى نفسه أهلاً لما يقال فيه من المدائح فيحمله ذلك على عدم المجازاة أنظر الى ما حدث بين جرير وعمر بن عبد العزيز رحمه الله حين جاءه وأنشده

كلمته التي يقول فيها

وكم من ضرير أمير المؤمنين لدى أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابت السنة الشهباء ما ملكت يمينه فخناه الجهد والكبر
وهذا الخلق لا يحسن من غير أولئك فان الأشخاص الذين لم يأتوا
بجليل الأعمال لا تحسن مجازاة مادحيهم لأن في ذلك اغراءً على الثناء
الكاذب فيكون ملقاً ومدعاة لرواج الاباطيل والاكاذيب فالأجدر
بالباذل لأولئك أن يبذله لمن يستحقه من أرباب الحاجة أو المشروعات
الخيرية النافعة

طريق معرفة الانسان عيوب نفسه

إذا اهتدى الانسان الى الذميم من أخلاقه وعالج نفسه على ما
أوضحناه سالفاً أخذاً في التخلي عنها شيئاً فشيئاً فيضعف فيه ذلك الخلق
المرذول وعلى نسبة ضعفه ينمو فيه خلق الفضيلة المضاد له فعلى هذا علاج
الشخص نفسه من الخلق الذميم يتوقف على معرفته وعلى أخذه نفسه
بالتخلي عنه وليس كل شخص قادراً على تلك المعرفة وعلى حمله نفسه على
الابتعاد عما لها من الأخلاق فان كل واحد مولع بحب ذاته فلا يفقه لها
عيباً ولا يعرف منها نقصاً اذ هي أحب شئ لديه وأنفس عنده من كل
ما عداها كما قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كلية كما أن عين السخط تبدي المساويا
وقال أيضاً

خليك أنت لا من قلت خلى وان كثر التجمل والاخاء
الأ ترى أنك تستحسن من نفسك ومن ابنك ما تستقذره من
أبناء غيرك ومن سواك وعلى هذا فاذا أراد شخص أن يتعرف الفاسد
من أخلاقه أن يتعلمه من أصدقائه العقلاء البصراء بمذام الأخلاق
ومحاسنها فاذا أعلموه شيئاً منها جدد في علاجه حتى يخلص منه غير أن
هذا الأمر قليل فان أكثر الأخلاء والأصدقاء لا يشافهون صديقهم
بذلك ولو طلبه اليهم خصوصاً الأمراء والعظماء لما وقر في النفوس من أن
كل شخص يرتاح الى الثناء عليه ونسبة المحاسن له وأنه اذا قوبل بغير
ذلك ثارت فيه قوة الغضب فسب وخاصم فلا يفوهون له بالمثالب إلا اذا

كانوا على جانب من رصانة العقل وصادق التجربة آمين من وقوع الضرر من جراء ذلك والأطروحة مدحاً وأشبعوه ثناءً حباً في الملق ومداهنة في الصداقة واستجلاً للخير أو درأ للضير وعلى ذلك فهذه الطريقة غير متوفرة في كثير من الأصدقاء والعشراء واذن فيحسن أن يتعرفه من أقوال أعدائه وألسنة معارضيه فاذا فطن بذلك الى خلق ذميم أخذ نفسه بالرجوع عنه والانكباب على ضده ولا يضرته في هذا ما عساه أن يكون من كذبهم وفريتهم فيما ينسبونه اليه فانه لا ضرر في تصديقهم فيما قالوه لأنه ان كان باطلاً وعمل على مقتضاه نهي في نفسه خلق الفضيلة فتأصل لديه وأصبح ملكة بعد ان كان حالاً وهناك طريق آخر لمعرفة النقيصة وذلك بأن يعاشر الناس بزائد اليقظة والتنبه الى ما يذمونه كسرعة الغضب أو الشح أو الكذب فيتفقد في نفسه تلك الأشياء المذمومة تفقد اليقظة فان ظهر له شيء منها جدد في الابتعاد عنه (وهذا يحسن بالجاهل الذي لا يعرف حسن الأخلاق من قبيحها) أو ينظر الى خلانه وأوداه فان الغالب في أولئك أن تكون أخلاقهم متشابهة وأحسن شيء في هذا الباب أن يتأمل نتائج أخلاقه فان وجد من عمله استرقاق قلب وفوائد ترتبت على صنعه علم أن ذلك نتيجة ذلك اخلاق الفاضل وان وجد منه تنافر القلوب والاضرار علم أن ذلك ناشئ من الخلق الذي جلبه وانه خلق نقيصة فيعمل على اجتنابه والاتصاف بضده

كان عمر رضى الله عنه على علو نفسه واتصافه بفاضل الأخلاق يتعرف أحوال نفسه من أصدقائه الذين لا يخشون في مقال الحق لومة لائم فقد ورد أنه كان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم في المنافقين فهل ترى على شيئاً من آثار النفاق وكان
رضى الله عنه يقول رحم الله امرءاً أهدى الى عيوبى سئل داود الطائى
عن سبب اعتزاله الناس فقال ماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى

تأثير البيئة والمجتمعات والدين فى الأخلاق

يولد الانسان خالى الفكر من تصور الحسن والتبحيح لا يدرك الا
ما توصله الى عقله حواسه الخمس فيألم مما يؤلمه منه كالضرب والحرارة
والبرودة ويسكن الى ما يلذه كالماء كل والمشرب ففكره وقتئذٍ بمنزلة
مزرعة تخصب ما يلقى فيها من البذر فان ألقى فيها بذر حسن من صادق
التصورات وفاضل الأخلاق وتعمدته التربية المنزلية بما يناسبه ندى وأثر
ثمراً جميلاً يفيد ويفيد المجتمع صلاحاً وفلاحاً واذا ألقى فيه بذر خبيث
من التصورات السيئة الكاذبة الضارة أنتج شراً وفساداً لنفسه وللمجتمع
وليس ذلك قاصراً على التربية المنزلية بل قد يكون ذلك التأثير للبيئة
والمعاشرين فان للأجواء من التأثير ما لا ينكره المطلع على خصائصها الا
ترى البلاد الزائدة الخصبية اذا قلت فيها المزاحمة وجد أهلها من ذلك ما
يكفيهم مؤونة الحياة على قليل أتعابهم فيركنون الى الراحة والبطالة
قانعين بما سهل لديهم من وسائل المعيشة فيعتادون الكسل ويقل فيهم
خلق المثابرة على العمل ويؤثرون الراحة على المشقة ويقرب من هؤلاء
من وكلوا أمور نفقاتهم الى الخدم وكلفوهم القيام باستدرار الأرزاق أنظر
الى أهل السودان لا تجد فى أخلاقهم زمن اكثارهم من الأرقاء والخدم
المدائمة على الأعمال واحتمال المشاق فى سبيل الرزق والى أهل الحجاز

في فرضهم على عبيدهم العمل واعطائهم الأجر فان ذلك حبب اليهم
الراحة وعدم الادمان على الأعمال الجالبة لخيرات الأرزاق مع ما ساعد
على هذا من الحرارة في بلاد السودان وما شاكلها فان شدتها تورث في
الانسان خموداً في القوة الفكرية والبدنية حتى لا يستطيع المثابرة على
كثرة استعمالهما اللهم الا اذا زاحم أولئك أقوام ذووا غيره وعمل فان
مخالطتهم اياهم تولد فيهم غيرة ونشاطاً لما جبلت عليه النفوس من حب
استباق المنافع والخيرات ولا نذهب بك بعيداً بل نلفتك الى نفسك
وقومك قبل وفود ابناء الامم الاخرى الى ديارهم تجد أنهم كانوا لا يثابرون
على الأعمال ولا يتسابقون في الوصول الى ما يجلب الثراء فكنت ترى
المزارع لا يشتغل الا أياماً قليلة في تهيئة أرضه للزرع والقاء البذر ثم يتركه
وشأنه بدون سمد وتنقية من الحشائش الغريبة حتى اذا جاء وقت حصاده
نقله الى البيدر واشتغل بدراسته وتذريته وقضى الكثير من أوقاته في
ملازمته منزله ما بين نوم ولعب ومسارة قانعاً بما يكفيه من تلك الأرزاق
التي حصل عليها بقليل العمل وكذلك التاجر لا يسعى ويكد في جلب
عروض تجارته من المصانع التي بالاماكن البعيدة ولو كانت رخيصة
الأثمان ولا يفكر في اتخاذ طريق للوصول الى الجيد الرياح منها مفضلاً
الاكتفاء بالقليل مع الراحة من عناء الأسفار وشتات الأفكار عن
الكثير المستصحب لذلك ولكن لما زاحمه الغرباء في طريق الكسب
وموارد الرزق ووجد من نشاطهم ما يعوقه عن الوصول الى مرافق الحياة
أخذ في الحركة والمثابرة أكثر من حالته الأولى وان كان لا يزال في ذلك
قليل الكمد قصير الفكر لو نسبناه لمزاحمه . فان تغير الحال أفهمنا أن المخالطة

تؤدي الى تغيير في الخلق فلو خالطنا أقل منا كدأً وأحط فكراً لما نمى
فينا خلق المزاومة والمثابرة غير أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تلك
المخالطة أظهرت فينا حب التأنيق في المآكل والمشارب والتصوير والرياش
فأصبحنا مع كدنا وعملنا القليل نبذل ما زاد من الكسب والريح على
تشييد تلك القصور الباذخة والملابس المتنوعة والألوان المختلفة ويا ليتنا
وقفنا عند ذلك بل تجاوزناه الى الاكثار من معاقرة الحنور والمباراة في
ميادين الفهار والمضاربات المجتاحة للثروة فذهبت أموالنا وضاعت أرباحنا .
خالطنا قوم أشد منا معرفة بطرق التراء والاقتصاد وأقدر تفنناً في وسائلهما
ذووا جد ونشاط رسخ فيهم خلق المثابرة فأكسبونا منه قليلاً وأقبلنا
اقبال الهيم على ما لديهم من الزخارف ومن وسائل الثروة التي نحن فيها
عيال عليهم كالمضاربة وما شاكلها فربحنا قليلاً من الأولى وخسرنا
أضعاف ذلك من الثانية ولو كان لدينا سياج من العقل الراجح والرأى
الركين لما كسبنا إلا ما به صلاحنا وفلاحنا

إذا نشأ المرء بين أسرة مهذبة سرت أخلاقها اليه من حلم وأناة
وشجاعة وقوة ارادة وغير ذلك من الفضائل فاذا عاش كبيراً بين قوم
أخيار بررة لا يعرفون النقيصة ولا يألفون سوى الفضيلة أصبح كاملاً
فاضلاً خيراً لنفسه خيراً لاسرته خيراً لاصدقائه وقومه فانه لا يجد لديهم
مدحاً إلا للفضيلة ولا ذمماً إلا للردية فيعتاد ذلك وتتأصل فيه الفضائل
ويحانب الرذائل وعلى العكس من ذلك التربية الفاسدة ومعاشرة الاشرار
ذوى الدعارة والفجور فانه بمصاحبتهم لا يتعد عن الرذيلة المنطوية في
أقوالهم وأفعالهم ومدائحهم وغالب أحاديثهم فيمرن عليها والمرء اذا اعتاد

شيئاً لا تردعه مذامه ولا تنفّر قلبه قبائح بل ربما تخيلها محاسن . أليس الشرف الانساني يمنع صاحبه من ارتكاب الرذيلة فتراه يتباعد عنها استحياء وخشية من سوء الأحدثوة فاذا وجد قرناءه لا يتحاشونها سهل عليه أن يغشاها مرة وأخرى فلا يجد فيها غضاضة على حسن سمعته وثاماً لشرفه وهذا ما يحملنا على القول بأن الشرف الانساني كالزجاج اذا كسر **تسر جبره**

المرء يتخلق بخلق أحبابه وأصدقائه ومن يعتقد فيهم الكمال والفضل فان المفضول مولع بالتخلق باخلاق الفاضل وهذا أمر سائر في عامة الناس كما نص عليه العلامة ابن خلدون ولذا ورد ما معناه المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وعلى هذا فاذا رأيت قوماً تنتحل أخلاق وعادات أمة أخرى ويألفون مألوفاتها فاحكم بأن عظمتها ملأت قلوب أبنائهم حتى اذا حاربوها لا يقدمون على ذلك الا وقلوبهم بين جناحي طائر لما ملأها من تجلة تلك الأمة واكبارها فلا يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم مغلوبين مخذولين يؤيد هذا ما ورد (اذا شابه الزى الزى فقد شابه القلب القلب) . فافتنى أثره فيما يستقبحه ويستحسنه ومن ثم حذر بعض الدول القوية على الجند تقليد غيرهم من جند الدول الأخرى

هذا وتأثير الدين الشريف في الاخلاق أمر ظاهر لا يسع أحد انكاره (الدين له سلطان على القلوب وتأثير في النفوس) فان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ووعدهم (اذا ائتمروا بأوامره واجتنبوا نواهيه) بالخير العميم والفضل الحزيب وأوعدهم

إذا خالفوا ذلك بالسخط المريخ والعذاب الأليم
وهو العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في
السماء وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما
تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا
يابس إلا في كتاب مبين . وهو القادر على تحقيق ما وعد به المتقين
وأعد به غيرهم وهو القاهر فوق عباده ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه
فمن آمن بما جاءت به الرسل وجد على نفسه رقيقاً في خلواته يشبه إذا أطاعه
ويعاقبه إذا عصاه فيقبل على المأمورات ووجوه الطاعات سرّاً وجهرّاً
ويعرض عن المنهيات في وحدته ومجتمعاته

القوانين الوضعية على فرض اصابتها الغرض المقصود فيما يناسب
سعادة المجتمع لا ترع اناس عن الأخلاق الذميمة والافعال الضارة إلا
ظاهراً لأن ما ترتب عليها من أنواع العقوبات لا يتحقق إلا اذا علم من
صاحب ذلك الخلق تلك الفعّال بخلاف ما كان خفياً في الانفراد لا يطلع
عليه أحد أو تواطأ المطلعون على اخفائه . على أنه كثيراً ما يحصل الاغضاء
عن العقوبة بوسائل المحبة وما جرى مجراها وعلى فرض كل ذلك فمن أين
لنا أن المسيطر لا يعوقه عن الحكم بالعقوبة أو تنفيذها عوائق أخرى
عامت مما سبق في مدح الأخلاق الفاضلة وذم السافلة أن كل
ذلك بعض ما انطوت عليه الشريعة الطاهرة فإن آى الكتاب الكريم
والأحاديث الشريفة أتت في بيان ذلك بما لا يفوقه بيان ولذلك قال عمر
رضى الله عنه من لم يؤدبه الشرع فلا أدبه الله وليس لدينا شيء أحسن
في هذا الباب من أن نحميك على كتاب الله تبارك وتعالى وستة نبينه

صلى الله عليه وسلم فانك اذا تدبرت ما جاء فيهما رأيت العجب العجاب
وقلت ليس فى الامكان أبدع مما كان . اذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة
وعامت ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمحة فى تهذيب الأخلاق
التأثير الأكبر وكذلك اذا عقلت تاريخ كل أمة ذات دين سماوى قبل
الدين وبعده لم تبقى لديك مزية فى شىء من ذلك
قلنا وجيزاً ولو سقنا الجزئيات لطل بنا الكلام

التربية

نريد بها هنا تنمية الفضيلة النفسية والجسمية تدريجاً حتى نصل
بالمرتبى الى حد الكمال فيهما
الطفل يولد خالياً من مدركات النفس الناطقة التى تكلمنا عليها فى
الفلسفة النظرية ليس لديه إلا المدركات الحسية التى تناسب القوة الشهوية
والغضبية فهو فى هذه الحال بمنزلة الحيوان لا يحكم الاحكام الكلية على
الأشياء بالقبح أو الحسن فلا يهتم إلا للمحسوس يتخيل فيه فائدة ولا ينفرد
الامنه اذا تخيل فيه ضرراً فقوته العاقلة بمنزلة جوهره نفيسة خالية من
النقش قابلة لما يرسم فيها من حسن أو قبيح فهو أمانة فى يد أبويه أو من
وكلت اليه تربيته (فعليه أن يحفظه من موارد التلف والابواق) فان
نقش فيها المعلومات الحقة المفيدة وطبعه على الأخلاق الفاضلة وجنبه
الأباطيل والذائل وعوده خير الأعمال أثابة الله على حفظ تلك الأمانة
والعمل الصالح الذى كان به كمال ذلك الطفل ذلك الكمال الذى أفاده
وأفاد ذلك المرتبى وأسرته ومواطنيه بل أمته وبنى الانسان والا كان ضاراً

لنفسه بعدوله عن حفظ ما ائتمن عليه ضاراً لتلك الأمانة ولأسرتها ولأمتها
يرشد الى هذا قوله عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة الاصلية
فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه والمرء كما هو مسئول عن اصلاح
نفسه وافسادها مسئول عن اصلاح وافساد نفس من وكلت اليه تربيته
ينبغي للأم أو من يقوم مقامها أن تتعهد الطفل في نظافة جسمه
وملبسه وماأكله فلا تتركه لحظة غير نظيف الاطراف وسائر الجسم فان
ذلك مجلبة للضرر

الطفل لا يصون نفسه عن وضع أصابعه على عينه وداخل فيه .
أسرع شيء الى اتلاف الاعين قذارتها ورماسها ووساخة ملامسها . ان
وسخ الثياب والجسم يوجب تراكم الذباب الناقل للجراثيم الامراض وتراكم
الايوساخ يضعف التنفس الجلدي وكل هذا من وسائل ضعف الصحة
يجب عليها ألا تدع في الأمكن القذرة ولا تكثره من الرضاع بل
تنظمه تنظيمًا يطابق الصحة ولا تهمل في ذلك خشية من عويله وصياحه
فانه اذا رأى ذلك مجلباً لما يرومه أكثر منه كما قال

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفرطه ينفطم
على أن كثرة الصراخ أيام الطفولية الاولى أجش للصوت وأوصل
الى اصلاح طرق التنفس وقد عرفت ذلك العرب قديماً وذكر في نصائحها
والأ تنيمة حزيناً باكياً . فقد ورد عن القدماء من الأمة العربية (أن
النوكى تنيمة ولدها باكياً والحاذقة تغني له حتى ينقلب أسفه سروراً فلا
تنيمة الاعلى هذه الحالة) . وليس ذلك بمقصود في مبحثنا هذا لأنه من
مباحث الأطباء ، فلا نكثر الخوض فيما لسنا فيه على قدم

ولنذهب بك الى القول في طريق انماء القوة الحكيمة والأخلاق
الفاضلة والأعمال الصالحة فيه وهو خلو من هذا ومن أصداده فانه
أسهل وأنسب بطريقنا وأنفذ للوصول الى الكمال المطلوب اذ القاء
بذر في مغرس خال لا يحوج الى عناء كالغناء الذي يكون عن القائه في
أرض مملوءة بالحشائش الفاسدة والجذور المتلفة لنماء ذلك البذر فانه
يستدعى قبل الالتقاء تبعاً عظيماً في تنقية ذلك المغرس من تلك الحشائش
والجذور العائقة عن انبات البذر نباتاً طيباً ثم ثمراً حسناً

يجب أن يعودَ الطفل الصدق في كل أقواله ويسهل ذلك نشأته
بين أسرة لا تقول الا حقاً فلا يرغب ترغيباً كاذباً ممن هو بينهم لأنهم
بذلك يترقونه الى الكذب واذا درج عليه مرة درج اخرى وهكذا
حتى يكون خلقاً راسخاً يصعب علاجه ومعاشرة الأطفال الذين ربوا على
الفضيلة من أولياء أمورهم الذين عنوا بذلك والاحسان اليه اذا قال صدقاً
وترك معاقبته اذا أجرم وسئل عما ارتكب فقال حقاً وأن ينهى عن
الكذب ويؤمر بالصدق في كل أقواله ويكافأ على الأول بما يعده حسناً
ويقبل به على مداومة ذلك . ترك النيمة لكبير الأسرة فيما يحصل
داخل المنزل من أحد أفراد أسرته ويعالج في ذلك بما عولج به في خلق
الصدق . وأن يعود الحنو والعطف على من معه والغضب في موضعه بأن
يستحسن منه ما هو حسن ويكافأ عليه ويُستبج منه ما هو قبيح بالنصح
واظهار الاستياء منه . وكذلك يجب أن يُربى فيه خلق المثابرة على العمل
بجملة على مزولة ما يتعلق به من غسل الوجه والأطراف وتنظيف
الملابس والقيام ببعض الأشياء المنزلية متى استطاع الى ذلك سبيلاً .

واقفاه على الحسن من أعماله واظهار السرور منه والفساد وارشاده الى احسانه واظهار الاستياء منه متبعاً في ذلك كله ما هو أنجع وأنفع في وصوله الى درجة الكمال فان رأى أن النصح كاف في الردع والزجر فلا يعدل عنه الى العقوبة لأنها تولد في القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصرامة والحرية المطلوبة في المقال والأفعال . يجب عليه ألاّ يدهه يفرط في الأكل خصوصاً ما لا يناسب صحته ونمائه من الأغذية العسرة الهضم وأن يفهمه أن كثرة المآكل جالبة للأمراض مدعاة للكسل وعدم النشاط . وعليه أيضاً أن ينمي فيه خلق الاقتصاد في أمره بادخار شيء من النقود التي تعطى له وكلما رآه مقتصداً نمت في ذلك زيادة عطائه واستحسان هذا الخلق منه واذا رآه مسرفاً متفماً قلل من عطائه أو أمسك وأظهر له الاستياء الى غير ذلك من الأشياء التي تبغض اليه الاسراف وتجب اليه الاقتصاد ويجب ألاّ يحدث بالاحاديث المفزعة التي تملأ القلب مخافة كأقاصيص العفاريث وما شاكلها بل يعود الشجاعة والاقدام المعتدلين وذلك بالامسك عن ذكر المخوفات وحمله على الذهاب الى بعض قاعات المنزل منفرداً وقضاء حاجته كذلك ما دام في أمن عليه من الحشرات والهوام حتى ينمو فيه هذا الخلق (ولذا رأينا النشء في البدو أكثر شجاعة وأعظم اقداماً عن نشء الحضرة) . ويجب أن يقضى وقتاً في الرياضة البدنية تقوية لأعصابه وجسمه واعانة له على الوصول الى المعلومات فان شغل معظم الوقت بالتعليم يذهب به الى السآمة والملل . يجب أن يعلم من المعلومات الحقة شيئاً فشيئاً على المقدار الذي يصل اليه عقله كما يجب الاحتراس من تعليمه شيئاً أعلى من مداركه ولا يلق اليه شيء من

المعلومات الباطلة والأفصيص الكاذبة فان ذلك مجلبة فساد الأخلاق
وباطل الآمال فمن الأشياء الموجبة لسوء تربية النشء قراءة الاقاصيص
والروايات المملوءة بالباطيل فانها توصل فيه الامانى الكاذبة علاوة عما
تجلبه من الخوف والكذب واتباع هوى النفس . ويجب حثه على التمسك
بأذيال تقوى الله فيعود القيام بامثال أوامر الشرع واجتناب نواهيهِ قدر
استطاعته حتى اذا جاء طور التكليف وجدده مألوفاً . الطفل فى بدء أمره
لا يصعب على مربيهِ تهذيبه وحمله على الأخلاق الفاضلة متى كان القائم
بتربيته حكيماً يتعهد أحواله النفسية والجسمية . الطفل قابل لما يودع فى
نفسه من حسن أو قبيح ألا يرى انه يثبت على دين كفالهِ ومربيهِ

أخلاق مربيهِ تتسرب اليهِ من حيث لا يشعر فانه يراه أعظم منه
لكونه قائماً بشأنهِ صاحب أمرهِ ونهيهِ فيقلده تقليد المفضول الفاضل
ولذا ترى الأبناء يتشبهون بأبائهِم فى حركاتهِم وسكناتهِم فيجب أن
يكون القائم بتربيته ممن عرفوا بمحاسن الأخلاق والتمسك بالتقوى جهد
الاستطاعة ومن ثم حضرت الشريعة التعلم من استاذ فاسق

اذا فقحت ذلك عامت أن المربيات لابنائنا سبب فى جهالاتهِم
وفساد أخلاقهِم وسقامة أجسامهِم فيجب أن تكون الأمهات على جانب
عظيم من العفة والديانة والتقوى عارفات بالفضائل ووسائل الصحة التى
قدمناها ويهض المعلومات الحقة التى يناسب تعليمها الأطفال حتى تحسن
لدينا تربية أبنائنا

ما أكثر جرم الأمهات الجاهلات على أبنائهن فى التربية العقلية
والجسمية فكم من جواهر نفوس ذهبت نفاستها وتأصل فيها الظلام بعد

صلاحها للانارة ودنست بعد نقاءتها بباطل المعلومات وكاذب الأقويل
وكم من صحة بدلت سقمًا استعقب فناء بجهلهم طرؤ الأمراض القتالة
فلا تفتن اليها حتى تعرض طفلها على الطبيب قبل أن يستحکم الداء ولا
يجدى الدواء أنظر الى مرض الخناق المسمى (بالدفتريا) فان جهل
الأهات اياه أودى بالأولاد (وهم رباحيننا صغاراً ورجال مستقبل بلادنا
كباراً) فأصبحوا رهائن القبور ومضامين اللحد

يجب أن تتعلم الأم نظام منزلها وتربية أولادها وهي رهينة خدرها
أليفة عفاها فاناً لا نطلب منها شيئاً فوق القيام بذلك . وتكليفها بأن
تكون كالرجل في كل أعماله شطط لو تعلمون . المرأة أعمالها كثيرة فان
القيام بالنظامات المنزلية على تنوعها وبترية الأبناء على النحو الذى أسلفناه
مع ما هي عليه من طرؤ أمراض الحمل والنفاس لا يدع لها الا وقتاً
يسيراً للراحة فيا حبذا لو وصلنا بها الى هذه الغاية

على الرجل القيام بما هو خارج المنزل فيكفى زوجته همه وعليها ما هو
داخله فتكفيه مؤنته (قسمة عادلة وحكم حسن) اختلف على بن أبى
طالب كرم الله وجهه وفاطمة رضى الله عنها في ذلك فناط رسول الله
صلى الله عليه وسلم علياً بقضاء ما هو خارج منزله وفاطمة بما هو داخله .
ان كل حكم يأتى على خلاف ذلك ليس منشؤه الا ما استهوى العقول
من رفعة قوم واتساع سلطان ملكهم فنسبوا ذلك الى كل ما لديهم من
الأخلاق والعادات ولم يفتنوا الى أن فى بعضها قبحاً يالم منه القوم المنا
من بعض ما لدينا من العادات على فضلها ومناسبتها للأحوال العمرانية
وشتان ما بين الأملين الرقى يجلبه الاتحاد والتضامن فى المنافع العمومية

العائدة على الافراد بمنافعهم الخاصة . تجلبه الثروة والمثابرة على الأعمال العظيمة . يجلبه التنقير والبحث وراء ما يفيد اختراعه قوةً ومالاً . يرقى بالأمة مالا وقوةً اكبار شأن من أفاد أمته واحتقار من كان على عكس ذلك فان هذا يبعث المحسن على الاكثار من احسانه والمسيء على الاعراض عن اساءته لا كشف الحجاب واطراح النقاب وليت شعري هل شاهد القائلون بخلاف ذلك ما ترتب على تبرج النساء في تلك البلاد الراقية من المفاسد وهل تفكروا قليلاً ونظروا في ذلك حتى يصلوا الى الحق الذي لا مرية فيه

لو تم لنا الوصول بنسائنا ورجالنا الى ما قلنا فقام الرجال بما وكل اليهم من الأعمال الخارجية حق القيام وثابروا على العظيم النافع منها وتخلقوا بفاضل الأخلاق وتضامنوا في المنافع العامة وولجوا اليها من طريقها الممكن ولبسوا لكل حال لبوساً في ذلك السبيل وقام النساء بقسطهم الذي بيناه لتوقعنا خيراً وتوسمنا للأمة رقياً وفلاحاً فعلينا أن نلج في الوصول الى هذا الطريق القويم ولا يقنطننا منه تباين الأفكار واختلاف الآراء وصعوبة المسلك مع تقاعد الهمم متمسكين بشريعة القادر الرحيم . (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد)

السعادة

قال المتقدمون من الحكماء مثل فيثاغورس وأبقراط وأفلاطون ان السعادة تكون باعتدال القوى النفسية الثلاث وهي الحكمة والشجاعة والعفة فاذا بلغت النفس حد الاعتدال فيها كانت سعيدة وان

تألم البدن أو ذهب بعضه الا اذا أدى ذلك الى تطرّق خلل في تلك الفضائل فعلى هذا يكون الكامل في تلك القوى سعيداً وان كان مريضاً أو مبتور الأيدي أو الأرجل الا اذا عرض له ما يقتضى فساد العقل أو رداءة الذهن ونحوهما مما ياحق بالنفس مضرّة في خاص أوصافها وذلك لأنهم عوّا بالسعادة ما كان أبدياً باقياً لا فانياً زائلاً وهم القائلون بالميعاد الروحي الذي تكلمنا عليه في الفلسفة النظرية وهم الذين يقولون ان البدن عائق لها بظلمته الحيوانية الشهوية والفضيية عن وصولها الى معلوماتها الحقة التي هي معشوقتها فما دامت في هذه الظلمات لا تحصل على لذاتها الباقية وحياتها الراضية

وقد رأى أرسطو ومتابعوه أن فعل النفس الخيرات ووصولها للكمال لا يكون الا بواسطة مادتها التي هي البدن فلا بد من اعتبار سعادته في سعادتها . ان الانسان مكوّن من شيئين أحدهما النفس الناطقة وثانيهما الجسم فلا تتم له السعادة الانسانية الا باستيفاء كمال ذينك الشيين وقال في بيان ذلك ان السعادة الانسانية يجب ان تكون حال الحياة وبعد الممات وأنها ليست أمراً تخيلاً الا يرى أن السقيم يتخيل أن السعادة كل السعادة في الصحة وأن الفقير يراها في الثراء والمال والعاشق يراها في الوصول الى معشوقه بل يراها السكران في الوصول الى السكر والزاني في الوصول الى غرضه الى غير ذلك من كل ما الانسان خاومه وشاقه الوصول اليه سواء كان فضيلة أو تقيصة فاذن لا بد من تحديدها تحديداً حقيقياً خالياً من التخيلات وعلى هذا فالسعادة تكون باستكمال القوة الحكمية على حد الاعتدال وقوى العفة والشجاعة كذلك واستكمال

البدن الصفات الكمالية كالصحة وغيرها من الأشياء الجسمية التي لها دخل في قوام الجسم ونمائه من الغذاء والشراب واللباس والمسكن وغير ذلك على الحد الوسط الذي تسنه القوة الحكيمية بمعنى أنه يكون زيادة عن الخلو من الأمراض والأسقام مقسطاً خصائصه على وفق ما ترسمه القوة الحكيمية. وتختلف مراتب السعادة قوة وضعفاً تبع اختلاف سعادتي النفس والبدن من حيث الاعتدال في كل خصائصهما أو عدمه أو الاتصاف ببعضها دون البعض الآخر فالذي توفرت فيه القوة الحكيمية والشجاعة والعفة على الحد المرغوب فيه أكثر سعادة ممن توفرت فيه القوتان الأولى والثانية أو الأولى والثالثة أو الذي لم تبلغ فيه القوى الثلاثة حد الاعتدال كل هذا منضم الى استكمال البدن خصائصه الكمالية أما اذا لم يكن كذلك بأن توفرت لديه القوى الثلاث بدون استكمال البدن تلك الخصائص بأن كان سقيماً مريضاً أو كان غير حاصل على ما يقوّم به أو د حياته من الغذاء أو يدفع به ألم البرد فانه لا يكون مستكماً السعادة الانسانية بل النفسية دون البدنية ولا سعادة الا باستكمالها معاً فان الانسان مركب منهما كما قلناه

وعلى رأيه السعادة الانسانية التامة تتوقف على خمسة أشياء كل قسم منها تكون عنه سعادة ناقصة الأول ان يكون صادق الاعتقادات في التصديقات الدينية وغيرها من المعلومات الأخر بريئاً من الخطأ والزلل جيد الرأي صحيح الفكر أصيل المشورة الى آخر ما تقدم من الصفات التي يتم بها اعتدال القوة الحكيمية الثاني أن يكون صحيح البدن لطيف الحواس بمعنى أنه يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس وذلك

يكون عند اعتدال المزاج الثالث أن يكون ذا ثروة وعشيرة وأعوان
كي يستطيع فعل الخيرات لمستحقها على الوجه الذي ينبغي ويقتدر على
دفع الضيم عنه وموازنة من تحسن موازرتة الرابع أن تحسن أحدوثته
الحقة لدى الناس وتكثر مدحته الصادقة بين أهل الفضل فان ذلك يزيد
قلبه سروراً ويده بسطة في فعل الخيرات الخامس أن يرزق النجاح
في أموره فتيسر له مقاصده وتصل اليه أغراضه ويدرك الغاية المقصودة
ويجمع كل هذه استكمال فضيلتي الشجاعة والعفة

وما ذهب اليه أفلاطون تعضده الشريعة الاسلامية فانها ناطت
السعادة الفانية والباقية بصادق الاعتقاد بما جاء به الرسول عليه الصلاة
والسلام والقيام بامثال الاوامر واجتناب النواهي والتحلي بفاضل الاخلاق
التي سبق الكلام عليها وان كان مريضاً أو مبتور بعض الاعضاء أو فقيراً
معدماً بل رغبته في الصبر على ذلك باجزال الأجر والثواب في الحياة الباقية
هذا ما نراه كافيّاً في الاتصاف بالسعادة ولا نغالي فيها مغالاة بعض
الفلاسفة اذ قالوا انها لا تكمل الا اذا تشبه الانسان باخالق فيفعل الخير
لا لغرض مطلقاً بل لكونه كمالاً ونفسه كاملة فيأضه لذلك الكمال على
نحو ما قالوه في صدور العالم عن الله فان ذلك شيء قد لا يتحقق مهما
رغبنا في السعادة وحثنا عليها فان غالب الناس ان لم يرغبوا لا يقبلوا كما
أنهم اذا لم يرهبوا لا يدبرون ولذا جاءت الشريعة المطهرة مشتملة على
قرن المأمور به من الاعمال بالمرغبات وقرن المنهى عنه بالمرهبات (ومن
أصدق من الله حديثاً) ومهما بلغ الانسان في رقي الكمال فانه بشر يألم
ويحزن ويفرح ويهش للثناء الصادق ويلذ بالآكل والمشرب والاستمتاع

الى غير ذلك مما يعد انكاره مكابرة أما القول بأنه يكون شبيهاً بالاله في كل ذلك فشطط ظاهر واذا تساهلنا فيه معهم بعض التساهل (من غير اذعان لرأيهم في ايجاد الله العالم) نقول انها بهذا المعنى لا تكون الاً للانباء عليهم الصلاة والسلام . هذا وقد ذهب كثير من المحدثين مذاهب شتى في حقيقتها وغالبها راجع الى أمور تخيلية أو حيوانية لا تصلح أن تكون من الخصائص الانسانية ولهذا كانت خالية من الصواب فلا داعي لايرادها وبالله التوفيق

رجوع الشريعة الاسلامية المطهرة الى مكارم الأخلاق

أبنا غير مرة فيما سبق أن سعادة الافراد ورفق الأمم اما هو منوط بعلمها بالحقة والعمل على مقتضاها وظاهر أن العمل لا يعظم شأنه وينتج السعادة العامة والقوة الشاملة الا اذا اتحدت فيه الوجهة واجتمعت عليه الأيدي وحفظت حقوق الافراد وعرف كل واحد ما هو منوط به بالنسبة لأبناء أمته من واجب الاخاء والمعاضدة والصدق في المعاملة الى غير ذلك من الأعمال والأخلاق الفاضلة المؤدية الى التحاب وحفظ سياج المجتمع الانساني

وإذا نظرت الى هذه الشريعة المطهرة وجدت أنها عُنيت بالأعمال وأجادت أحكامها وحضت على عمل كل ما فيه منفعة لبني الانسان في حياتهم الفانية والباقية ورغبت في الأخلاق الفاضلة المؤدية الى التحاب والتعاون على جلب الفوائد ودفع المضار وجاءت بالعقائد السهلة البسيطة التي لا تحتاج في الاذعان بها الى كثير من الأدلة والبراهين العويصة كما

درج عليه الفلاسفة في أقوالهم بل نبهت عليها بالأدلة المحسوسة المألوفة
للفطر الإنسانية . ولم تتوسع فيها توسع الحكماء الباحثين عن أعيان
الموجودات وأحوالها ذلك البحث الذي هو مزلفة للعقول وتضييع للأزمان
على قلة الجدوى بل ذكرت من تلك العقائد ما جاءت به الرسل عليهم
الصلاة والسلام مما يتوقف عليه نظام المجتمع الانساني والمثابرة على الأعمال
النافعة مع الخوض على الالفه واتحاد الوجهة وذلك كالاعتقاد باله واحد
ثابتة له صفات الكمال منتفية عنه النقائص له الرقابة والهيمنة على ما في
الضائر وخفايا الأعمال والاعتقاد باليوم الآخر واثابة المحسن بجزييل الثواب
والنعيم المقيم والسوء بأليم العقاب وبيئت ذلك كله بضرب الأمثال المحسوسة
والأدلة المألوفة في آي القرآن الكريم والحديث الشريف كما أسلفناه في
الجزء الأول من كتابنا هذا

إذا قرأت الكتاب الشريف ونظرت في السنة وجدت حكماً عالية
ومعاني رائعة لا تسمو اليها الأفكار البشرية ولا تطاولها المعلومات
الانسانية ولا ينكر هذا الامكابر

الشريعة مشتملة على تلك العقائد القليلة البسيطة وعلى أحكام الأعمال
الحسنة مشفوعة بالمواعظ والعبر . وتلك الأعمال على كثرتها وعدم دخولها
تحت الحصر ليست الا نتائج أخلاق فاضلة .

لأنها (اما عبادات) ومرجعها النظافة وتهذيب الأخلاق واظهار
الخضوع والعبودية والشكر لذلك الخالق العليم القدير القاهر فوق عباده
وهذا يدعو الى امتثال أوامره واجتناب نواهيه . قال تعالى (ان الصلاة
تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)

ويترتب على ذلك كف النفس عما ليس من حقها (واما زواج وما يتعلق به من طلاق ونفقة وحضانة) وظاهر أن منح الزوجة الصداق يُدخل على قلبها الفرح والسرور فان اعطاء الغير ما تألفه نفسه اذا كان ممدوحاً يعد من قبيل المودة التي تستعقب حسن العشرة ومن ذلك حسن معاملتها على قدر الاستزاعة في النفقة بأنواعها من مأكل وملبس ومسكن وعدم مضارتها وتكليفها بما لا يخرجها مما لم يفرضه عليها الشارع والزامها بالطاعة بعلها فيما تنبغي فيه الاطاعة وابعاث حكم من أهله وحكم من أهلها عند الشجار والخلاف كي يصلحا بينهما ان كانت الفائدة في ذلك والا افترقا وألزم الزوج بالانفاق عليها جزاء احتباسها على ذمته مدة العدة . قال تعالى (وان يتفرقا يغن الله كلاً من سعته)

وإذا كان لهما ولد لا يقوى على قضاء حاجياته بأن كان صغيراً لا يمكنه أن يتناول غذاءه بنفسه من المنزل ولا يقوم بأمر شرابه ولبسه ملابسه وقضاء حاجته ترك لأمه ما دامت غير متزوجة بأجنبي منه لأنها أشفق عليه وأقدر على قضاء لوازمه من أبيه القائم بأعماله الخارجة عن المنزل فان لم تكن قادرة على حفظه والقيام بمهامه قامت أمها مقامها فان لم تتوفر فيها شروط المحافظة عليه قامت أم أبيه مقامها كل هذا مع قيام أبيه بالانفاق عليه . وجميع ذلك يرجع الى خلق الرحمة والمحافظة على الغير ومثل هذا الوصاية على الصغير والوكالة عن الكبير وما فيهما من الأحكام فانها راجعة الى خلق الأمانة والرحمة وكذلك أحكام الحجر واللقيط والمفقود ومثل ذا أحكام الانفاق على القريب المحرم وأحكام الموارث فانها مبنيان على ايثار ذوى القربى ومن ثم روعي فيهما قوة القرابة

ودرجتها والاعتداد بمن يقوم مقام الميت من أسرته في إقامة دعائم حياتها
وكل ذلك راجع الى خلق المروءة والانصاف والرحمة
وأحكام الوصية والهبة مبنية على البذل والتوادّ وهما من أعظم مقومات
خلق المحبة التي هي من أقوى دعائم نظام الاجتماع
(واما عقوبات) وجميع أحكامها راجعة الى ردع ذوى الأخلاق
الفاصلة عما ارتكبه حتى يتهجوا في سيرهم على مقتضى الأخلاق الفاضلة
فان كثيراً من بنى الانسان ليسوا بالمهذبين الذين يعتقدون الفضيلة حباً
فيها فأمثالهم لا يحسن معهم الوعظ والحث على ترك الرذائل والتخلق
بفاضل الخلال بل لا يجدى فيهم الا الاخافة بالحبس والضرب والتعزير
والغرم . ومن جنى منهم جناية كبرى تشعر بأن وجوده في المجتمع مؤد
الى الاخلال بنظامه فهو بمنزلة العضو الفاسد الذى اذا أبقى عليه يطرق
الفساد الى غيره من الاعضاء كان الأنسب بمصلحة الأمة اعدامه وراحة
المجتمع منه

وما يرى في بعض أحكامها من الشدة كقطع يد السارق ورجم الزانى
المحسن انما هو لعظم الجريمة ومعلوم أن شدة العقوبة أدخل في الرجوع
عنها وأشد زجراً للغير عن ارتكاب مثلها على أن الشريعة قد راعت في
أمثال هذه العقوبات شروطاً يقل وجودها في كثير من تلك الجرائم
(واما معاملات) ومن يتأمل في أحكام ما فيها من بيع واجارة
وشفعة ومساقات ومزارعة وكفالة وحوالة وقرض ورهن الخ يجد أنها
راجعة الى الاعتداد بالتعاقد المفيد أحكام كل هذه الأشياء ألا يرى أنه اذا
أهمل ولم يعول عليه انتقض الأمر وكان كل من البائع والمشتري والمؤجر

والمستأجر والكفيل والدائن والمساق والمزارع ورب الأرض في حل مما قال فينقض اليوم ما أبرمه بالأمس وذلك مناف لخلق الوفاء والاعتداد بالقول ويترتب عليه الخصاص والشجار وما نراه من الرد بالعيب في البيع والاجارة راجع الى خلق الانصاف والصدق في المعاملة وعدم اثار النفس والتوق من الاضرار بالغير . وما يرى في أحكام القرض من تحريم الربا عائد الى خلق الرحمة والسهولة في المعاملة الجالبة للمحبة العامة بين أفراد الأمة وهي من أعظم الأخلاق التي تنمي الوثام والوفاق فلا يعدل عنه لفائدة جزئية شخصية قد تستعقب عداً وسخطاً

وبالجملة لوراجعنا أحكام هذه الأشياء مع زائد الامعان لوضح لنا انها راجعة الى أنواع مكارم الأخلاق التي هي أهم شيء في نظام الأمم واتحاد وجهتها

ان ما نراه في الشريعة من أحكام معاملة أهل الذمة وأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا الا في بعض أحكام قليلة مبنى على خلق الانصاف مع الاحتفاظ بأن لنا بعض الخصائص فان أبناء الأمة اذا لم يكن لهم بعض الميز بل كانوا لدى أمتهم كغيرهم الذي ليس منها في جميع الأحكام والمزايا ولذلك فيهم عدم الاحتفاظ بها والقيام برقيها واعلاء شأنها - ولا يؤثر المساواة في كل الأحوال على الميزة الا بعض المهديين وهم قليلو العدد نادرو الوجود لا تبني على أحوالهم الشرائع الاجتماعية

قد تبين لك مما قلناه أن هذا خلق حسن يترتب عليه قيام الأمة ونهوضها بدون اضرار كلى بمن ليس منها وانتظم في سلك مجتمعا ان أحكام المعارك مؤسسة على احراز الغالب نتائج عمله مع شيء من

الرفق اذ حرمانه منها مؤذن بهبوط الهمة وانحلال العزائم على الأعمال
واقباض الأيدي وضعف الآمال ولا يرضاه الا من اجتث منه خلق
الميزة وترك نتائج أعماله فرضى بائثار منفعة خصيمه على منفعته ومثل هذا
لا يراعى في الأحكام الاجتماعية كما قدمناه - هذا قانون كلي لو خرجنا
عامة أحكام الشريعة على مقتضاه لاستغرق زمناً طويلاً وملاً مجلدات
كثيرة . فعليك عرض ما تريد من الأحكام على ما رسمناه من البيان
الوجيز تتضح لك صحة ما أسلفناه

اذا عقلت هذا عامت مغزى قوله عليه الصلاة والسلام (بعثت

لأتمم مكارم الاخلاق)

اللهم وفقنا للاهتداء بهديه والعمل على سنته انك سميع مجيب
يا واسع الفضل يا جزيل العطاء اجعل ما سطرته خالصاً لوجهك
الكريم نافعاً لقارئه عاملاً بما فيه تههدنا يا واسع الفضل الى ما فيه نجاحنا
في الدنيا والآخرة انك على كل شيء قدير وبالاجابة جدير وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

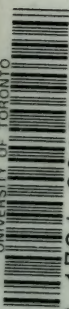
وقد فرغ من جمعه الفقير الى رحمة ربه سلطان بن محمد بن علي المدرس بمدرسة
العامين الناصرية في اليوم السابع من شهر شوال سنة تسع وعشرين وثلاثمائة
والف هجرية



﴿ فهرست الخطأ والصواب لكتاب الأخلاق الإسلامية ﴾

صواب	خطأ	سطر	صفحة
يبدل الله سيئاتهم	يبدل سيئاتهم	١٠	١
الاربعه	الاربع	٣	٥
وقد قدمنا	وقدمنا	٤	٣٠
التفريط فيه	التفريط المذكور	٥	٣٠
بحسده	يحسده	٦	٣٨
آوت	أوت	١٥	٦٦
ذوو	ذووا	٥	٧٢
ذوو	ذووا	٩	٧٣
النفسية الثلاثة	النفسية الثلاث	١٩	٨٢
القوى الثلاثة	القوى الثلاث	١١	٨٤

UNIVERSITY OF TORONTO



3 1761 00181218 9